مكتبة الأسرة 2000

مهرجان القراءة للجميع 2000

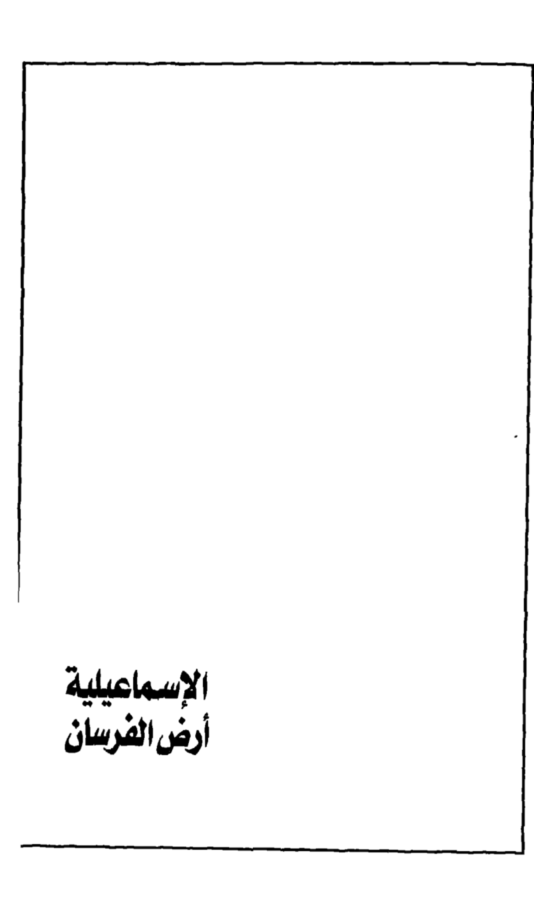
الأعمال الخاصة

محمد الشافعي

الإسماعيلية أرض الفرسان



الهيئة المصرية العامة للكتاب



الإسماعيلية
أرض الفرسان

لوحة الغلاف

اسم العمل الفنى: أطراف المدينة

التقنية: ألوان مائية على ورق

رقم السجل: ٨٨٣٠

سعيد الصدر (١٩٠٩ - ١٩٨٦)

رائد الخزف الأول فى الحركة المصرية الحديثة. فنان رفيع القامة فى مجاله، وأول من أدخل جليزات البريق المعدنى، والفورمات ذات النسق المصرى الإسلامى فى الأوانى حتى صار علما فى فن الإناء فى العصر الحديث.

مصور فائق الحنكة، ورسام اسكتش من نوع فريد، وتبدو المناظر البلدية التى رسمها معبِّرة عن عبق فواح من رحيق العادات الحضرية للمصريين.

أستاذ ومعلم ذائع الصيت، تخرج على يديه من التلاميذ ممن يثرون اليوم حركة فنون الخزف الحديثة فى مجاليها، الفن الخالص، والفن اليومى الاستعمالى.

أحمد فؤاد سليم

الإسماعيلية
أرض الفرسان

محمد الشافعى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠٠
مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الخاصة)

الإسماعيلية
أرض الفرسان
محمد الشافعي

الغلاف
والإشراف الفنى:
الفنان : محمود الهندى

المشرف العام :
د . سمير سرحان

الجهات المشاركة:

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشـــباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم

«كتاب لكل مواطن ومكتبة لكل أسرة» تلك الصيحة التى أطلقتها المواطنة المصرية النبيلة «سوزان مبارك» فى مشروعها الرائع «مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة» والذى فجر ينابيع الرغبة الجارفة للثقافة والمعرفة لشعب مصر الذى كانت الثقافة والابداع محور حياته منذ فجر التاريخ.

وفى مناسبة مرور عشر سنوات على انطلاق المشروع الثقافى الكبير وسبع سنوات من بدء مكتبة الأسرة التى أصدرت فى سنواتها الست السابقة «١٧٠٠» عنواناً فى حوالى «٣٠» مليون نسخة لاقت نجاحاً واقبالاً جماهيرياً منقطع النظير بمعدلات وصلت إلى «٣٠٠» ألف نسخة من بعض إصداراتها.

وتنطلق مكتبة الأسرة هذا العام إلى آفاق الموسوعات الكبرى فتبدأ بإصدار موسوعة «مصر القديمة» للعلامة الاثرى الكبير «سليم حسن» فى «١٦» جزءاً إلى جانب السلاسل الراسخة «الابداعية والفكرية والعلمية والروائع وامهات الكتب والدينية والشباب» لتحاول أن تحقق ذلك الحلم النبيل الذى تقوده السيدة: سوزان مبارك نحو مصر الأعظم والأجمل.

د. سمير سرحان

الإهداء

إلى صلاح الدين الأيوبي

من المؤلم حقاً..

أن ترى..

(دموع سيفك)

والأكثر إيلاماً

أن ترى أحفادك

في (شرنقة العجز)

فهل إلى عودة من سبيل..؟!!

محمد الشافعي

ثقافة المقاومة

أزعجتنى كثيرا فكرة أنى أسبح (ضد التيار).. ثم أراحتنى كثيراً فكرة أن التيـار هو الذى يسـبح (ضـدى).. ولكى نخـرج من هذه الإشكالية التى تبدو غامضة نضع القضية عند بدايتها. وذلك عندما طرحت (المؤسسة الرسمية) فى مصر فكرة (ثقافة السلام). والسلام إسم من أسماء الله الحسنى. وهدف نبيل تسعى إليه الإنسانية منذ بدء الخليقة وحتى الآن. وهذا السلام النبيل لا يخلق (مجتمعات ملائكية) ولكنه يخلق (التوازن) بين المجتمعات. ولا يتحقق إلا بين قوتين متساويتين أو متقاربتين تستطيع كل منهما قهر الأخرى أو على الأقل صد وردع (العدوان) إذا ما حاولت القوة الأخرى ذلك العدوان ومثل هذه (الرؤية السلامية) هى التى تنزع (فتيل الصراع) وتغرس (جذور المصالح).

ومن هذا المنطلق يصبح الطرح المصرى عن ثقافة السلام خروجاً على النص (وتنازل) بلا مبرر ولا مقابل. وذلك لأن (الصراع) العربى

الصهيونى لم ينتهى ولن ينتهى إلا بوجود (السلام العادل) الذى يرتكز على (توازن القوى).

وهذا السلام العادل فى صورته الرومانسية يعنى أن يتم نزع (دولة السرطان الصهيونى) من قلب الجسد العربى.. ولأننا لسنا فى زمن صلاح الدين الأيوبى فإن هذا (السلام العادل) يعنى عودة كل الحقوق السليبة إلى دول الصراع مع إسرائيل وفى مقدمتها حقوق الشعب الفلسطينى.

ولأن هذا لم يتحقق ولن يتحقق فى ظل فقدان (توازن القوى) وفى ظل هذا (التخاذل العربى) ذلك التخاذل الذى أدى إلى سلسلة لا نهائية من التنازلات التى تحصل عليها أمريكا لصالح إسرائيل والتى تحصل عليها إسرائيل بنفسها بما يجعل طرح ثقافة السلام ليس إلا وسيلة أخيرة لتحطيم أخر حصون الصمود فى وجه الغزو الأمريكى الصهيونى. ذلك الغزو الذى يبدأ بالهامبورجر والكوكاكولا وينتهى بامتلاك (إرادة القرار السياسى) ويعلن عن نفسه من خلال العلم الأمريكى الذى أصبح تواجده فى الشارع العربى أكثر من كل الأعلام العربية..!!

وقد تلقفت العديد من المنظمات الدولية وفى مقدمتها الأمم المتحدة ومنظمة اليونسكو مصطلح (ثقافة السلام) وراحت تروج له وتنشره فى كل مكان وتقيم له المؤتمرات والندوات فى محاولة لإقناع (العقل

العربى) بأن (التواصل الثقافى) مع دولة الكيان الصهيونى هو السبيل الوحيد للوصول إلى (التعايش السلمى).

وفى زمن (الجذر العربى) لم ينقذنا من التيار العاتى لثقافة السلام إلا ذلك الإرهابى نتنيا هو رئيس الوزراء السابق للكيان الصهيونى عندما وصف المصريين فى خطاب عام له بمناسبة الذكرى العشرين لتوقيع معاهدة كامب ديفيد بأنهم (أعداؤنا فى الجنوب) وقد كان الرجل صادقا مع نفسه ومتسقا مع ذاته فرغم أنه المعتدى والمغتصب لحقوق الآخرين يرى المصريين (أعداؤه) رغم وجود معاهدة سلام فكيف يرى السوريين مثلاً؟.. وكيف لا نخجل ونحن نروج لهذه الثقافة السلامية؟!

وقد إستطاعت هذه اللطمة أن تفيق (الوعى العربى) إلى حد كبير ولكن هذا الوعى مازال حتى الآن مفتقدا لإرادة الفعل وذلك لأن الشعوب العربية قد تنازلت بمحض إرادتها أحيانا وبالقهر أحيانا أخرى عن (تلك الإرادة).

وبعيداً عن زفه اللاعنين للظلام قررنا أن نضئ شمعة من خلال تقديم (طرح بديل) لما أسموه ثقافة السلام وهذا الطرح البديل يكمن فى (ثقافة المقاومة) وهى ثقافة لا تعنى العدوان على الآخرين أو التحرش بهم ولكنها تعنى بكل البساطة إعادة صياغة الوجدان العربى بشكل عام والوجدان المصرى بشكل خاص ليصبح على

(أهبة الإستعداد) لردع أى عدوان عليه ولكن (مرحلة الردع) تأتى على قمة المستهدف ويسبقها مراحل كثيرة أهمها (الإفاقة) ثم (التماسك) ثم (الصمود) كما أنّ ذلك الوعى العربى (الغائب) أحيانا و(المغيب) دائما يحتاج إلى عملية نقل ضخمة لدماء (النخوة) و(التثوير) وهذا لن يكون إلاّ من خلال عملية (إحياء) لكل تراث المقاومة لدينا.

وقد كانت المقاومة وستظل قدراً مصريا حيث أدى (التفرد) الجغرافى والتاريخى والإنساني إلى وجود سلسلة لا تنقطع من (الإستهداف) لمصر الموقع و(الدور) وقد بدأت هذه السلسلة منذ فجر التاريخ وستظل إلى ما شاء الله.

ولم يحفظ على مصر (هويتها) و(قامتها) إلا الإعتصام دوماً بروح المقاومة. وفى ظل حالة (الجذر) التى نعيشها منذ منتصف السبعينيات لا يصبح أمامنا إلا الاعتصام بذلك التراث المقاوم ولن نلجأ إلى (إستدعاء) كل ذلك التراث منذ (أحمس) وحتى (عبد الناصر) ولكننا فقط نركز على ذلك (الزخم النضالى) الذى أتيح لمصر وللمصريين خلال ربع قرن فقط بداية من ١٩٤٨ - ١٩٧٣ ففى هذه الفترة القصيرة فى عمر الزمن بلغت مصر ذروة النضال الإنسانى وكان شعبها (النموذج الأمثل) للمقاومة والنضال فقد شهدت هذه الفترة القصيرة حركة الفدائيين فى منطقة القناة والتى

بدأت بعد حرب ١٩٤٨ وقد تم تتويج هذه الحركة بقيام ثورة يوليو المجيدة بقيادة الزعيم جمال عبد الناصر والذى إستطاع أن يجعل مصر (رائدة) فى كثير من المجالات خاصة التحرر الوطنى والتنمية فكان لابد من ضرب هذه التجربة حتى لا يتم (تعميمها) فى كل دول العالم الثالث فحدث العدوان الثلاثى فى عام ٥٦ ولكن عبد الناصر خرج من هذه المعركة زعيما إقليميا ونموذجا يحتذى به فى كل العالم مما جعل التربص الإستعمارى يزداد ضراوة وتصميما على ضرب هذه التجربة فكان عدوان ١٩٦٧ ورغم الهزيمة إلا أن عبد الناصر إحتمى بالشعب الذى إنتفض من خلال قواته المسلحة فى حرب الإستنزاف العظيمة التى إستطاعت حقن كل المصريين بمصل المعركة والثقة فى النصر وكان لابد وأن تتوج هذه الحرب العظيمة بإنتصار عظيم فى أكتوبر ١٩٧٣ ولكن (التربص الإستعمارى) حاول (الإنتقاص) من هذا الإنتصار عن طريق ثغرة الدفرسوار التى أدت إلى حصار السويس واستجمع شعب السويس كل تراث المقاومة فى التاريخ المصرى ولقن اليهود درساً شديد القسوة بعد أن أذلهم وكسر كبرياءهم وبعد هذه الإنتصارات المتوالية جاءت الرياح بما لا تشتهى السفن فارتمينا فى أحضان أعدائنا وبدأت عملية تقليص مكتسبات الشعوب فغذت فيروسات الترهل والسلبية واللامبالاة ذلك (الوجدان المناضل) فكان لابد من أن نعتصم مرة أخرى وليست

أخيرة بذلك (التراث النبيل) للمقاومة وهنا تكمن الشمعة التى أضأناها من خلال سلسلة من الكتب التى تلقى الضوء على أعظم وأجمل تجارب المقاومة فى العصر الحديث تلك الكتب التى بدأناها بكتاب (السويس مدينة الأبطال) ثم (بورسعيد بوابة التاريخ) ثم (أنغام المدافع) ثم (شموس فى سماء الوطن) وها نحن نقدم الكتاب الخامس (الإسماعيلية أرض الفرسان) وفى هذا الكتاب الأخير نقدم تجربة شديدة التفرد فى النضال والمقاومة حيث بدأت رحلة الإسماعيلية مع المقاومة بعد توقيع معاهدة ١٩٣٦ بين النحاس باشا والإنجليز وقد نصت هذه الإتفاقية على إنسحاب الإنجليز من كل مصر وتمركزهم فى منطقة القناة وأختار الإنجليز الإسماعيلية لموقعها المتوسط على قناة السويس ولوجود المركز الرئيسى للقناة بها (مركز النفوذ الفرنسى) لتصبح المركز الرئيسى لهم تتمركز فيها أكثر من ٨٠ ألف ضابط وجندى كما ضمت أكبر مخازن السلاح فى الشرق الأوسط والتى بناها الإنجليز فى الإسماعيلية وفايد وأبو سلطان ولذلك كانت الإسماعيلية ضحية الإنجليز أثناء الحرب العالمية الثانية عندما راحت قوات المحور تضرب معسكرات الإنجليز فى المدينة وتضرب أهل المدينة أيضاً. وبعد إنتهاء هذه الحرب (لحس) الإنجليز كل وعودهم بإستقلال مصر فانفجر بركان (الغضب الوطنى) عند المصريين وكانت الإسماعيلية (الحضن) و(الحضانة)

لذلك الغضب الثورى الذى تصاعد بعد حرب ١٩٤٨ وإستطاع الفدائيون أن يفعلوا كل شئ فى الإنجليز من قتل وإصابه وأخذ بلا حدود من مخازن أسلحتهم وقامت ثورة يوليو لتحتضن الفدائيين وأعطتهم الضوء الأخضر لضرب الإنجليز بكل القوة مما جعل المحتل يرضخ فى النهاية ويوقع إتفاقية الجلاء وبعدها أمم عبد الناصر قناة السويس ليتخذ الإستعمار من ذلك شماعة لاعادة احتلال مصر ولكن بورسعيد وقفت فى وجه العدوان وأفتدت مصر كلها وإنتصرت لنفسها ولمصر.

وشهدت منطقة القناة بعد ذلك سنوات من التألق والإزدهار حتى حدث العدوان الصهيونى على مصر فى يونيه ١٩٦٧ وبدأ ذلك العدو البربرى بعد إحتلاله لسيناء ينهال على المدنيين فى مدن القناة بغارات فى منتهى القسوة والوحشية فتم تهجير المدنيين من المدن الثلاث ولم يتوقف العدو عن إعتداءاته الغاشمة وإذا كانت وارسو عاصمة بولندا هى أكثر المدن تدميراً أثناء الحرب العالمية الثانية فقد تفوق الصهاينة على النازى ودمروا السويس والإسماعيلية أكثر مما دمرت وارسو بل إن مدينة صغيرة مثل القنطرة غرب لم يترك الصهاينة فيها بيتا واحدا دون أن يدمروه وقد كان الصهاينة يلجأون إلى هذا الأسلوب الوضيع بضرب المدنيين رداً على الضربات الموجهه التى توجهها لهم قواتنا المسلحة خلال حرب الإستنزاف تلك الحرب

التى نجحت فى إستنزاف قوات العدو وأسلحته وأعصابه أيضاً. وتم تتويج هذه الحرب العظيمة بإنتصار أكتوبر العظيم ولكن العدو نجح فى العبور إلى غرب القناة من خلال ثغرة الدفرسوار.

وإذا كانت عكا وستالنجراد أشهر المدن التى إستعصت على محاصريها بعد أن إستعصت عكا على نابليون وستالنجراد على هتلر فإن السويس لم تستعصى فقط على الصهاينة ولكنها إستطاعت (حصار محاصريها) بينما نجحت الإسماعيلية فى تركيع ذلك العدو الذى أراد حصارها وكسرت أنفه وكبرياءه عند قرية أبو عطوة

وعلى مدى ربع قرن من ٤٨ - ١٩٧٣ إستطاع شعب الإسماعيلية أن يضرب أروع الأمثلة فى النضال والمقاومة ولذلك كان من الطبيعى أن تأخذ تجربة الإسماعيلية موقعها المتميز فى مشروعنا لترسيخ (ثقافة المقاومة) ذلك المشروع الذى يهدف إلى إحياء القدرة على التماسك والصمود والردع أمام كل من يحاول الإنتقاص من أقدارنا أو مقدراتنا كما يهدف إلى العمل على إيجاد القدوة النبيلة والشريفة حتى يتمثلها شباب الأجيال الجديدة ويحذون حذوها فإذا ما حدث ما يستدعى وجود ابطال مثل هؤلاء الأبطال العظماء الذين نقدمهم وجد الوطن أبطالاً آخرين يتقدمون الصفوف بازلين عطاءاتهم النبيلة دون أن ينتظروا من أحد جزاء ولا شكوراً كما يهدف مشروعنا أيضا إلى

رد (بعض الجميل) إلى أبطالنا الذين (رفعوا ذكرنا) فى العالمين فأسقطهم البعض من (ذاكرة الأمة) ثم وضعناهم جميعاً فى (كهف النسيان) كما أن ثقافة المقاومة تمثل ضرورة حيوية فى ظل ذلك الغزو الذى يهدف إلى تنويب الكيانات الاصغر والهيمنة عليها من خلال (غول العولمة) وبذلك تصبح ثقافة المقاومة (حائط الصد الاخير) فى الحفاظ على الهوية وردع كل محاولات العدوان وذلك لأن العدوان على الأرض لا يختلف كثيراً عن العدوان على الثقافة أو الإقتصاد الخ. كما أن ثقافة المقاومة تمثل (مرآة صادقة) يرى فيها المهرولون إلى (أعتاب الصهاينة) كم هى عملاقة وراسخة (حوائط الدم) التى بناها الصهاينة بينهم وبين العرب وأن (أنفاق التطبيع) لن تهدم هذه الحوائط العملاقة وأننا لن ننسى وفى النهاية نعتقد أننا من خلال تلك المجموعة من الكتب التى ترسخ آليات ثقافة المقاومة نشارك كل الشرفاء فى السباحة ضد التيار أو سباحة التيار ضدنا ولكننا فى كل الاحوال نقدم (طوق النجاة) من الطوفان الذى بدأ بالفعل.

محمد الشافعى

كفر الشرفا القبلى

فى ٨ أكتوبر ١٩٩٩

الإسماعيلية بين الجغرافيا والتاريخ

من العصر الفرعوني إلى الفتح الإسلامي

تقع منطقة الإسماعيلية في منتصف قناة السويس ويحدها شرقاً سيناء وقناة السويس التي تخترق بحيرات التمساح والبحيرات المرة ويحدها غرباً الحدود الشرقية للدلتا على إمتداد فرع دمياط. ويحدها جنوباً الطريق الواصل بين السويس والقاهرة، ويحدها شمالاً بور سعيد وبحيرة المنزلة .

وهذا الموقع جعلها حلقة الوصل الطبيعي بين سيناء شرقاً والدلتا غربا والصحراء الشرقية جنوباً.. وتمثل هذه المنطقة الجسر البرى الذى ينقلنا بالتدريج من الصحراء الشرقية إلى سيناء شرقاً وهى المنحدر الطبيعي إلى حوض الدلتا غرباً ولذلك فهى أقرب فى بنيتها وتضاريسها وسائر خصائصها الطبيعية إلى إقليم شمال سيناء ولا تعدو أن تكون إمتداداً له نحو الغرب عبر برزخ السويس وصوب دلتا النيل. وإذا كانت محافظة الإسماعيلية تمتد من الشمال إلى الجنوب بإتجاه قناة السوييس فإنها تمتد من الشرق إلى الغرب على طوال

إمتداد ترعة الإسماعيلية ووادى الطميلات التى تجرى فى أجزاء منه.

الإسماعيلية فى العصر الفرعونى

كانت مصر طوال العصر الفرعوني مقسمة إلى مجموعة من المقاطعات الإدارية فى الصعيد ومجموعة أخرى من المقاطعات فى الدلتا.. وكانت مقاطعات الدلتا تتراوح ما بين ١٤ - ١٨ مقاطعة.. وكانت منطقة الإسماعيلية الآن تقع فى المنطقتين الثامنة والرابعة عشر.. حيث كانت المنطقة الثامنة تقع ما بين وادى الطميلات والبحر الأحمر وعاصمتها (نفراياتب) أو (يروع حر محيت أيون) ولقد ورد إسمها فى قائمة الملك سنوسرت الأول على أنها المقاطعة الأولى (رع أياتب) أو مقاطعة حور الصقر. ويرى بعض الباحثين أن موقعها الحالى هو (تل المسخوطة) الذى يبعد حوالى خمسة عشر كليو مترا شرق الإسماعيلية .

بينما تأتى المقاطعة الرابعة عشرة في الترتيب السادس وفقا لقائمة الملك سنوسرت الأول وإسمها (خنت أياتب) أو نهاية الشرور. وذلك لأنها تقع فى الجزء الشمالى الشرقى من الدلتا. أما عن عاصمة المقاطعة فكانت (ثارو) وهى (أبو صيفة) الموجود حاليا قرب القنطرة شرق بمحافظة الإسماعيلية. ويبدو أن عاصمة هذه المقاطعة قد تغيرت إلى (بنو) التى يصعب تحديد موقعها ثم تحولت إلى (تانيس) أو صان الحجر على بعد حوالى عشرين كيلو مترا جنوب

بحيرة المنزلة .

وقد حظى إقليم شرق الدلتا بإهتمام كبير فى مختلف الأسر الفرعونية وخاصة بعد إعتلاء أمنمحات الأول عرش مصر وتأسيسه للأسرة الثانية عشر حيث وجه إهتماما خاصا بشرق الدلتا بعد أن قام بإصلاح السور والتحصينات الشرقية. وبعد أن إستطاع قائده (نسومونتو) أن يقهر سكان الكهوف الأسيويين ثم قام بتشييد حائط الأمير فى شرق الدلتا (فى موضع الإسماعيلية) وأسند أمر حراسته إلى الإقليم السادس عشر وإن كان بعض الباحثين يرى أن هذا الحائط قد أقيم فى عصر الملك (زوسر) وأقامه المهندس الشهير (إيموتب) وذلك لحماية مصر من خطر الأسيويين. وأن الملك (سنفرو) قام بتدعيم هذا السور وتخليد إسمه هناك وأنشأ قلاعا مربعة مما ثلة لتلك الموجودة بوادى النيل ويقول المؤرخ العالمى (تيودور) لم يكن هذا السور مجرد حائط كما يفهم من تسميته إنما كان سلسلة من القلاع أقيمت فى نهاية الطرق والممرات المؤدية إلى فلسطين .

وقد حظيت منطقة شرق الدلتا بإهتمام فراعنة الأسرة التاسعة عشرة.. فقد ولد مؤسس الأسرة (رمسيس الأول) على أرض هذا الإقليم فى (ستروبت) بين صان الحجر وفاقوس.. وقد وجه رمسيس الثانى إهتماماً كبيراً إلى وادى الطميلات فشيد به العديد من الحصون مثل عرين الأسد وحصن سيتى وسيس كما إهتم بشكل

عام بالنشاط المعمارى فى وادى الطميلات .

ومع تولى (مرنبتاح) عرش مصر عمل على تحصين منطقة جنوب شرق الدلتا (تل بسطة) وذلك لوقف زحف القبائل البدوية القادمة من أسيا وفلسطين .

الأثار الفرعونية فى منطقة الإسماعيلية

تحتوى منطقة الإسماعيلية على العديد من الآثار الفرعونية والتى يمكن إجمالها فى ما يلى ..

تل الصحابة : ويعد من المواقع الأثرية الموجودة بالمنطقة ويبلغ إرتفاعه حوالي عشرة أمتار. وقد أقام الملك رمسيس الثانى هذا التل رغبة منه فى تحصين المنطقة الشرقية ضد هجمات البدو الذين إنتهزوا مراحل الضعف التى مرت بها مصر وحاولوا التسلل عبر الحدود الشرقية .

تل المسخوطة : وقد عرف بهذا الإسم نتيجة لوجود كتلة من حجر الجرانيت للك جالس بين إلهين إعتقد الناس أنهم كانوا بشراً حقيقين ولكنهم إنسخطوا ولذلك أطلقوا على التل هذا الإسم .

وقد وصف أحد مهندسى نابليون هذه الكتلة فقال.. هى قطعة واحدة من الجرانيت تشكلت فى هيئة مقعد يجلس عليه ثلاثة أشخاص مصريين من طائفة الكهنة والأثر مرتكز فى مكانه وتتجه وجوه التماثيل نحو الشرق بينما يغطيهم الرديم حتى وسطها.. أما

ظهر المقعد فمغطى بالكتابة الهيروغليفية التى تتخذ أشكال الصور وفى الموقع قطع عديدة من الحجر الجيرى وحجر الجرانيت وكلها منقوشة بالهيروغليفية مما يدل على وجود مدينة مخربة وقد عثر عالم الآثار (نافيل) عام ١٨٨٤ فى هذه المنطقة على تمثال شخص يدعى (عنخ – رنب – نفر) ومن وظائفة أنه مسجل (بيتوم) .

حصن سكوت (بيتوم) : كانت سكوت عاصمة للمنطقة الثامنة. وقد وصفت بردية (أنسطاس) من عصر الأسرة التاسعة عشر سكوت على أنها أرض متاخمة أو على الحدود ويسكنها أجانب وفيها قلعة تدعى (ختم سكوت) ومستنقعات تعرف.. بإسم بحيرات (بيتوم مر نبتاح) ويؤكد سليم حسن أن هذه البحيرات هى بحيرة (مهيشر ومستنقعات سعدة واكياد). وقد ذكر إسم بيتوم كمرادف لاسم سكوت فى سفر الخروج بالتوراه. وقد ورد اسم المدينة فى كتاب (وصف مصر) بعد ان زارها الفرنسيون عام ١٧٩٨ كما زارها (لبسيوس) عام ١٨٦٠ عندما فكر فى حفر قناة السويس وقد تمكن لبسيوس من العثور على تمثالين للملك رمسيس الثانى مع كل من الإله (رع) والإله (آتوم) ولذلك أطلق لبسيوس على المكان (بررمسيس) وأيده فى ذلك عالم الآثار ماسبيرو. وقد تمكن لبسيوس أيضا من العثور على آثار سور عظيم يحيط بالمدينة هذا بالإضافة الى تمثالين لأبى الهول من الجرانيت الأسود سجل عليها إسم رمسيس الثانى

ويرى (سير ألن جاردنر) أن (تل الرطابة) الذى يقع على بعد حوالى ثمانية أميال ونصف غرب تل المسخوطة هو نفسه مدينة «بيتوم» ويحدد «دانفيل» موقع هيروبوليس بأطلال مدينة «أبو كشيد» أو أبو خشب الى تقع على بعد حوالى ستمائة متر جهة الغرب على حافة ترعة الإسماعيلية ويبدو أنها فى موقع (بيتوم) التى ورد ذكرها فى التوراه والتى أطلق عليها الإغريق إسم (باتوماس) .

ويرى بعض الدارسين أن هيروبوليس هى أبو كيشيد أو سكوت التى يعنى (تيخو أو سيخوت وهو الإسم المصرى القديم ويعنى (باب الشرق) وقد عثر فيها على ثمانية تماثيل للملك رمسيس الثانى .

وقد أشارت (بردية أنسطاس) من عصر الملك مرنبتاح إلى (تكو) وذكرت أنها قريبة من (آتوما) التى يقيم بها البدو. أما عن مدخلها فكان يعرف باسم (سجاير) وأنها ضمت مدينة (بيتوم) التى تحيط بها المراعى والبرك ويرى البعض أن تكو ما هى إلا حى فى مدينة بيتوم وقد عرفت المدينة بهذا الإسم نسبة إلى معبد أتوم الذى أقامه رمسيس الثانى .

آثار مدينة بيتوم

تذخر المدينة بالكثير من الآثار التى ترجع إلى عصر ما قبل الأسرات وعصر الدولتين القديمة والوسطى. فمنها أجزاء لوحة ترجع إلى عصر ما قبل الاسرات وأسطوانة لاحد كبار الموظفين (المشرف

على أهرامات أسيس والملك بيبي الأول والملك بيبي الثانى) ولوحة من الحجر الجيرى من عصر الدولة الوسطى ولكن إغتصبها الملك سيتى الأول ومن بعده إبنه رمسيس الثاني. وقاعدة تمثال من البرونز للآلهة (منيت) ربة (صال الحجر). هذا إلى جانب رأس تمثال لكاهن باستت .

أما عن آثار المدينة التى ترجع إلى عصر الدولة الحديثة والعصر المتأخر فأهمها مجموعة من تماثيل رمسيس الثانى وتمثال للإله (رع حور اختى) وأجزاء من تمثال لأبي الهول ومسلة من الحجر الجيرى.. وغير ذلك الكثير من القطع الأثرية .

ثارو (القنطرة).. وتسمى (أبو صيفا) وربما توجد مكان (مسن) أو تارو) عاصمة الإقليم الرابع عشر فى مصر. ولقد عثر على آثار لرمسيس الثاني. حيث يوجد نص من عصر الملك سيتى الأول وابنه رمسيس الثانى لتخليد ذكرى رمسيس الأول. وقاعدة تمثال للإله حورس. وقد كانت (ثارو) فى عصر الدولتين القديمة والوسطى مجرد حصن. وإبتداء من عصر الدولة الحديثة نالت إهتماماً خاصاً من فراعنة مصر وخرجت منها العديد من الحملات التى توجهت إلى فلسطين وسوريا .

وفى بردية (أنستاس) يسجل موظف من عصر الملك مرنبتاح اسماء مجموعة من الموظفين الذين ذهبوا إلى (سوريا) عن طريق

حصن (ثارو) وهذا الإجراء الاخير يعكس لنا أحكام الحراسة على الحصن ولزوم الحصول على تأشيرة بالخروج أو الدخول ولقد عثر (كليزا) سنة ١٩١٤ على معبدى حورس وحتحور وعليه وجد اسم الملك سيتى وإبنه رمسيس الثانى على قطعة من الحجر (موجود حالياً بمتحف الإسماعيلية).. مع وجود لوحه ترجع إلى عصر الملك رمسيس الثالث .

وادى الطميلات : وقد سمى بهذا الإسم نسبة إلى قبيلة عربية كانت تقطن هناك وينتهى (بأبى كيشيد) أو تل المسخوطة ويعرف أيضاً باسم (وادى الغموض) وقد دخل الهكسوس مصر عبر هذا الوادى. كما عنى ملوك مصر وخاصة ملوك الدولة الوسطى بهذه المنطقة حيث أقام (امنمحات الأول) جدار الأمير هناك كما اهتم ملوك الدولة الحديثة بالمنطقة ومنهم رمسيس الثالث الذى حرص على تأمين المنطقة ضد الغزاه القادمين من شرق الدلتا ومن الآثار التى عثر عليها بالوادى كتلة جرانيتية لألهة ثلاثة (أوزير - إيزيس - حورس) ولوحة جرانيتية للملك رمسيس الثانى أمام الإله سوبد إله المقاطعة العشرين ولوحه أخرى تصور الملك رمسيس الثانى مع الإله سبد وست والإله عنت واللوحتان الأخيرتان موجودتان بمتحف الرسماعيلية .

ويرى بعض الدارسين أن نبى الله يوسف عندما جاء إلى مصر

أقام فى أرض (صو عن) صان الحجر وعندما جاء إخوته أعطاهم أرض جاسان (التى تضم وادى الطميلات) .

ويرى البعض أن خروج اليهود من مصر قد تم عبر وادى الطميلات أيضاً حيث تقول التوراه (وأرتحلوا من سكوت ونزلوا من إيثام فى طرف البريه ثم رجعوا أمام فم الحيروت بين مجدل والبحر أمام بعل صفون) .

تل دفنه : ويقع شرق نبيشه ويعرف بإسم (دفنى) عند الأغريق وتحفنحيس فى التوراة ففى أرميا ٤٢ (بل أخذ يو حنان بن قاريح وكل رؤساء الجيوش كل بعثة يهودا وأرميا النبي ويارخ بن نيريا فجاءوا إلى أرض مصر لأنهم لم يسمعوا لصوت الرب وأتوا إلى تحفنحيس) وخذ بيدك حجارة كبيرة وأطمرها فى الملاط فى اللبن الذى عند باب بيت فرعون فى تحفنحيس أمام رجال يهود) .

وقد أقام الملك (إبسماتيك) معسكراً للإغريق بالمدينة وهذا يفسر وجود الأثار الإغريقية كما يوجد بالمنطقة قصر (بنت اليهودى) .

تل الرطابى : يقع هذا التل فى وسط الطميلات ويبعد عن القصاصين حوالى ثلاثة كليو مترات. بينما يبعد عن تل المسخوطه حوالى تسعة كليو مترات وقد أقام هذه البلدة الملك رمسيس الثانى لكى تكون خط دفاع ثانى وربما أقامها بعد إعادته لبناء مدينة بيتوم بعد التخريب الذى لحق بها. ومدينة الرطابى تابعة للمقاطعة الثامنة

من مقاطعات الوجه البحرى من الناحية الإدارية ويعتبر الإ له (آتوم) هو الإله المحلى للمدينة .

ويؤكد علماء الآثار أن رمسيس الثانى هو مؤسس المدينة كما عثر بالمدينة على أثر يرجع إلى عصر الملك (خيتى) من الأسرة الحادية عشر وتحتوى المدينة آثاراً من مختلف الأسر وإن كان عصر الأسرة العشرين هو خاتمة الإهتمام بهذه المدينة ومن عصر هذه الأسرة الأخيرة عثر على إسم (وسر ماعت رع تمت) المشرف على إحتفال تكو .

تل سرابيوم : لم يحظ هذا التل بإهتمام علماء الآثار وتكسوه الرمال هذا إلى جانب إقتطاع أجزاء منه وتحويلها إلى مبانى وربما يكون التل بقايا مدينة حصينة .

تل صمد (التل الكبير) : ومثله مثل تل سرابيوم أي أن المعلومات عنه تكاد تكون معدومه ..

وتؤكد هذه المواقع الأثرية الفرعونية فى منطقة الإسماعيلية على مدى أهمية هذه المنطقة كما تؤكد على أن المنطقة كانت أهلة بالسكان وشهدت رواجا تجاريا كبيراً ونشاط حربيا كما كانت محط إهتمام فراعنة مصر على مختلف العصور. بالإضافة الى وجود نقاط تفتيش بها سواء لدخول مصر أو الخروج منها .

الإسماعيلية فى العصرين اليونانى والرومانى

العصر اليونانى

إستطاعت منطقة الإسماعيلية أن تحافظ على الإهتمام بها خلال العصر اليونانى لتحافظ على مكانتها التى كانت عليها خلال العصر الفرعونى. وبدأ الإهتمام اليونانى بمنطقة الإسماعيلية عام ٢٥٢ ق.م عندما تم زفاف إبنة الملك بطليموس الثانى الأميرة (برنيقى) إلى ملك سوريا وقد كانت المنطقة التى تشغلها الإسماعيلية الآن على بداية الطريق الموصل إلى سوريا وشهدت إحتفالات موكب العرس وإشتركت فى هذه الإحتفالات إرضاء للملك وتكريما له أثناء المرور بها .

بطليموس الثانى يزور بيتوم

من الأعمال الشهيرة للملك بطليموس الثانى إقامته لنصب بيتوم (تل المسخوطة) وذلك عندما زار المنطقة. وتعرف هذه المدينة بأكثر من إسم فهى (تكو) وهى (بيثوم) وهى (أتوم) مدينة الإله المصرى فى منطقة شرق الدلتا. وقد كان وجود معبد الإله أتوم سبباً فى الأهتمام بهذه المنطقة. وقد تغير إسم المدينة فى العصر البطلمى ليصبح (هيربو بوليس) أى مدينة المخازن فتحولت المدينة إلى حصن ومركز تموين تحيطها الأسوار لحمياتها كما كانت واحدة من نقط حراسة الحدود وأحد المراكز التجارية التى يتم فيها التبادل بين منتجات

الهند وأوربا كما ذادت أهميتها العسكرية للجيوش التى تتزود منها عند الرحلة إلى سوريا .

وقدورد إسم بطليموس الثانى مشفوعا بالألقاب المصرية فى النصوص الموجودة فى لوحة بيتوم. وهى تشير إلى أحداث وقعت بين العام السادس والعام الحادى والعشرين من حكمة ٢٧٩ - ٢٦٤ ق.م وهذا الملك لم يتوان مطلقا فى إظهار الإحترام والتقدير للآلهة المصرية. ويتشير لوحة بيتوم إلى أن فيلا دلفوس زار المنطقة ثلاث مرات. الأول فى العام السادس من حمكه ٢٨٠ - ٢٧٩ ق.م. عندما بدأ العمل فى القناة والثانية كانت فى العام الثانى عشر من حكمة ٢٦٥ - ٢٦٤ ق.م وقد أصطحب معه فى هذه الزيارة أخته وزوجته الملكة أرسنوى الثانية وأجزل الهبات لآلهة بيتوم .

وكانت الزيارة الأخيرة فى العام الحادى والعشرين ٢٦٥ - ٢٦٤ ق.م وقد منح الملك فى هذه الزيارة هبه ماليه كبيرة للمعابد المصرية .

وأيا كان الأمر فقد حظيت منطقة شرق الدلتا بدرجة عاليه من إهتمام بطليموس الثانى .

لوحة بيثوم

تم العثور فى تل المسخوطة على لوحة ترجع إلى الملك بطليموس الثانى وقد كشف عن هذه اللوحة الأثرى الفرنسى إدوار نافيل عام ١٨٨٣ واللوحة عبارة عن حجر من الجرانيت يبلغ إرتفاعها ١،٢٨

متراً وعرضها ٩٨,٠٠ متراً وقد تم حفظها فى المتحف المصرى .

وتقدم اللوحه رصداً لأهم رحلات الملك إلى المنطقة وما قدمه الملك فى هذه الرحلات للمعابد المصرية وإشرافه على حفر القناة التى تحمل إسمه. كما أشارت لوحه بيثوم إلى أن الملك قد قام بزيارة بحيرة (كم – ور) بمعنى الماء الراكد وهى بحيرة التمساح الحاليه. وأقام الملك على شاطىء هذه البحيرة مدينة جديدة أطلق عليها إسم أخته أرسنوى الثانية ويعتقد أنها كانت على الشاطئ الشرقى للقناة وقد ذهب الملك بعد زيارته لبحيرة التمساح إلى إقليم خمتى (سيناء) ثم عاد إلى بحيرة العقرب (البحيرات المرة) .

والحادثة الأخيرة التى تم وضعها فى هذه اللوحة هى تعظيم الثلاثة عجول المقدسة حيث كان العجل أبيس تابعا لمنف والعجل منيفيس تابعا لمدينة هليوبولس والعجل المبرقش تابعا لمدينة بيثوم. وفى أعلى اللوحة قرص الشمس المجنح تعلوه العلامه الداله على السماء وفى أسفل قرص الشمس منظرين لملك الوجه القبلى والبحرى رب الأرضين (وسر – كا – رع – رى – أن) إبن رع رب التيجان بطليموس ويقدم تمثال الآله ماعت لوالده أثوم ليمنحه الحياة .

وهناك أيضا الإله أوزوريس. وغير ذلك من المناظر الموجودة على اللوحة وتجدر الإشارة إلى أن منطقة الإسماعيلية الحالية قد إحتوت على الكثير من الآثار التى تؤرخ لفترة حكم بطليموس الثانى. ففى

قرية صفط الحناء القريبة من الإسماعيلية تم العثور على لوحة تشير إلى أحداث السنة الثانية والعشرين من حكم فيلا دلفوس وقد نشرها الأثرى إدوارد نافيل. وقد ظهر إهتمام بطليموس الثانى بهذه المنطقة من خلال الزيارات المتكررة التى قام بها والهدايا والأوقاف للمنطقة. وقد إنعكس هذا الإهتمام على البلاد شرق الدلتا من حيث التقدم الإقتصادى ممثلاً فى المدن الجديدة والموانى البحرية على القناة وقد إجتذبت هذه المدن أعداداً كبيرة من السكان للعمل فى الزراعة حول مجرى النيل الجديد الذى يربط بين البحرين أو للعمل فى التجارة أو كعمال فى نقل البضائع فى الموانى وقد إزدهرت الحركة التجارية حيث خصص الملك بعض إيرادات القناة لصالح المعبد فى مدينة بيثوم. وباختصار فقد كانت فترة حكم الملك بطليموس فيلادلفوس عصر إزدهار لمنطقة الإسماعيلية .

العصر الرومانى

تسببت تصرفات الملك بطليموس (أولينس) المعروف فى التاريخ بإسم الزمار والتى كانت ترمى إلى الإرتماء فى أحضان الرومان إلى إضطهاده من شعب الإسكندرية ففر إلى روما وظل هناك حتى عام ٥٥ ق.م. ثم تحالف مع حاكم سوريا أولوس جابينيوس وإستطاع اولوس عن طريقة الخيانة بعد أن أشترى نزاهة قائد حامية مدينة بيلوزيوم (الفرما) وكانت الحامية فى ذلك الوقت من اليهود إستطاع

أن يفسح الطريق أمام الجيش الرومانى المصاحب للملك بطليموس الزمار .

ثورة المسخوطة ..

قبل وفاته أوصى بطليموس الزمار بعرشه لإبنته الكبرى كليوباترا السابعة يشاركها إبنه بطليموس الثالث عشر مما أدى إلى ظهور الدسائس والمؤامرات خاصة ضد كليوباترا التى فرت إلى إقليم شرق الدلتا لجمع وتجنيد الأعراب لتحارب بهم زوجها وأخيها الملك الصغير ولكن أخاها سارع بالسير إلى شرق الدلتا وعسكر بجيشه عند كاسيوي شرق بيلو زيوم على مسافة صغيرة من معسكر الملكه وكان الملك الزمار قد طلب من الرومان العمل على تنفيذ وصيته وإستقرار الحكم لولدية ولذلك أمر قيصرروما الملك والملكة بتسريح جيوشهما والمثول بين يديه فى الأسكندرية للفصل بينهما .. وبعد صراع عسكرى بين جيش القيصر وجيش الملك الصغير تم حسم الامر لصالح القيصر الذى تزوج من كليوباترا وكان هذا الزواج أحد أسباب إغتيال القيصر عام ٤٤ ق.م . وبعد ذلك إشتد الصراع بين إكتافيوس وأنطونيوس وتتابعت الأحداث لتقع مصر بين براثن الإحتلال الرومانى بعد أن إجتاح أكتافيوس حامية بيلوزيوم وقد ساعد فى ذلك اليهود الذين كانوا يكونون كل جنود الحامية ليؤكد اليهود حرصهم الدائم على الخيانة فى سبيل المصالح التى يرونها .

وبعد أن أصبحت مصر ولاية رومانية إشتعلت الثورة ضد روما فى كل الأقاليم ويؤكد المؤرخون على وجود ثورة عنيفة جداً فى مدينة بيثوم (تل المسخوطة) وقد ركز الإمبراطور الرومانى على اخماد هذه الثورة خوفا من عرقلة طرق الجيش الرومانى فى هذه المناطق وأيضاً طرق التجارة .

وقد حظيت منطقة شرق الدلتا (بما فيها الإسماعيلية) بإهتمام الإدارة الرومانية ففى عهد الإمبراطور (اقليد يا نوس ٢٨٤ - ٣٠٥) ثم تقسيم مصر إلى ثلاثة أقاليم هى شرق الدلتا - طيبة - الإسكندرية .

وترجع أهمية شرق الدلتا إلى القلاع التى رابطت بها قوات من الفرق الرومانية أو الكتائب المساعدة وإمتدت هذه القلاع من الفرما إلى بابليون إلى منف وأيضا من الفرما إلى القلزم عبوراً يسرا بيوم. وقد ظلت مصر تعانى كل أنواع الإضطهاد من المستعمر الرومانى إلى أن تمكنت الجيوش الفارسية عام ٦١٦ ميلادية من إحتلال مصر لمدة عشر سنوات وعاد الإحتلال الرومانى إلى أن تمكن المسلمون من فتح مصر عام ٦٣٩ ميلادية ولتتغير مصر تماما بعد ذلك. بما فى ذلك منطقة الإسماعيلية .

الإسماعيلية والفتح الإسلامى لمصر..

كانت منطقة الإسماعيلية إحدى أهم المحطات فى طريق الفتح

الإسلامى لمصر فقد خرج عمرو بن العاص من مدينة قيسارية بفلسطين على رأس ٤٠٠٠ مقاتل فى أواخر سنة ١٨هـ/ ٦٣٩م. فوصل إلى الحدود المصرية عند مدينة رفح وإجتازها إلى العريش دون اى مقاومة ثم سلك عمرو بجيشة الطريق الساحلى الذى سلكة من قبل كبار الفاتحين والحجاج والمهاجرين منذ أقدم العصور. فقد سلك هذا الطريق السيد المسيح عليه السلام والإسكندر الأكبر والفرس والرومان عند غزوهم لمصر. وقد وصل عمرو وإلى الفرما شرقى بور سعيد الحالية وكانت مدينة حصينة (بلوزيوم) وتقع على رأس الطريق الصحراوى المؤدى إلى مصر وكانت ذات أسوار وحصون وعامرة بالسكان ولها ميناء على البحر ويصل إليها جدول من نهر النيل. وحاصر. جيش عمرو الفرما لمدة شهر كامل حتى إستولى عليها عنوة ورغم أهميتها القصوى للفتح الرسلامى إلا أن عمرو لم يترك بها جنود لقله عدد الجيش ولكنه أمر بهدمها حتى لا يستفيد منها العدو ثم واصل عمرو زحفة حتى منطقة الإسماعيلية التى لم يلقى بها أى مقاومة فواصل الزحف إلى الصالحية ثم وادى الطميلات (التل الكبير) ثم وصل إلى بلبيس وهزم حاميتها بقيادة الأرطبون. وواصل جيش عمرو بن العاص الإشتباك مع البيزنطيين فى عدة مواقع بمصر خاصة بعد أن أمده أمير المؤمنين عمر بن الخطاب بأربعة ألاف مقاتل وكانت المعركة الكبرى بين حصن بابليون

ومدينة هليوبوليس (عين شمس) وتم عقد معاهدة بابليون الثانية سنة ٢٠هـ/ ٦٤١م وخرج بمقتضاها البيزنطيون من مصر وتوافد المصريون على الإسلام دين التسامح والمساواه ومن بقى على دينة أصبح من أهل الذمة الذين يحظون بكل التقدير والإحترام .

الإسماعيلية فى عصر الولاة

حظيت منطقة الإسماعيلية بمكانه مميزة بعد الفتح الإسلامى وخاصة بعد أن أصبحت ضمن مجموعة من المدن التى تحط عندها القوافل للتزود بالمياة وإتمام العمليات التجارية وهذه المدن هى الفرما (بورسعيد) - البحيرات المرة (الإسماعيلية) - وادى الطميلات وأصبحت هذه المدن محطات ومراكز تجارية كبيرة مما جعل لأهلها دوراً إقتصاريا بارزاً. وقد سلك كل الولاة الذين أرسلتهم الخلافة الأموية أو الخلافة العباسية طريق بوابة مصر الشرقية من رفح مرورا بالإسماعيلية التى إشتهرت بأكثر من إسم مثل ميجدول أو أرض الفرسان .

الإخشيدى فى أرض الفرسان

كان محمد بن طفيح الإخشيدى والياعلى دمشق حينما ولاه الخليفة العباسى الراضى بالله على مصر سنه ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م وعندما تهيأ الإخشيد لدخول مصر علم أن المذرائى عامل الخراج بها إتفق مع الوالى أحمد بن كيفلغ على منع دخول الإخشيد إلى مصر

فأعد الأخشيد جيشاً إستطاع به أن يدخل مصر بعد أن إستولى على الفرما وتنيس ودمياط وطارد المنهزمين حتى دخل الفسطاط. وفى عام ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م خرج محمد بن رائق من الشام إلى مصر فقابلة الإخشيد بجيشه عند الفرما وتم الصلح بينهما ثم نقض إبن رائق العهد وعاد غازيا فقابلة الإخشيد عند العريش وهزمه وعاد الإخشيد إلى الرمله ومنها سلك طريق الفرما ثم إلى أرض الفرسان عند البحيرات المرة (الإسماعيلية) ومنها إلى الفسطاط .

الفاطميون فى أرض الفرسان

رغم أن الفاطميين دخلوا مصر من حدودها الغربية عن طريق الإسكندرية إلا أن الظروف السياسية. أجبرت بعض خلفاء الفاطميين إلى التحرك نحو الشرق فقد خرج العزيز بالله (٣٦٥ - ٣٨٦/ ٩٧٥ - ٩٩٦م) من مصر على رأس جيش كبير عندما لم يتمكن قائدة جوهر الصقلى من هزيمة أفتوكين التركى الذى خرج من بغداد وإستولى على دمشق فمرت جيوش الفاطميين بمنطقة شرق الدلتا بما فيها الإسماعيلية لملاقاه أفتوكين وبعد هزيمته عادت إلى القاهرة وقد مات العزيز بالله فى مدينة بلبيس سنة ٣٨٦ هـ وهو فى طريقة إلى الشام لصد غارات البيزنطيين.

الإسماعيلية فى العصر الأيوبى

نجح الأمير نور الدين محمود فى أن يضم إلى حكمة إمارات العراق والشام ولم يبق امامه إلا ضم مصر لحكمة لإحكام الدائرة على الصليبيين. وسارت جيوش نور الدين محمود إلى مصر لضمها وسلكت هذه الجيوش الشامية طريقها من الشام إلى مصر مرورا بالمنطقة الشرقية ومنها الإسماعيلية وقد لعب سكان هذه المناطق دوراً كبيراً فى مساندة الجيوش الإسلامية القادمة من الشام وفى التصدى للقوات الصليبية التى حاولت غزو مصر والاستيلاء عليها .

الإسماعيلية فى التاريخ الحديث

رغم كل هذه الأدلة على وجود (منطقة الإسماعيليه) على خريطة العمران المصرى فى مختلف العصور بداية من العصر الفرعونى وحتى العصر المملوكى إلا أن (الإسماعيلية) بملامحها الحالية لم تظهر إلى الوجود إلا فى عام ١٨٦٩ مع افتتاح قناة السويس أمام الملاحة الدولية. ففى موضع متوسط لامتداد هذه القناة وفوق تلال مرتفعة تعرف بتلال الجسر تقع الى شمال بحيرة التمساح قامت فى سنة ١٨٦٢ واحة خضراء سميت فى بادىء الأمر (قرية التمساح) ثم تغير الإسم فى عام ١٩٦٣ إلى مدينة الإسماعيلية وذلك تيمنا بإسم الوالى الجديد إسماعيل باشا الذى إعتلى عرش مصر فى ذلك العام

بحيرة التمساح

تمثل بحيرة التمساح اللبنة المكانية الأولى فى موضع مدينة الإسماعيلية وهذه البحيرة عبارة عن حوض هائل ومنخفض وسط برزخ السويس تتسرب إليه مياه النيل فى الفيضانات المرتفعة. من

ترعة الوادى عن طريق وادى الطميلات. وفى هذه المنطقة توجد بقايا قناة سيزو ستريس القديمة التى تبدأ من صان الحجر مروراً بالقنطرة إلى أن تصب فى بحيرة التمساح قرب نفيشة الحالية وقد أقيمت قنطرة على هذه القناة لتمر عليها قوافل التجارة القديمة من الشام إلى مصر ويعرف مكان هذه القنطرة بإسم بلد القنطرة .

وتعد بحيرة التمساح ومعها البحيرات المرة من بقايا الإمتداد الواسع لخليج السويس شمالا كما أنها مع بقية مجرى القناة تشكل حوضا طبيعيا مساحتة ٢٨٠ مليون مترا مكعبا من المياة.

وقد تحولت بحيرة التمساح بعد إفتتاح قناة السويس سنة ١٨٦٩ إلى ميناء طبيعى لمدينة الإسماعيلية مما أدى إلى وجود كثير من الأحواض والأرصفة والورش والأوناش اللازمة لأعمال الملاحة. كما أن الموقع المتوسط بين بور سعيد والسويس ساعد فى إختيار المدينة مقراً لادارة شركة قناة السويس فنشطت بها حركة بناء منشآت الشركة ونقلت إليها المكاتب والإدارات بعد أن بقيت فى مدينة دمياط منذ عام ١٨٥٩ عند البدء فى حفر قناة السويس .

الإسماعيلية فى العصر العثمانى..

قسم الإحتلال العثمانى مصر إلى ستة عشر إقليما وكانت الإسماعيلية ضمن إقليم الشرقية وذلك حتى عام ١٥٦٩ عندما جرى تعديل فى أقاليم مصر من حيث العدد والمساحة فدخلت الإسماعيلية

فى إقليم سمى (كاشفيه قطيا) وضم الأراضى الصحراوية الواقعة - شرق اقليم الشرقية ثم الغى هذا الإقليم عام ١٨٠٦ كوحدة ادارية وأصبح تابعاً لحكام الشرقية وقليوب فعادت الإسماعيلية مرة أخرى إلى أقليم الشرقية .

وتؤكد الدراسات التاريخية على أن منطقة الإسماعيلية كانت عامرة بالسكان طوال العصر العثمانى وأسند إليهم حماية القوافل التى كانت تعبر هذه المنطقة فى طريقها إلى الشام وبالعكس. كما كان موكب الحج فى العصر العثمانى يمر باراضى هذه المنطقة فكثرت بها الخيام وعلت فيها أصوات الموسيقى والطبول احتفالا بحجاج بيت الله .

رقد سكنت قبائل العربان كثيراً من هذه المناطق وقد أسندت اليهم من قبل الباشا العثمانى مهام حراسة الطريق مقابل عوائد تدفع لهم سنوياً ومن هذه القبائل (العيايدة – الحويطات – الترابيين – الطوابا) وقد بلغ عدد هذه القبائل أكثر من عشرين قبيله إنتشرت من العريش الى جبل سيناء ومن الشرقية الى أعالى أسيوط وقد طاردهم محمد على سنه ١٨١٣ فأجبرهم على الهجرة إلى البرارى وكان هذا سبباً فى بداية إنتشارهم فى إنحاء العالم .

وقد شهدت منطقة الإسماعيلية قبل حفر قناة السويس مجىء بعض القبائل العربية مثل (أبو على) التى سكنت منطقة العرايشية .

وتؤكد مصادر العصر العثمانى إلى أن المنطقة الممتدة فيما بين البحر الاحمر والبحر المتوسط بما فيها منطقة الإسماعيلية كانت تستأثر بإهتمام العثمانيين منذ بداية حكمهم وذلك لإستخدامهم هذه المنطقة فى أغراض الأمن والدفاع حيث أدرك العثمانيون مدى أهمية أراضى الإسماعيلية كقلعة حصينة على الباب الشرقى لمصر لصد أخطار الغزوات القادمة إليها من الجهات الشرقية. ورغم هذا لم ينشئ العثمانيون أى قلاع أو حصون على أمتداد هذه المنطقة وذلك لإطمئنانهم إلى عدم وجود أى خطر عليهم فى بلاد الشام .

وقد إنصرف إهتمام العثمانيين عن إستغلال الأراضى الممتدة فيما بين البحرين الأحمر والأبيض بما فيها منطقة الإسماعيلية. ولم يعد يذكر فى تاريخ مصر العثمانية لهذه المنطقة من أهمية بعد ذلك سوى أنها كانت معبراً لقوات مملوكية قادها محمد بك أبو الدهب (أحد أتباع على بك الكبير) لفتح دمشق سنه ١٧٧١ كما أنها شهدت فى ٢٦ أبريل سنه ١٧٧٢ هزيمة على بك الكبير أمام قوات محمد بك أبو الدهب فى منطقة الصالحية .

الإسماعيلية فى بؤرة إهتمام الحملة الفرنسية

منذ عام ١٧٩٨ وعلى مدى ثلاث سنوات هى كل عمر الحملة الفرنسية على مصر. أصبحت المنطقة فيما بين السويس والبحر المتوسط بما فيها الإسماعيلية فى بؤرة إهتمام كل قادة الحملة

ويرجع ذلك إلى عدة أسباب هى .

- رغبتهم فى حفر قناة تصل بين البحرين الأبيض والأحمر لتكون اقصر الطرق وأسرعها بين الغرب والشرق وليصبح هذا الطريق فى يد فرنسا لترجيح كفتها فى صراعها الدائم مع إنجلترا .

- رغبتهم فى تأمين حكمهم من الجهة الشرقية والتى كانت مسرحاً لكثير من الإضطرابات ضد الحملة .

- تأمين هذه المنطقة ضد أى خطر خارجى بإعتبارها بوابة مصر الشرقية خاصة وأنها منطقة العبور إلى الشام .

وكان الفرنسيون قد قسموا مصر إلى ثمانية أقاليم إدارية ووضعوا الإسماعيلية ضمن إقليم الشرقية وكانت بلبيس عاصمة الإقليم .

حرير محمد على فى الإسماعيلية

سادت مصر بعد جلاء الحملة الفرنسية سنة ١٨٠١ موجة من إضطراب الأوضاع الداخلية بسبب التنازع حول السلطة إنتهت بتولى محمد على شئون الحكم سنه ١٨٠٥ وقد أولى محمد على منطقة الإسماعيلية إهتماماً كبيراً وذلك لعدة أسباب منها .

- رغبتة فى تنفيذ مشروع حفر قناة تصل ما بين البحرين الأحمر والأبيض .

- رغبتة فى إستخدام أراضى منطقة وادى الطميلات لزراعة

أشجار التوت اللازمة لتربية دودة القز لإنتاج الحرير .

– رغبته فى تأديب قبائل العربان المقيمة بأراضى المنطقة .

مشروع الحرير

إهتم محمد على بمنطقة الإسماعيلية وجعلها حقل تجارب لمشروعه الضخم لزراعة أشجار التوت كنوع من الحاصلات الزراعية الجديدة التى عمل على إدخالها إلى مصر ضمن سياسته الهادفة إلى تطور ونهضة الزراعة فى مصر وأيضا لإستغلال أوراقها فى تربية دود القز لإنتاج الحرير الذى رغب محمد على فى إنتاجه بمصر وإستقدم سنه ١٨١٧ من بلاد الشام حوالى خمسمائة رجل من المتخصصين فى تربية دود القز للقيام بهذا العمل ثم إختار أراضى وادى الطميلات كحقل تجارب لزراعة أشجار التوت اللازمة لتربية دود القز. وتم تخصيص نحو ثلاثة آلاف فدان من أراضى الوادى ليغرس فيها أشجار التوت وخصص لخدمتها نحو الفين من الفلاحين جهزهم بستة آلاف رأس من الماشية وأمر بحفر الف ساقية للرى. وعهد محمد على إلى المهندس الفرنسى (كوست) بحفر ترعه وادى الطميلات لرى مزارع التوت بهذا الوادى فإستخدم كوست نحو ثمانين الفا من الفلاحين حفروها فى أسبوعين وقد بلغ طول الترعة خمسة وثلاثين كيلو مترا وعرضها أحد عشر مترا وعمقها نحو ثلاثة أمتار ونصف المتر. وكانت تعرف بإسم ترعة الوادى وتأخذ مياهها

من ترعة أبو الأخضر (الفرع البيلوزى القديم) وكانت هذه الترعة مخصصة لرى أشجار التوت بوادى الطميلات وقد تعمر هذا الوادى بالسواقى والأشجار والسكان من جميع الإجناس وأنشأ دنيا جديدة متسعة لم يكن لها وجود قبل ذلك وقام محمد على بزيارة الوادى عام ١٨٢٠ ليقف بنفسه على ما تجدد به من العمائر والمزارع والسواقى. وتحول هذا الوادى إلى إقليم منفصل وكثرت به القرى والمساكن والمزارع .

وقد نجحت تجربة زراعة أشجار التوت فى وادى الطميلات مما حدا بمحمد على أن يتوسع فى زراعة هذه الأشجار فى عدد من أقاليم مصر هى الدقهلية – المنوفية – الغربية – القليوبية – رشيد – الجيزة حتى بلغت مساحة الأراضى التى زرعت بهذه الأشجار فى سنة ١٨٣١ عشرة آلاف فدان غرست فيها نحو ثلاثة ملايين من أشجار التوت زادت فى سنة ١٨٤٠ إلى أربعة ملايين شجرة. وكانت الحكومة المصرية تشرف بنفسها على غرس أشجار التوت وتكثيرها. وبعد نجاح زراعة شجر التوت أكثر محمد على من إنشاء محطات تربية دود القز وكان يديرها يونانيون وسوريون يعاونهم بعض المصريين وقد وصل محصول مصر من الحرير الخام سنه ١٨٣٣ (١٤٨٢٠ كيلو جراماً) ورغم نجاح تجربة تربية دود القز إلا أن الحكومة إضطرت فى النهاية إلى الكف عن العناية بتربية دود القز

نظراً لقلة الربح الناتج منها. وتبعا لذلك الغت إحتكار صناعة الحرير سنه ١٨٤٠ مما أدى إلى فشل المشروع فى نهاية الأمر .

وبعيداً عن مشروع الحرير فقد اكتسبت الإسماعيلية أهميتها خلال عصر محمد على بإعتبارها معبراً للجيش الذاهب الى بلاد الشام بقيادة إبنه إبراهيم باشا سنه ١٨٣١. كما شهدت عودة أحد فيا لق الجيش العائد إلى مصر سنه ١٨٤٠ وكان هذا الفيلق قد لقى اهوالا جساما فى طريق عودته بسبب وعورة المسالك البرية ونقص المؤن والمياه مما أدى إلى إصابة الكثيرين من رجال الفيلق بالإعياء الشديد ووفاة عدد كبير منهم .

رحلة القناة
من أمنحتب الأول إلى محمد على ..

تؤكد كل الوثائق التاريخية على أن مشروع شق قناة تربط ما بين البحرين الأحمر والأبيض كان حلما لكثير من القادة فى مختلف العصور وقد إستطاع البعض من هؤلاء القادة تحقيق الكثير من هذا الحلم وفيما يلى نستعرض رحلة تلك (الأحلام الجزئية) والتى بدأت مع الملك الفرعونى أمنحتب الأول وأنتهت مع الوالى محمد على ..

قناة الفراعنة (قناة سيزوستريس)
١٨٨٧ ق.م

فى أواخر أيام (أمنحتب الأول) - رأس الأسرة ١٢ فى القرن العشرين قبل الميلاد - حدث أن ثار ضده سكان كهوف سيناء وحتى يؤمن حدوده الشرقية من تهديداتهم خطرت له فكرة ربط البحرين ليسهل له نقل الجنود للحدود الشرقية ولكن هذه الفكرة لم تنفذ إلا فى عهد فرعون مصر (سنوسرت الثالث) وذلك لتطوير التجارة وتيسير المواصلات بين الشرق والغرب. وكانت السفن القادمة من البحر الأبيض تسير فى الفرع البيلوزى وهو أول فرع شرقاً من

فروع النيل السبعة حتى بويست (تل بسطة) فى الزقازيق حاليا. ثم يتجه شرقا إلى تيخا (ابو صوير) ومنها إلى مينا كليسما (السويس) على البحر الأحمر عبر البحيرات المرة والتى كانت فى ذلك العهد خليجا متصلا بالبحر الأحمر. ومازالت أثار هذه القناة حتى اليوم واضحة تماما فى محاذاة المجرى الحالى لقناة السويس بالقرب من جنيفة. ويمكن تتبع سيرها حتى الكيلو ١٣٨ حيث حفرت قناة المياة العذبة فى مجرى القناة القديمة نفسها ثم تختفى بعد ذلك معالم هذه القناة.

وفى عام ٦١٠ ق.م فى عهد (نخاو الثانى) أمتلأت القناة بالأترية أو كادت لإفتقارها إلى الصيانة مما أدى إلى عزل البحر الأحمر عن البحيرات المرة. فقام نخاو الثانى بإعادة حفر القناة ونجح فى وصل النيل بالبحيرات المرة. ولكن محاولاته لوصل البحيرة بالبحر الأحمر لم تكلل بالنجاح .

قناة الفرس (قناة دار الأول)

إذدهر برزخ السويس فى عهد الفرس بإعتباره الطريق الموصل إلى فارس مارابوادى الطميلات فى محازاة قناة نخاو الثانى فكان من الطبيعى إزاء ذلك أن يقوم (دارا الأول) ملك الفرس بإعادة الملاحة فى القناة وإدخال التحسينات عليها. ثم ربط النيل بالبحيرات المرة لكنه لم يوفق أيضا فى ربط البحيرات بالبحر الأحمر. حيث

كانت هذه البحيرات متصلة بالبحر الأحمر عن طريق قنوات صغيرة لم تكن صالحة للملاحة إلا أثناء فيضان النيل وقد أقام (دارا) نصبا تذكاريا بالقرب من البحيرات المرة على شاطئها الغربى نقش عليه بالسومرية (لقد أمرت أنا ملك الفرس بشق القناة من البحر إلى البحر وحفرت كما أمرت).

قناة الإغريق

إستطاع الملك بطليموس الثانى (بطليموس فيلادلف) ٢٨٥ ق،م أن يتغلب على كل الصعاب التى إعترضت طريق سابقية فتمكن من إعادة الملاحة فى القناة باكملها بعد أن نجح فى حفر الجزء الواقع بين البحيرة والبحر الأحمر ليحل محل القنوات الصغيرة وأصبحت القناة تصب بجوار ميناء كليسما (السويس) وفى أواخر عهد البطالمة تم إهمال القناة مرة أخرى مما أدى إلى عدم صلاحيتها للملاحة. وقد جاء ذكر هذه القناة ولو حتى بيتوم ومنديس وتتفق أغلب الأراء على أن ما حفره بطليموس الثانى كان ما بين بيتوم وبحيرة التمساح

قناة الرومان (قناة تراجان)

رأى الرومان إعادة إستخدام القناة للملاحة لضرورات التجارة فقام الإمبراطور الرومانى (تراجان عام ٩٨ ميلادية بحفر وصلة جديدة عرفت بقناة (تراجان) وكانت تبدأ من بابليون (القاهرة) عند

فم الخليج حتى العباسة لتتصل بالفرع القديم الذى يصل بوبست بالبحيرات المرة. وإستمرت هذه القناة إلى أن إندثرت مع إضمحلال الإمبراطورية الرومانية .

قناة أمير المؤمنين

بعد الفتح الإسلامى لمصر عام ٦٣٩ قام عمرو بن العاص بحفر قناة ملاحية تصل بين الفسطاط (القاهرة) ومدينة القلزم (السويس) وأطلق عليها اسم أمير المؤمنين (عمر بن الخطاب). وقد خطر له أن يشق قناة مباشرة بين البحرين الأحمر والمتوسط. وقد أتم عمرو بن العاص بجنده عملية الحفر فى ستة شهور. وظلت هذه القناه مفتوحة للملاحة أكثر من مائة عام إستخدمت خلالها فى التجارة بين الدول العربية وأنحاء العالم. وفى نقل الحجاج إلى الأراضى الحجازية. أى أنها ظلت مفتوحة للملاحة حتى عام ٧٧٥م حين ثار محمد عبد الله بن الحسن بن على بن أبى طالب فى المدينة المنورة فكتب الخليفة ابو جعفر المنصور إلى أبى عون عامله بمصر يأمرة بردم القناة عند السويس حتى لا يستخدمها. خصومه فى نقل المؤن والذخيرة إلى أهل مكة والمدينة الثائرين على حكمه. ونفذ الوالى أمر الخليفة وبقيت القناة مطمورة قرابة الألف عام لتأخذ التجارة طرقا برية تمر عبر الإسكندرية والفسطاط ومنها الى القلزم ثم إلى الهند .

محاولات العثمانيين

حاول العثمانيون أثناء إحتلالهم لمصر أكثر من مرة حفر قناة تصل بين البحرين الأحمر والمتوسط. ففى عام ١٥٢٩ فكر السلطان سليمان القانونى فى حفر هذه القناة كما حاول سنان باشا فاتح اليمن شق هذه القناة سنه ١٥٦٩ وكذلك حاول السلطان العثمانى مراد الثالث أيصال البحرين سنه ١٥٨٦ وكانت كل محاولات العثمانيين تهدف إلى إنعاش مركز مصر كطريق تجارى هام بعد ما أصابها من الهبوط الحاد لتحول طريق التجارة العالمية إلى رأس الرجاء الصالح. ولكن جميع هذه المحاولات ذهبت سدى بسبب مخاوف العثمانيين من أن حفر مثل هذه القناة سوف يترتب عليه أطماع الدول الأوربية وخاصة إنجلترا وفرنسا فى احتلال مصر إحدى الولايات الهامة فى الإمبراطورية العثمانية .

الحملة الفرنسية.. والنظرية الخاطئة

كانت رغبة فرنسا فى قطع طريق المواصلات بين إنجلترا ومستعمراتها فى الهند إحدى أهم الأسباب لمجيئ الحملة الفرنسية على مصر. وقبل بداية الحملة كلفت الحكومة الفرنسية نابليون بونابرت قائد الحملة بداراسة برزخ السويس وامكانية اختراقة بقناة تسمح بمرور الجنود والذخائر والأساطيل الفرنسية لمحاربة إنجلترا فى الهند. وقرر بونابرت إستكشاف برزخ السويس بنفسه فخرج من

القاهرة فى ٢٤ ديسمبر سنه ١٧٩٨ ويرفقته الجزال (برتييه) وكفار يللى وأمير البحر (غانتوم) والمهندس (لوبير) بالإضافة إلى مجموعة من العلماء الفرنسيين المتخصصين فى علوم الهندسة والرياضيات والجغرافيا والفلك والكيمياء والتاريخ الطبيعى ومنهم (برتوليه - كوستاز - مونج) كما صحبه بعض المصريين ومنهم السيد أحمد المحروقى كبير تجار القاهرة وإبراهيم أفندى كاتب جمرك البهار وذلك لإرشاده فى الطريق الصحراوى الموصل إلى السويس. وتمكنت البعثة فى ٣٠ ديسمبر ١٧٩٨ من أكتشاف أثار ترعة أمير المؤمنين فى شمال السويس وذلك بطول عشرة كليو مترات تقريبا. ثم زار نابيلون واحة عيون موسى على بعد ١٦ كم من السويس ثم عاد إلى القاهرة عن طريق وادى الطميلات حيث شاهد بالقرب من بلبيس أثاراً أخرى لقناة أمير المؤمنين. وبعد إنتهاء الزيارة كلف بونابرت المهندس (لوبير) كبير مهندسى الطرق والجسور يعمل البحوث الفنية اللازمة لحفر قناة ملاحية تربط البحرين المتوسط والأحمر. وقد قام (لوبير) بثلاث رحلات إلى منطقة برزخ السويس بدأها فى ١٦ يناير ١٧٩٩ وخرج من السويس لإستكشاف المنطقة الممتدة شمالها فوصل إلى حوض البحيرات المرة واضطر لقلة المياة إلى الإتجاة صوب وادى الطميلات حيث عثر فى جانبة الشمالى على أثار قناة أمير المؤمنين فتتبعها إلى العباسة ثم عاد إلى القاهرة عن طريق بلبيس .

وفى ٢٩ سيتمبر ١٧٩٩ خرج (لوبير) على رأس بعثة كشفية أخرى إلى برزخ السويس فسارت البعثة إلى بلبيس وأخذت فى مقياس سطح البرزخ من العباسة حتى نقطة (السبع أبيار) ثم البحيرات المرة وتابعت سيرها إلى السويس ومنها عادت إلى القاهرة.

وفى ١٤ نوفمبر ١٨٩٩ عاد (لوبير) للمرة الثالثة إلى منطقة البرزخ حيث إتجة شمالا فى هضبة التبه صوب ساحل البحر المتوسط ثم عاد إلى القاهرة. وقد كتب (لوبير) نتائج أبحاثة فى تقرير أعده فى ديسمبر سنه ١٨٠٠ بعنوان مذكرة عن توصيل بحار الهند بالبحر المتوسط بواسطة البحر الأحمر وبرزخ السويس وقدم (لوبير) هذه المذكرة إلى نابليون الذى كان حينذاك فى باريس وقد بلغت صفحاتها أكثر من ثلاثمائة صفحة وتم نشرها فى كتاب وصف مصر (الجزء الحادى عشر). ونصت على أن تحفر قناة عذبة تمتد من بوبسطه بالزقازيق عند بحر مويس حتى (جسر سنكه) عند مدخل وادى الطميلات لمسافة قدرها ١٩,٥ كليو مترا ثم تسير القناة فى وادى الطميلات من جسر سنكة حتى سرابيوم لمسافة ٧٢,٥ كليو مترا ثم تتجه القناة نحو الجنب الشرقى فى حوض البحيرات المرة لمسافة نحو ٤٥ كليو متراً وأخيراً تغادر القناة البحيرات المرة وتتجه جنوباً لتنتهى عند السويس بإمتداد طوله نحو ٢١,٥ كليو

مترا. وقد إقترح (لوبير) إنشاء هاويس عند الحافة الجنوبية للبحيرات المرة لتلافى إنخفاض مستوى هذه البحيرات عن مستوى البحر الأحمر. وهذا عن الزراع الشرقى للقناة اما فى الغرب فإن القناة تمتد من الإسكندرية إلى الرحمانية على فرع رشيد لمسافة تبلغ مائة كليو مترا تقريبا. ثم تتمثل فى فرع رشيد نفسه من الرحمانية حتى رأس الدلتا لمسافة مائة وعشرين كليو مترا. ثم تسير القناة فى الفرع الشرقى للنيل من رأس الدلتا حتى مدخل وادى الطميلات لمسافة تبلغ نحو ثمانين كيلو مترا وبذلك يصبح طول المسافة بين الإسكندرية والسويس طبقا لمشروع لوبير نحو ٤٣٥ كليو مترا. وقد حبذ لوبير فكرة وصل البحرين رأسا بواسطة قناة اخرى تخترق برزخ السويس فيما بين بيلوزيوم على البحر المتوسط إلى مدينة السويس على البحر الأحمر غير أنه إعتقد خطأ أن البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر المتوسط.

وهكذا كان مشروع الحملة الفرنسية يقوم على ربط البحر المتوسط بالبحر الأحمر بقناتين الأولى عذبه تربط الإسكندرية بالسويس والثانية مالحة تصل بورسعيد بالسويس ولكن مشروع الحملة الفرنسية فشل وذهبت معه أمال الفرنسيين فى إعلاء السيادة الفرنسية سواء السياسية أو التجارية بين دول العالم فى ذلك الوقت .

محمد على يدعم محاولات الفرنسيين ولكن ..!!

حظيت منطقة الإسماعيلية بإهتمام محمد على نتيجة الإهتمامات التى كانت مطروحة حينذاك من جانب المهندس الفرنسى (لينان دى بلفون) الذى كان يعمل فى خدمة الحكومة المصرية وكذلك من جماعة (السان سيمونيين) وقد تركزت هذه الإهتمامات فى مشروع إيصال البحرين الأحمر والأبيض بقناة ملاحية. ففى عام ١٨٢٠ قام (لينان دى بلفون) بزيارة لبرزخ السويس للتعرف على القناة القديمة التى كانت تربط النيل بالبحر الأحمر في العصور السابقة .

وفى عام ١٨٢٢ قام بجولة أخرى فى المنطقة الشمالية الشرقية من برزخ السويس وعلى ضفاف بحيرة التمساح كما زار الفرما والسويس وعكف على دراسة مشروع توصيل البحرين وأخذ إهتمامه يتجاوز الناحية التاريخية المقتصرة على كشف أثار القناة القديمة الى الناحية الفنية والهندسية فعاد إلى زيارة البرزخ فى عامى ١٨٢٧، ١٨٢٩ حيث قام بمراجعة وتحقيق المقاييس والنتائج التى توصلت إليها بعثة الحملة الفرنسية فى أجزاء من البرزخ وخرج من هذه الدراسة بتأكيد مقاييس بعثه الحملة الفرنسية وتأييد وجود فرق بين مستوى البحرين الاحمر والمتوسط .

وعلى هذا الأساس شرع (لينان) منذ عام ١٨٣٠ فى وضع مشروع توصيل البحرين – وهو مقيد بالفرق بين مستوى البحرين –

على أن يصل البحرين بطريق غير مباشر اى عن طريق النيل مثلما رأى (لوبير) من قبل. ورأى (لينان) أن تمتد القناة من السويس إلى البحيرات المرة وتجرى فى هذا الجزء من القناة مياه البحر الأحمر التى تعلو عن مستوى سطح البحيرات المرة فى تقدير لينان بخمسة أمتار تقريبا. ولذلك إقترح اقامة اهوسة عند الطرف الجنوبى للبحيرات المرة التى ستملؤها مياه النيل طبقا لمشروع لينان حتى لا تختلط مياه البحر الأحمر فى هذا الجزء من القناة بمياة النيل فى البحيرات المرة. ومن البحيرات المرة تسير القناة فى وادى الطميلات حتى ترعة الزعفرانية عند رأس الوادى ثم تستخدم ترعة الزعفرانية ذاتها.. ثم ترعة أبى منجى بعد تعميقها وأخيرا يصل الفرع الشرقى للقناة إلى النيل عند القناطر وتستمر حتى القاهرة .

وقد لفت إهتمام لينان بهذا المشروع أنظار محمد على إلى هذه المنطقة فاهتم بها وبالمشروع الذى يصل بين البحرين واكد على أن هذا المشروع يجب أن يتم دون تدخل أجنبى أو امتياز يمنح لشركة أجنبية وأن هذه القناة يجب أن تتمتع بالحياد الكامل بالنسبة لكل الأمم دون أعطاء أى دولة حقا لا تتمتع به دوله أخرى ودفع حماس محمد على (لينان) إلى وضع مشروع أخر لشق قناة مستقيمة بين البحرين الابيض والأحمر رغم إعتقاده بفارق المستوى بين البحرين ورأى تلافى ذلك بشق ربوتى السويس وسرابيوم وإقترح إنشاء

سلسلة من الجسور عند مدخل وادي الطميلات من الشرق خوفاً على الأراضى الزراعية من المياة المالحة كما اقترح إقامة بروز عند مدخل القناة على البحر المتوسط لحمايتة من رواسب النيل التى يلقى بها على ساحل البحر كما إقترح إقامة ميناء على بحيرة التمساح يتوسط القناة. وكان لينان يرى أن هذا المشروع لن يتم إلا اذا إتفقت الدول الأوربية فيما بينها على حياد القناة قبل الشروع فى حفرها .

أما إهتمام جماعة السان سيمونيين بمشروع ايصال البحرين والذى ترتب عليه اهتمام محمد على. بمنطقة الإسماعيلية فيعود الى اهتمام هذه الجماعة بتنفيذ مثل هذا المشروع الذى كان شديد الصلة بالمبادئ التى آمنوا بها منذ عهد زعيمهم الأول (سان سيمون). ففي عام ١٨٣٣ وصل السان سيمونيون الى مصر حيث رحب بهم محمد على وقام بعضهم على الفور بزيارة برزخ السويس وساروا بمحاذاة بقايا القناة القديمة حتى وصلوا إلى البحيرات المرة وتحققوا من وجود إتصال قائم فعلا بين النيل والبحر الأحمر فى العصور الماضية. وقامت بعثة السان سيمونيين خلال هذه الرحلة ببعض الاعمال الفنية والهندسية المتصلة بالمشروع فأجروا بعض المقاييس ووضعوا الخطوط الرئيسية لمشروع القناة المزمع إنشاؤها كما عكفوا على دراسة الأبحاث التى قام بها لوبير ولينان وأثبتوا خطأ نظريتهما القائلة بان البحر الأحمر يعلو عن سطح البحر المتوسط بنحو تسعة

أمتار إذ توصلوا فى أبحاثهم إلى أن البحرين فى مستوى واحد تقريباً. وفى النهاية لم تنجح جهودهم لعدم موافقة محمد على حفر القناة وتنفيذ المشروع لاعتقاده أن حفر هذه القناة سيزيد من مطامع الدول الأوربية فى مصر. وفى عام ١٨٤٦ اسس السان سيمونيون جمعية أسموها (جمعية دراسات قناة السويس) وفى عام ١٨٤٧ أرسلوا بعثة جديدة لدراسة برزخ السويس وعند وصول البعثة الى القاهرة فى ١٧ سبتمبر ١٨٤٧ عرضت خطتها على المهندس (لينان دى بلفون) وتقابلت مع محمد على الذى طلب من لينان مساعدة البعثة فى إنهاء دراستها وأبحاثها فى البرزح. وفى ديسمبر ١٨٤٧ انهت البعثة مهمتها وأعدت تقريراً فى هذا الشأن أثبتت فيه تساوى البحرين تقريباً. واقترحت البعثه وصل البحر الاحمر بالبحر المتوسط بقناة تخترق الدلتا ولكن محمد على أخذ يسوف فى قبول عروض الفنيين والمولين حتى توفى وعندما تولى عباس الأول حكم مصر فى ١٨٤٨ رفض مشروع توصيل البحرين تلبية لطلب الحكومة البريطانية والتى عارضت هذا المشروع منذ بدايته لأعتقادها بأن الفرنسيين يعملون على بسط نفوذهم على مصر والسيطرة على طريق التجارة بين أوربا والهند .

وفى عام ١٨٥٣ قرر (لينان دى بلفون) القيام بعمل قياس أخر وخرج بتأكيد على أنه لا يوجد فرق يذكر بين مستوى البحرين .

الإسماعيلية تروى يوميات القناة
من فرمان الباشا إلى قرار الزعيم

استطاع فرديناند دى لسبس أن يحصل من والى مصر محمد سعيد باشا على عقد الإمتياز الأول لحفر قناة السويس فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤، وهو نفس العام الذى تولى فيه سعيد باشا الحكم، وذلك للصداقة التي كانت بين الرجلين وللتقارب المصرى الفرنسى فى ذلك الوقت.

وكان سعيد باشا يهدف من مشروع القناة إلى زيادة دخل مصر وإلى حمايتها وفصلها عن بقية الأملاك التابعة للدولة العثمانية، إضافة إلى البحث عن المجد والعظمة والشهرة العالمية.

وقد نصت المادة الأولى من عقد الامتياز على أن يقوم دى لسبس بإنشاء الشركة العالمية لقناة السويس البحرية لحفر وإدارة القناة وطبقا لهذه المادة كان لابد من إنشاء مدينة الإسماعيلية وغيرها من مدن القناة.

كما نصت المادة الثالثة على أن مدة الامتياز هى تسع وتسعين

عاما من يوم إفتتاح القناة، بما يعنى أن الشركة مسؤلة عن إدارة القناة بعد حفرها. وقد خالف سعيد باشا قانون الأراضى فى الدولة العثمانية، والذى كان يحرم على الأجانب شراء أو امتلاك الأراضى في ولايتها. فقد نصت المادة الرابعة: على أن تمنح الشركة مجانا الأراضى اللازمة للمشروع والتى لا يمتلكها أفراد أو شراؤها من الأفراد إذا اقتضت الضرورة ذلك. كما أن الحكومة المصرية قد تنازلت بمقتضى المادة السابعة للشركة عن الأراضى غير المنزرعة والتي يستلزمها شق طريق مائى بين الدلتا والبرزخ.

ونصت المادة الثامنة على وجوب دفع الأهالى رسوما عن رى أراضيهم من ترعة الماء العذب التي ستحفرها الشركة وعهدت إلى مسيو لينان كبير مهندسى الحكومة المصرية فى ذلك الوقت، بتحديد الأراضى الممنوحة للشركة، ومنحت المادة التاسعة للشركة تسهيلات فى الاستفادة من المناجم والمحاجر دون دفع رسوم، وطبقا لهذه المواد فقد استولت الشركة على مساحات شاسعة فى منطقة الإسماعيلية وغيرها، بعد حفر ترعة الماء العذب على أن تقوم الشركة بريها وزراعتها واستغلالها مع إعفائها من دفع الضرائب عنها لمدة عشر سنوات، تبدأ من تاريخ إفتتاح القناة. وبذلك أصبحت مدينة الإسماعيلية حتى قبل إنشائها محتلة من قبل الشركة. ويبدو أن سعيد باشا لم يكن يقدر قيمة هذه الأراضى لأنها كانت صحراوية.

فى ذلك الوقت ولأنه كان يعمل على إنجاح المشروع بأى ثمن..!!

وقد أدت هذه السياسة إلى تورط مصر فى مزيد من التنازلات وبيع الأراضى كلما احتاجت إلى الأموال حيث باعت في عام ١٨٦١ تفتيش الوادى التابع لمنطقة الإسماعيلية.

ولم تظهر خطورة التنازل عن أراضى الإسماعيلية فى عهد سعيد باشا، ولكنها ظهرت بعد أن تغيرت الظروف والأوضاع وأضبحت هذه الأراضى مصدراً للحياة وأصبحت بالغة الخطورة من النواحى الاستراتيجية والسياسية ومن ثم فإنه حينما أراد إسماعيل أن يخلص هذه الأراضى من شركة القناة أرهقت التعويضات خزانة مصر بالرغم من أن التنازل عنها فى البداية كان بدون مقابل على الإطلاق مما أدى إلى إفلاس خزينة الدولة.

وقد نصت بنود الإمتياز الأول على حق الشركة فى بيع مياه الترعة العذبة إلي أهالى الإسماعيلية لكى يتمكنوا من رى الأراضى التى يملكونها وتقع فى زمام الترعة أى أن المصريين الذين حفروا هذه الترعة بطريق السخرة ومات منهم الآلاف كان لزاما عليهم أن يشتروا ماء نيلهم.

وقد جاء الامتياز الأول خلوا من أية إشارة لمسألة استخدام العمال المصريين فى حفر القناة ووجدت الحكومة الإنجليزية فى ذلك حجة وذريعة تستند إليها في معارضة المشروع ولكى تثير المخاوف

فى دوائر الدولة العثمانية. وأكدت الحكومة الإنجليزية للباب العالى أن استقدام عدد كبير من الأجانب والفرنسيين على وجه الخصوص إلى الإسماعيلية وباقى منطقة القناة لتنفيذ الأعمال التى يتطلبها المشروع يشكل خطرا جسيما على مستقبل الإمبراطورية العثمانية إنطلاقاً من سعى فرنسا القديم إلى الاستيلاء على مصر وفصلها عن الدولة العثمانية كما كانت إنجلترا تخشى من فرنسا على مستعمراتها فى الهند.

لماذا تأخر الفرمان

رغم أن سعيد باشا قد أصدر قرار منح الإمتياز فى ٣٠ نوفمبر ١٨٥٤ إلا أنه لم يصدر العقد الرسمي الذى يخول لدى لسبس حقوقا قانونية إلا بعد ستة أشهر تقريباً فى ١٩ مايو ١٨٥٥ وقد سعى سعيد باشا قبل إصدار الفرمان الأول إلى إحاطة نفسه ببعض الضمانات الفنية والسياسية وفى هذه الأثناء طلب دى لسبس من الوالى أن يأذن له بمصاحبة لينان وموجل فى رحلة استكشافية إلى منطقة الإسماعيلية ولأن لينان فرنسى فقد راح يعطى للشركة أراضى شاسعة في منطقة الإسماعيلية تزيد كثيراً عن حاجتها. وقد تنبأ دى لسبس بأهمية وخطورة منطقة الإسماعيلية وأدرك أن هذه المنطقة سيكون لها شأن خطير بعد إزدهارها وقد تردد فى ذلك الوقت إشاعات بأن نابليون الثالث كان ينوى إنشاء مستعمرة

فرنسية مهمة في منطقة الإسماعيلية وباقى منطقة البرزخ مما يؤكد خطورة تنازل سعيد باشا عن أراضى الإسماعيلية للشركة، وقد مكثت بعثة دى لسبس فى منطقة الإسماعيلية أكثر من أسبوع فقد دخلت البعثة منطقة الإسماعيلية فى ٣١ ديسمبر ١٨٥٤، وفى الطريق إلى بحيرة التمساح كان دى لسبس يجتمع برفاقه لتبادل الآراء بخصوص مشاهداتهم أثناء الرحلة ومناقشة وجهات النظر المختلفة بشأن الأبعاد التي ستكون عليها القناة المزمع حفرها ومحاولة تكوين فكرة مبدئية عن تكاليف المشروع وعندما وصلوا إلى بخيرة التمساح فى ٢ يناير ١٨٥٥ إقتنع دى لسبس بصواب الرأى الذى نادى به لينان لإنشاء ميناء داخلى على بحيرة التمساح واستمر الركب إلى أن وصل إلى الفرما فى ١٠ يناير ١٨٥٥.

وقد اقتنع دى لسبس بعد هذه الزيارة بأن حفر قناة تصل بين البحرين لم يعد موضع شك ولكن الخيار كان بين التوصيل المباشر أو غير المباشر وقد طلب دى لسبس من لينان وموجل بحث وتحديد المسار الذى تسير فيه القناة من السويس إلى البحيرات المرة ومنها إلى بحيرة التمساح والأعمال التى يجب تنفيذها لإنشاء ميناء داخلى على بحيرة التمساح ثم تحديد إتجاه القناة من بجيرة التمساح إلى بحيرة المنزلة. كما عهد إليهما دراسة مشروع ترعة الماء العذب من حيث التكلفة ومدة الحفر. وبعد ذلك غادر دى لسبس مصر فى ٢٧

يناير ١٨٥٥ إلى القسطنطينية لكى يبذل من أجل المشروع جهوداً سياسية بالحصول على موافقة حكومة الباب العالى على الإمتياز.

وعاد إلى مصر يوم ١٥ وتسلم من لينان وموجل التقرير الذى كلفهما به يوم ٢٠ مارس ١٨٥٥. وأكد هذا التقرير على سهولة تنفيذ قناة ملاحية مباشرة من حيث وجود منخفض طولى يخترق البرزخ كما يتمثل فى البحيرات المرة وبحيرة التمساح وكلها تسهيلات تساعد فى شق القناة، كما اقترح التقرير مسار ترعة الماء العذبة والتى تبدأ من النيل وتخترق وادى الطميلات للإستفادة منها فى رى الأراضى ولتوفير مياه الشرب اللازمة للعمال الذين سيقومون بحفر القناة. على أن تتفرع ترعة الماء العذب عند بحيرة التمساح إلى فرعين يتجه أحدهما إلى السويس والآخر إلى بيلوز.

وأكد التقرير على ضرورة البدء بترعة الماء العذب قبل البدء فى حفر القناة. وتم عرض التقرير على اللجنة الدولية العلمية والتى أقرت التقرير. ولكن الشركة تجاهلت هذا التقرير وبدأت بحفر القناة البحرية مما عرض حياة سكان الإسماعيلية لخطر الموت عطشا.

إنجلترا تعارض

عارضت إنجلترا مشروع القناة منذ البداية معارضة شديدة وذلك تخوفا من تكرار تجربة الحملة الفرنسية على مصر عام ١٧٩٨. وقامت إنجلترا بالضغط على الباب العالى لرفض المشروع بكامله

وأقنعوهم بأن أنصار السياسة الفرنسية يسعون لفصل مصر عن الإمبراطورية العثمانية وفى سبيل إقناع الدولة العثمانية بذلك إدعت وزارة الخارجية البريطانية أن وزارة الحرب الفرنسية قد وضعت خطة لإقامة تحصينات واسعة النطاق تحت إشراف مهندسين فرنسيين على الساحل المصرى المطل على البحر المتوسط للدفاع عن البلاد المصرية ضد أى هجوم بحرى قد يأتيها من جانب الدولة العثمانية.

ورغم المعوقات البريطانية إلا أن اللجنة الدولية رفعت إلى سعيد باشا فى ٢ يناير ١٨٥٦ تقريراً موجزاً أقرت فيه أنه من السهل حفر قناة مباشرة من السويس إلى الخليج البيلوزى وأن نتائج هذه القناة على التجارة العالمية عظيمة وبالغة الأهمية وكان هذا التقرير إشارة البدء لإنشاء مدينة الإسماعيلية. وقد ترتب على هذا التقرير أن أصدر سعيد باشا فى ٥ يناير ١٨٥٦ فرمان الامتياز الثانى وافق فيه على النظام الأساسى للشركة العالمية لقناة السويس البحرية. وقد جاء الإمتياز الثانى يحمل فى طياته كثيراً بالنسبة لمستقبل منطقة الإسماعيلية. حيث جاء تأكيداً لما جاء فى الامتياز الأول من أجحاف ومميزات كما جاء أكثر تفصيلاً للمسائل التي ستحدد تاريخ المنطقة بعد ذلك حيث نصت المادة الأول على أن تتعهد الشركة بمقتضى هذا الإمتياز بأن تقوم على حسابها وتحت مسئوليتها

بجميع الأشغال اللازمة لإنشاء القناة بالإضافة إلى حفر ترعة عذبة للري والملاحة النهرية وكذلك تحويل بحيرة التمساح إلى ميناء داخلي صالح لإستخدام ورسو البواخر الكبيرة.

وللقضاء على الدعاوى الإنجليزية بالنسبة لإستخدام العمال الأجانب، تم الاتفاق بين سعيد باشا ودى لسبس على إضافة فقرة إلى البند الثانى من الإمتياز تنص على أن يكون أربعة أخماس العمال من المصريين ورغم الهدف السياسى الظاهر لإستخدام العمال المصريين فى الحفر إلا أن الأهداف الاقتصادية كانت الأهم، فقد كان من المتعذر علي الشركة استقدام العمال الأجانب كما أن أجور العمال المصريين أقل كثيراً وبشكل عام فبدون استخدام العمال المصريين كان تنفيذ المشروع سيصبح مستحيلاً خاصة وأن العمال المصريين وحدهم هم الأقدر على تحمل هذا العمل الشاق. وقد أضفى استخدام العمال المصريين على مدينة الإسماعيلية الوليدة طابعاً مصريا.

وقد نصت المادة العاشرة من الإمتياز الثانى على أن تتنازل الحكومة المصرية (كما فى الامتياز الأول) للشركة مجانا عن الأراضى المملوكة لها واللازمة لإنشاء القنوات المالحة والعذبة وملحقاتها بدون أن تدفع الشركة عنها أية ضرائب، وكذلك الأراضى غير المنزرعة المملوكة لها لإستغلالها فى الزراعة مع إعفائها من

الضرائب لمدة عشر سنوات من تاريخ استثمارها وقد أرفقت بعقد الإمتياز خريطة تبين جميع الأراضى التي تنازلت الحكومة عنها للشركة فى الإسماعيلية وغيرها. وقد قامت الشركة بعد ذلك فى القنطرة والفردان والجسر والتمساح وسرابيوم وغيرها بإنشاء قرى للفلاحين الذين يفدون من الدلتا وتخوم سوريا بحثا عن الأجور التى ستصرف لهم. وإتجه العديد من السكان إلى الإسماعيلية الوليدة للإتجار فى المأكولات وأنواع التجارة المختلفة ثم توالى عليها بعد ذلك أصحاب الفنادق والملاهى لخدمة رجال الشركة والمهندسين والعمال وحقق هؤلاء أرباحا طائلة واتسع العمران فى الإسماعيلية.

التركيبة السكانية

من العائلات التي أتت لخدمة أعمال الحفر خصيصا عائلات الكاشف والقواسمه من الشرقية وجماعات أخرى مثل التوادر والعركية والبراهم من الوجه القبلى وقفط وطهطا. ومن السودان والنوبة للعمل فى الخفر وخدمة عماله وهم من تجار الماشية وأصحاب الإبل التي كانت تنقل ناتج حفر القناة من الرمال إلى أماكن بعيدة عن موقع الحفر ولقد أتوا من الصعيد بحيواناتهم إلى هذه المنطقة . ولذلك أطلق على المكان الذى عاش فيه هؤلاء الناس (عرايشية العبيد) نسبة إلى بعض سكانها سمر البشرة ولكى يفرقوا بينها وبين العرايشية الأخرى التي يطلق عليها عرايشية مصر. وكان من بين

الوافدين إلى المدينة الوليدة بعضا من الحرفيين الذين تحتاج لهم المدن الجديدة فى كل المجالات وكان وجودهم ضرورة تطلبتها المدينة لسد مطالب الكثير من السكان ولاستمرار الحياة فى هذه المنطقة شبه الخالية من العمران إلا من القليل من جماعات البدو الضاربة فى أعماق الصحراء (صحراء الإسماعيلية) والتى كان يقطنها قبل تأسيسها جماعات من العربان والتجار القادمين من الشام بعد سفر طويل فى الصحراء والذين حطوا رحالهم فى منطقة العباسى تلك المنطقة التي كانت قبل إنشاء المدينة محطة للراحة لكثير من القوافل العربية القادمة من سيناء. كما توالت على المنطقة أفواج قليلة من المصريين تنفيذاً لنص الإمتياز وجاء البعض طواعية واختيارا إما للبحث عن موارد جديدة للرزق أو لضيق مواردهم بالوطن الأصلى إضافة إلى روح المغامرة والمخاطرة وإلى جانب توفر فرص العمل بالمدينة الوليدة. ولأن الإسماعيلية فى البداية كانت ملكا للشركة فقد قام المهندس الفرنسى (جومار) برسم تخطيط للمدينة يخدم فى المقام الأول مرفق القناة على اعتبار أن مدينة الإسماعيلية تتوسط القناة وسيكون بها الإدارة الرئيسية لشركة القناة وقد اهتم (جومار) لتحديد مناطق السكن وذلك بتقسيم المدينة إلى قسمين مختلفين تمام الاختلاف قسم خاص بالأجانب يسمى (حى الأفرنج) وقسم خاص بالمصريين يسمى (حى العرب) والفرق شاسع بينهما. ويعتبر حى

العرب أقدم أحياء مدينة الإسماعيلية ويمثل هذا الحى أقدم السكان المصريين لمدينة الإسماعيلية. وكان هذا الحى مجموعة من عشش الصفيح والخشب موزعة على شوارع قابضة للصدر وذات منافذ حديدية لا يتخللها الهواء ولا تزينها الحدائق وهذا الجزء من المدينة كان حيا فقيراً يعد مثالا بائسا للحياة. وعلى الرغم من هذه البدائية فى مساكن المصريين بحى العرب إلا أن الشركة اهتمت بالتنظيم والتخطيط فى المدينة بشكل عام. وبعد إنشاء محافظة القناة وأصبحت الإسماعيلية عاصمة البرزخ كانت الشركة تتدخل لدى المحافظ لإزالة العشش التى يقيمها الأهالى إذا خرجت عن خطوط التنظيم وكان لابد من الحصول على ترخيص من الشركة قبل إقامة اية مبان مهما كان نوعها. أما القسم الثانى من مدينة الإسماعيلية والذى إستقر فيه الأجانب الذين أتوا للقيام بالأعمال الفنية الدقيقة فى بداية الأمر وكلهم من الفرنسيين والنمساويين فهو حى الأفرنج وقد سمى بهذا الإسم نظراً لأن السكان الذين سكنوا فيه كانوا من الأجانب من شتى الأجناس بعد ذلك.. وقد إرتبط حى الأفرنج ونشأته ببداية الحفر فقامت على أرضة فيلات ومساكن المهندسين المشرفين على الحفر والعمال الأجانب وكبار الشخصيات من المصريين وقد قام (جومار) بتقسيم شوارعه فبرزت فيلا دى لسبس. وقد هيات الشركة لمستخدميها الأجانب فى الحى كل وسائل الراحة والصحة والرفاهية

فقد كانت الشركة تقوم بإسكان مستخدميها الأجانب فى ابراج وقصور وتقيم لهم المصايف الجميلة وتنشىء لهم المدارس والمستشفيات وكل وسائل الراحة. ولكن الشركة كانت تهمل السكان القاطنين فى حى العرب الذى يقطنه أهل البلد الذين حفروا القناة ولكنها بخلت عليهم بالحد الأدنى من مستوى المعيشة. وبذلك أصبحت مدينة الإسماعيلية نموذجا لعنصرية الغاصب المحتل .

وإضافة إلى الحيين الرئيسيين الأفرنج والعرب كان هناك حى ثالث تقطنه الطبقة المتوسطة وبه ميادين وشوارع عريضة نجمية الشكل وذات حدائق مزروعة وبها حوانيت كبرى .

وقد أشرف دى لسبس على كل شىء ودعا المصريين للإشتراك فى حفر القناة وحبب إليهم العمل وقدم لهم الإ غراءات الكثيرة مؤكداً على أن الاجر على أساس الإنتاج وليس على اساس عدد الأيام التى يقضيها العامل فى الحفر واكد أن أجر العامل سيتراوح بين ٦ – ٨ قروش فى اليوم .

أبحاث وإرتجال

كونت الشركة خمس فرق للقيام بالأبحاث فى منطقة البرزخ وقد تولت الفرقة الثالثة البحث عن أبار الشرب ولكن تلك الأبحاث شابها الإرتجال فقد كانت الشركة تبدأ فى تنفيذ مشروع مؤقت يجلب ماء الشرب إلى مناطق كثيرة ثم تتركة جانباً حين تكتشف فى منطقة

تحفها التلال بئراً صالحاً للشرب ويضيع الوقت الذى مر فى الدراسة والإعداد. كما فشل مشروع المحسمة الذى كان يهدف إلى الإستغناء عن الأبار وبعد هذا الفشل ركزت الشركة على الطريقة البدائية فى نقل المياه العذبة على قوافل الجمال وهذه الطريقة كانت تكلف الشركة تكاليف باهظة حيث كانت تكاليف نقل المتر المكعب من الماء إلى القنطرة تبلغ ٢٥ فرنكا .

وتتحمل الشركة المسؤلية عن الخسائر الجسيمة فى الأرواح بين صفوف العمال وذلك لأنها أغفلت الناحية الإنسانية وأهتمت فقط بالناحية السياسية من خلال تدعيم مركزها على الساحة الدولية وحيث خالفت الشركة كل الدراسات التى دعت إلى البدء فى حفر ترعة الماء العذب بل خالفت قرار سعيد باشا الذى جاء فيه (إنه بمنه تعالى سيصير البدء والشروع فى عملية ترعة السويس (يقصد ترعة الماء العذب الإسماعيلية فيما بعد) وحيث أن الإهتمام فى إنجاز وتأدية لوازمها بمجرد طلبها فى الوقت والحال من أقصى مرغوبنا فقد صدرت أوامرنا إلى جهات الإقتصاد عن ماذكر وأصدرنا أمرنا هذا إليكم لتعلموا ذلك وبحال ورود مكاتبة إليكم يطلب أى شىء للزوم تلك العملية (حفر الترعة) سواء كانت من (ديوان محافظة مصر أو من المهندسين المأمورين بأشغال الترعة المذكورة يجب أن تبذلوا كمال الهمة فى تأديته بوقته وساعته بدون تأخير كما هو مطلوبنا) .

ولم يقتصر الأمر عند هذا الحد ففى النصف الثانى من عام ١٨٥٦ إتخذ سعيد باشا التدابير النهائية لحفر الترعة وأستورد من إنجلترا وفرنسا المهمات اللازمة لتنفيذ المشروع ووضع المهندسون علامات على الأرض لتحديد خط سير الترعة وكان عدد العمال الذين يعملون حينذاك أربعمائة عامل وطلب دى لسبس رفع العدد إلى الف عامل. وفى ٣١ مارس ١٨٥٧ كتب دى لسبس خطابا إلى سعيد باشا يمتدح فيه دعمه لحفر ترعه المياه العذبه وتغير موقف دى لسبس تماما حيث بعث فى شهر يوليه ١٨٥٧ خطابا إلى الباشا يطلب فيه إرجاء عمليه حفر الترعة الحلوة للبدأ مباشرة فى حفر القناة .

وكان (موجل بك) قد عين مديراً عاما للأشغال بالشركة ورجع عن رأية السابق وقرر حفر الترعة مع القناة في وقت واحد رغم إستحالة تنفيذ هذا الرأى مما أدى إلى موت العمال عطشا فى الصحراء ويرجع التغيير فى خطة حفر القناة والترعة إلى قطع الطريق على الموقف الإنجليزى المعادى للمشروع ولإزالة القلق الذى بدأ يساور نفوس المساهمين فى الشركة ومؤيدى مشروع القناة .

ولذلك قام مجلس الأشغال الأعلى بتقسيم أعمال المشروع إلى خمس مراحل تنتهى فى ست سنوات على أن يكون حفر ترعة الماء العذب من القاهرة إلى بحيرة التمساح ضمن المرحلة الأولى. ولكن

عند بداية التنفيذ الفعلى تم تنحية مشروع الترعة جانبا وتم البدأ مباشرة فى حفر القناة. حيث رأى (موجل) أن إنشاء القناة من بور سعيد إلى بحيرة التمساح سيحل مشكلتى النقل والتموين فى النصف الشمالى من البرزخ بإيجاد طريق مائى لنقل المهمات والآلات وقد أدعى موجل أمام مجلس الأشغال الأعلى أن مياه الأبار كافيه رغم ندرة الأبار وتعفن الماء فى بعضها . وقد أسرعت الشركة ببدأ الحفر فى المنطقة الشمالية للبرزخ رغم الصعوبات الكثيرة التى تكتنف هذه المنطقة.. وتم أيضا نشر فرق أخرى من طلائع الموظفين والفنيين على طول الخط المقرر لسير القناة وتعرض هؤلاء الموظفون لمقاومة القبائل الموجودة فى المناطق التى نزلوا بها وذلك بعد تحريض انجلترا لتلك القبائل .

ورغم أن موضوع ترعة الماء العذب قد إنتقلت من مصر إلى ساحات المحاكم فى فرنسا إلا أن دى لسبس قد القى محاضرة عامة فى مدينة نانت يوم ٨ ديسمبر ١٨٦٦ قال فيها (لقد عملت السياسة الإنجليزية لتحول دون المشروع في شق - ترعة الماء العذب وكان علينا أن نترك حفر هذه الترعة مما عرضنا لمتاعب جمه ومصاريف باهظة وإستخدمنا الف جمل لنقل ماء الشرب إلى ساحات الحفر) .

عمال السخرة

وبعد أن تأزم الموقف تدخلت الحكومة المصرية وساعدت الشركة

بالمال وعمال السخرة فأرسلت ثلاثة آلاف عامل للحفر بدأوا العمل في ابريل ١٨٦١ من قرية القصاصين وطلب دى لسبس من سعيد باشا زيادة أعداد العمال فتم رفع العدد إلى عشرة آلاف عامل. وتم حفر ترعة الماء العذب فى تسعة أشهر من القصاصين إلى نفيشة بالقرب من بحيرة التمساح وبلغ طولها ٣٤,٨ كم وحفرها ٥٥٨٩٣ من عمال السخرة .

ترعة الإسماعيلية

أخذ الأهالى يتوافدون على شاطىء الترعة لزراعة المناطق المحيطة بها خاصة فى ظل خصوبة أراضى منطقة الإسماعيلية وتم زراعة المحصولات التى تلائم هذه الأراضى مثل السمسم.. والفول السودانى - الفاكهة وخاصة المانجو - البطيخ - الشمام - القطن - القمح - الذرة. وكان من نتائج حفر الترعة أيضا أن تزايدت الاهمية الأمنية والإستراتيجبة للإسماعيلية وذلك لأن أى مهاجم لمصر من الشرق يتحكم فى ترعة الإسماعيلية وفرعيها الممتدان إلى بورسعيد والسويس مما يمكنه من قطع المياه عن بورسعيد والسويس .

كما أصبحت هذه الترعة شريانا مائيا يربط الزقازيق بالإسماعيلية وكثرت المناطق الريفية حول المدينة بعد أن كانت الحياة قبل حفر الترعة مقصورة على سكن المدينة فقط. كما ربطت هذه الترعة الإسماعيلية بالدلتا ونشطت عملية تعمير هوامش الدلتا

الشرقية على طول محاورها فى منطقة الإسماعيلية وتزايدت كثافتها السكانية أى أن هذه الترعة قد جلبت الحياة والحركة إلى منطقة صحراوية جرداء .

سعيد باشا فى الإسماعيلية

فى ديسمبر ١٨٦١ قام سعيد باشا برحلة إلى الإسماعيلية وذلك عندما وصل الحفر إلى مرتفعات عتبة الجسر وهى أعلى هضبة تعترض سير القناة فدعا دى لسبس سعيد باشا إلى وليمة أقامها له فى الإسماعيلية وفى هذه الوليمة حصل دى لسبس من سعيد باشا على تصريح بعشرين الف رجل يشتغلون كل شهر فى عمليات الحفر وكانت تلال الجسر فى الشمال الشرقى للإسماعيلية من أكبر الصعوبات الفنية التى صادفها مهندسو شركة القناة لأن إرتفاعها ١٦ متراً فوق سطح الأرض ومع اضافة العمق المطلوب للقناة (٨ متر) يصبح إرتفاع الحفر ٢٤ متراً. وقد كانت رحلة سعيد باشا دليلا أكيداً على تحمس الوالى للمشروع خاصة فى ظل صعوبة المواصلات فى ذلك الوقت وقد ذهب سعيد باشا إلى منطقة التمساح فى ركب حافل وإصطحب معه حاشية كبيرة وقوه من حرسة الخاص وقوة من الجيش المصرى وأنتظر دى لسبس الباشا فى التل الكبير ليرافقة فى تفقد اعمال الحفر وطلب دى لسبس تقليل حاشية الملك إلى أقصى درجة نظراً لوجود أزمة فى مياة الشرب فتم تقليص القوة

العسكرية إلى خمسين جنديا وتخلف الباقون عن مواصلة السفر. وتحرك ركب الباشا تجاه الإسماعيلية فوصل عتبه الجسر مساء ٦ ديسمبر ١٨٦١ وزار ساحة الحفر رقم ٥ وفى اليوم التالى تفقد أعمال الحفر وأعجب بالموقع الذى إختير مصبا للقناة فى بحيرة التمساح وطلب تشييد سكن خاص له فوق التلال ليشرف على هذا المصب حتى يسمع هدير إنسياب مياه البحر المتوسط فى بحيرة التمساح وعلى الفور تم تشييد إستراحة خشبية (شاليه) للوالى على هذه الربوة العالية وقامت الشركة بتجهيز الإستراحة بجهاز تليفرافى. وقد غادر سعيد باشا عتبة الجسر صباح ٨ ديسمبر ١٨٦١ ووصل إلى موقع طوسن (إسم إبن الوالى) عند الظهيرة وتم استقباله إستقبالا حافلاً من العمال المصريين. وقد عادت زيارة سعيد باشا للإسماعيلية على الشركة بأعظم النتائج .

مدينة التمساح

إحتفل رسميا يوم ٢٧ إبريل ١٨٦٢ بوضع حجر الأساس لمدينة التمساح (الإسماعيلية) وهذه البحيرة كانت جزء من البحر الأحمر وطولها ٨كم ومسطحها ٥٠٠٠ فدان. وقد نشطت حركة بناء منشآت الشركة فى المدينة الواعدة تمهيداً لنقل مكاتب الشركة من دمياط إليها وقد أدى نقل أعمال الشركة إلى مدينة التمساح إلى تدهور مدينة دمياط. وأصبحت مدينة الإسماعيلية المركز الرئيسى لجميع

أعمال الشركة خاصة وأنها تقع عند منتصف المسافة بين مدينتى السويس جنوباً وبورسعيد شمالاً كما أنها قريبة من الأقاليم المصرية والقاهرة.كما كان موقع المدينة شديد التميز لأنه على شكل شريط ممتد على الطرف الشمالى من بحيرة التمساح بجزء من مدخل القناة على تلك البحيرة بواجهه رئيسية جنوبية. أى أن واجهة المدينة على عكس إتجاه الريح السائد ويبدو أن توجيه المدينة للتعامد مع مسار الشمس كان مقصوداً مما جعلها مشتى للأجانب أضافة الى أنها مصيف. أى أن الإسماعيلية قد توافرت لها كثير من عناصر التميز فى الموقع الجغرافى والمناخ وموارد المياه ولكن ظهر بعد قليل من إنشاء المدينة أنها كانت واسعة على عدد سكانها وأن ضواحيها منخفضة المنسوب كثيرة المستنقعات تنمو فيها ميكروبات الملاريا مما يجعلها غير صحيه. وقد تجمعت كل مساوىء السخرة مع الأوبئة لتعصف بسكان المدينة. فقد ظهر التيفود فى المدينة فى إبريل ١٨٦٢ فى ساحة الحفر رقم ٦ بمنطقة عتبة الجسر وقد اكد كبير اطباء الشركة أن فوج العمال الذى جاء من مديرية قنا كان يحمل هذا الوباء ويؤكد ذلك أن هذا الوباء قد ظهر فى سبع قرى من مديرية قنا عام ١٨٦١ وهذا الكلام دليل إدانه للشركة فكيف تسمح لعمال قنا بالتواجد فى ساحة الحفر رغم علمها بوجود الوباء فى قراهم. ويؤكد بعض المؤرخين أن التغير فى البيئة والأحوال المعيشية السيئة هو

الذى اصاب العمال بهذا المرض وقد التزمت الشركة بالسرية فى علاج الوباء وتم حصار العمال المصابين وقد تعطلت عمليات الحفر بسبب الوباء مما يدل على جسامة عدد المرضى عكس ما كانت تزعم الشركة بأن عددهم قليل جداً .

وقد أخذ معارضو المشروع من هذا الوباء فرصة للهجوم على المشروع وعلى الشركة ولكن الشركة أسرعت بإنشاء مراكز الإسعاف تباعا فى الجهات التى يمتد إليها نشاط شركة القناة ومع ذلك لم تستطع وقف كل الأوبئة مثل الرمد - الدوسنتاريا - الأمراض الصدرية - التيفود - الكوليرا - مما أودى بحياة الكثير من العمال وبشكل عام فقد كانت عناية الشركة بصحة مستخدميها من الإجانب تفوق كثيراً عنايتها بصحة المصريين فى الإسماعيلية وغيرها .

إسماعيل باشا بين المطرقة والسندان

الإسماعيلية شاهد إثبات على حسن النوايا وسوء التنفيذ

تولى إسماعيل باشا عرش مصر فى ١٣ يناير عام ١٨٦٣ وقد سادت كل الأوساط المتعلقة بمشروع القناة حالة من الترقب إنتظاراً لموقف الحاكم الجديد ولم يطل الأمر حيث قال إسماعيل باشا لدى لسبس فى أول لقاء بينهما (لا أستحق أن أكون والى مصر إن لم أكن أكثر منك إنتصاراً للقناة) ورغم هذا التأييد المطلق إلا أن الباشا قد بدا مهموماً بذلك الإرث الثقيل الذى ورثه وخاصة عمال السخرة

والأراضى التى أعطيت للشركة وقد أعلن الباشا على الفور تصميمه على إلغاء السخرة وإسترجاع الأراضى التى أعطيت للشركة لأنهما أخطار تهدد وتعصف بسيادة الحكومة المصرية ومستقبلها .

وكان إسماعيل فور توليه العرش قد بعث برسالة إلى السلطان العثمانى يرجو فيها أن تبادر حكومة تركيا فتوافية برأيها فى موضوع القناة رسميا ولكن الحكومة التركية توانت فى الرد عليه .

وعندما تولى إسماعيل العرش كانت أعمال الحفر فى القناة قد تمت فى بحيرة التمساح إضافة إلى إتمام حفر ترعة الإسماعيلية. ولكنه ورث العقد الجائر للإمتياز ولائحة إستخدام العمال وما إشتملت عليه من قيود تكبل مصر وتحد من حرية مدينة الإسماعيلية الوليدة.والتى ورثها إسماعيل وهى ملكا تاما لشركة القناة بمنشآتها وأراضيها بل وحتى سكانها .

وقد قررت شركة القناة بعد أن تولى إسماعيل باشا حكم مصر أن تستغل الفرصة فتطلق إسمه على مدينة التمساح إعتقاداً منها أن هذا العمل سوف يساعد على خلق جوودى بينها وبين الوالى الجديد لعله يسير على سياسة سلفة فى تأييد المشروع.. وأقامت الشركة يوم ٤ مارس ١٨٦٣ حفلاً كبيراً والقى دى لسبس خطابا جاء فيه (إن اسم سعيد قد أطلق على مدينة بورسعيد عند مدخل القناة ويجدر بنا أن نطلق إسم الوالى الحالى على مدينة التمساح إعترافا بفضله) .

وكان إسماعيل يحب الفخر والعظمة فاستغل دى لسبس وذلك بمغازلة تلك المشاعر لدى الوالى ليضمنه إلى صفه. ومن هنا إرتبطت مدينة الإسماعيلية باسم إسماعيل باشا الذى عمل على تخليص المدينة التى تحمل إسمه من براثن الشركة وإستغرق فى هذا سنوات طويلة كانت المدينة خلالها مركز عناية الوالى. حيث أصدر إسماعيل أمراً بإنشاء محافظة القناة ومقرها مدينة الإسماعيلية وقام بتعيين إسماعيل حمدى محافظا بها وذلك فى محاولة من الوالى لقطع الطريق على أطماع الشركة والحكومة التركية فى منطقة القناة. كما أدت الحوادث والفتن والمشاجرات إلى إنشاء مأموريات فى محطات القناة فتم تعيين مأمورين فى القنطرة والإسماعيلية وغيرها من المحطات لحفظ الأمن ومنع الفتن بها. وإستطاع دى لسبس أن يقنع إسماعيل باشا بأن تتولى الحكومة المصرية حفر الجزء الباقى من ترعة المياه العذبة وذلك ليوفر على نفسه الكثير من الأعباء المالية والبشرية .

بداية التصحيح

وقع (نوبار) نيابة عن الحكومة المصرية مع دى لسبس نيابة عن شركة القناة إتفاقين فى ١٨و٢٠ مارس ١٨٦٣ وحققت الحكومة المصريةفى هذين الإتفاقين بعض المكاسب كانت إيذانا بتنازل الشركة عن الإمتيازات الآتية .

- الإستيلاء المجانى على كافة الأراضى التى لا يملكها الأفراد والتى تلزم عمليه إنشاء الترعة .

- الإنتفاع بكافة الأراضى غير المزروعة والتى لا يملكها أفراد وتروى بمياه هذه الترعة وتزرع بمعرفة الشركة .

- الإعفاء الضريبى من هذه الأراضى لمدة عشر سنوات .

- حق الشركة فى بيع ماء النيل فى هذه المنطقة من الترعة للفلاحين .

- حق الشركة فى فرض رسوم على الملاحة والمرور فى الترعة العذبة. وكانت حجة إسماعيل باشا فى الغاء البنود الثلاثة الأولى أن قوانين الدولة العثمانية الخاصة بالملكية العقارية والتى كانت متبعة فى مصر وقتئذ لاتجيز للأجانب ملكية الأراضى والعقارات. وقد أثار إتفاق مارس ١٨٦٣ ثائرة الإنجليز وإستطاعوا إثارة السلطان العثمانى ضد هذا الإتفاق وكان السلطان غير متحمس لمشروع القناة منذ بدايتة وفى ١٦ إبريل ١٨٦٣ أرسل السلطان العثمانى إحتجاجا شديداً على منح الأراضى للشركة ولم يشأ إسماعيل باشا أن يستجيب على الفور لتعليمات الحكومة التركية والتى تضمنت إحدي خيارين فإما أن تتنازل الشركة عن شرطى السخرة وإمتلاك الأراضى وإما أن توقف الأعمال فى القناة فوراً. فأوفد إسماعيل وزيره نوبار للتباحث مع المسئولين الأتراك مع الحفاظ على الحقوق

التى سبق للباشوية المصرية أن كسبتها .

وبعد عودته من تركيا أرسل (نوبار) إلى شركة القناة رسالة بين فيها مطالب مصر وهى .

– أولاً : إنقاص عدد العمال الذين تقدمهم الحكومة للشركة من ٢٠ الف عامل إلى ستة ألاف وذلك رغبة فى إلغاء السخرة .

– ثانياً: زيادة أجور العمال وجعلها فرنكين للعامل فى اليوم الواحد .

– ثالثاً : إلغاء ملكية الشركة لأى أراضى .

وقد رفضت الشركة هذه المطالب وعلى الفور طلب إسماعيل من نابليون الثالث امبراطور فرنسا التحكيم بينه وبين الشركة. وقد وافق نابليون الثالث على التحكيم وعين فى مارس ١٨٦٤ لجنه عهد إليها ببحث الموضوع وفى ٦ يوليه ١٨٦٤ أصدر نابليون حكمة التالى .

تتنازل الشركة عن إستخدام العمال المصريين مقابل تعويض مالى قدرة ٣٨ مليون فرنك. وايضا تتنازل الشركة للحكومة المصرية عن حق إنشاء الترعة العذبة وحق إستغلالها مقابل تعويض مالى قدرة ٦٤٠ ألف جنيه مصرى على أن تأخذ الشركة من الترعة ما يكفيها حتى يتم حفر قناة السويس وأن تعفى سفنها من الرسوم ورغم الظلم الذى وقع على ميزانية مصر فى هذا التحكيم إلا أن عودة الترعة العذبة إلى مصر كان تحريراً للترعة وللأهالى القاطنين

بها من ملكية الشركة ولم يكن ذلك بالشيء الهين على الإطلاق .

وبناء على هذا التحكيم ردت الشركة الى مصر ٦٠ الف هكتار من الأراضى (من ١٥٠ - ١٨٠ ألف فدان) بعد أن ثبت زيادة هذه المساحة عن حاجة الشركة مما يؤكد تواطؤ (لينان) كبير مهندسى الحكومة المصرية حينما كلفه سعيد باشا اعطاء الشركة ما يلزمها من الأراضى. وقد إستردت مصر هذه الأراضى مقابل تعويض مادى للشركة قدره ١.٢ مليون جنيه مصرى وبعد التحكيم أصبحت الشركة تملك ٢٣ الف هكتار ١٠,٣ على القناة، ٩,٦ للترعة العذبة ٣ ألاف هكتار لمبانى الشركة. وإذا ما علمنا أن رأس مال الشركة فى ذلك الوقت كان ثمانية ملايين جنيها لاتضح ضخامة المبلغ الذى حصلت عليه الشركة كتعويض من الحكومة المصرية ولا تضح مدى العبء الذى وقع على خزانه مصر. خاصة وأن هذه الأحكام كانت جائرة جداً وظالمة لمصر لأن ما جاء بالإتفاق الأولى ينص على أن ٨٠ ٪ من العمال من المصريين ولم ينص على الإلتزام بتقديم هؤلاء العمال. أما عن ترعة الماء العذب فكان الواجب أن تتحمل مصر قيمة ما أنفق على الجزء الذى تم حفرة وهو ٣٠٠ الف جنيه وليس ٦٤٠ الفاً .

أما التعويض عن الأراضى التى تركتها الشركة فقد تبين أن هذه الأراضى فوق حاجة الشركة ولا لزوم لها وقد أخذتها بالتدليس أى

أنها لا تستحق عنها أى تعويض.. والخلاصة أن مصر خرجت من هذا التحكيم بقسمة المظلوم بينما ضمنت للشركة إتمام المشروع على حساب مصر .

وقد أخطأ إسماعيل باشا فى لجوئه إلى هذا التحكيم وفى عدم تمسكة بشروطه التى قدمها للشركة ولو تمسك بهذه الشروط ما إستطاعت الشركة أن تخطو خطوة واحدة دون موافقته ومع ذلك لم يخلو هذا التحكيم من فوائد حيث نزع من الشركة كل صفة سياسية وقصرها على الأغراض الإقتصادية وإستعادت به الحكومة المصرية كامل سيادتها على أراضى الإسماعيلية وغيرها وإسترد الوطن أرضة وحرية العمل لبنيه وقد عارضت الدولة العثمانية تحكيم نابليون الثالث وأمر الباب العالى بتكوين لجنة تضم مندوبين عن الشركة ومندوباً عن فرنسا وأخر عن الباب العالى ومندوبا مصريا هو على مبارك وذلك لدراسة الأراضى اللازمة لحفر القناة والتحقق من أن مساحة الأراضى التى حددها الإمبراطور نابليون الثالث لن تستخدم فى أى غرض أخر سوى أعمال الحفر. وقد أكد مندوب الباب العالى فى ٢٧ ديسمبر ١٨٦٤ على أن الأراضى لا يجب أن تتجاوز ١٧٨٤ هكتمار. وكان سكان الإسماعيلية حتى ذلك الوقت عندما يتقدمون إلى الشركة بطلب إعطاءهم أراض للبناء عليها فإن الشركة كانت تجيبهم إلى طلبهم دون الرجوع إلى الإدارة المصرية أو حتى إبلاغها.

وفى ٣٠ يناير ١٨٦٦ تم إتفاق جديد بين نوبار ودى لسبس إستردت فيه مصر كثيراً من الإمتيازات التى كانت تتمتع بها الشركة فى الإسماعيلية وباقى منطقة القناة حيث جاء فى البند الأول من الإتفاق أن من حق الحكومة المصرية فى حدود الأراضى المحتفظ بها كملحقات للقناة البحرية - إحتلال جميع المراكز والنقط الإستراتيجية التى تراها لازمه للدفاع عن البلاد وأعطيت الحكومة المصرية حق إحتلال المناطق اللازمة لها لمباشرة مصالحها الإدارية كالبريد والجمارك. كما أستردت الحكومة المصرية بموجب هذا الإتفاق بعض الأراضى فى منطقة الإسماعيلية. ومنها تفتيش الوادى (٥٠ كم من الإسماعيلية) والذى إشترته الشركة من سعيد باشا سنه ١٨٦١ بمبلغ ٦٨ ألف جنيه وإستردته الحكومة المصرية بعد خمس سنوات فقط مقابل ٤٠٠ الف جنيه!! ومن مساوئ هذا الإتفاق أنه أعطى للشركة حق المضاربة فى أراضى الإسماعيلية وباقى منطقة القناة .

وتم تشكيل لجنه خاصة مختلطة لتحديد الأراضى اللازمة لحسن إستغلال القناة وبدأت اللجنة أعمالها فى ٢٦ يناير ١٨٦٦ وإتجهت اللجنة الى الإسماعيلية فى ٣٠ يناير ١٨٦٦. ووصلت إلى القنطرة فى أول فبراير ثم ذهبت الى بورسعيد يوم ٣ فبراير ١٨٦٦ وكتبت اللجنة محضرها فى ١٩ فبراير ١٨٦٦ ورأت اللجنة أن يكون إنتفاع

الشركة بالأراضى مؤقتاً ويحدد بعشر سنوات يمكن مدها عند الحاجة ويمكن أن تقل عن ذلك عند عدم الحاجة لها وتم توقيع الإتفاقية الجديدة فى ٢٢ فبراير ١٨٦٦ وقد أكدت هذه الإتفاقية على سيادة مصر على قناة السويس حيث نصت فى مادتها التاسعة أن تبقى القناة وملحقاتها خاضعة لنظام البوليس المصرى مع حق الحكومة المصرية فى المرور بالقناة دون أية رسوم كما نصت الإتفاقية فى مادتها العاشرة على حق الجكومة المصرية فى شغل أى موقع او نقطة حربية تراها لازمة للدفاع عن البلاد على ألا يعرقل هذا اشغال الملاحة. وفى ١٩ مارس ١٨٦٦ صدر فرمان السلطان العثمانى بالتصديق على إتفاق ٢٢ فبراير ١٨٦٦. وبعد إتفاقية فبراير تأسس فى الإسماعيلية مكتب للبريد ليربطها بباقى أنحاء مصر كما إشترت مصر مؤسسة البريد من الشركة الفرنسية كما قام الخديو إسماعيل فى اطار إهتمامه بمدينة الإسماعيلية بإدخال التلغراف الى المدينة لتسهيل إتصالها بالمدن المصرية الاخرى وقد أدت كل هذه الإتفاقات إلى إستقرار البدو فى منطقة الاسماعيلية وتطورت الزراعة وتوسعت المحاصيل وذاد الدخل وفى ٢٩ اغسيطس ١٨٦٦ أصدر إسماعيل باشا أمراً بعمل دفاتر رسمية بإحصاء البدو وتحديد مناطق إقامتهم ومنحهم أطيانا بنظام الضرائب العشرية مع عدم جواز التصرف فيها ونتيجة لتعالى البدو على العمل اليدوى

وعدم خبرتهم فى الزراعة شاركوا الفلاحين فى زراعة هذه الأراضى كما أجروا بعضها للفلاحين وقد حصل عمدة كل قبيلة على مساحة تتراوح من ٥٠ - ١٠٠ فدان حسب تعداد قبيلة كل منهم. وقد أعقب إتفاقات عام ١٨٦٦ التى رخصت لأى فرد بالاستيطان والإقامة فى الإسماعيلية وغيرها طبقا للشروط الواردة به صدر أمر إسماعيل باشا إلى الإدارة المصرية فى الإسماعيلية بعمل خرائط عن كل جهة من جهات المدينة يحدد عليها الأراضى التى يجوز التصريح بالاعطاء منها للراغبين فى الإسماعيلية ويتبع ذلك إنشاء محكمة شرعية فى الإسماعيلية لإستخراج الحجج الشرعية لتمليك الإراضى التى يتم بيعها. وكانت الحكومة كلما رغبت فى إقامة أى منشآت خاصة بها عهدت بذلك إلى شركة القناة وقد إختصت الإسماعيلية وبورسعيد باكبر نصيب من هذه المنشآت. وقد عرض دى لسبس على إسماعيل شراء الأرض الزائدة عن حاجة الشركة ورفض الخديو - ولكن دى لسبس عرض عليه مرة أخرى عندما كان فى باريس أن يتم بيع هذه الأراضى على أن يتم تقسيم العائد مناصفة بين الشركة والحكومة المصرية وتحت ضغط نابليون الثالث وافق إسماعيل باشا فى أغسطس ١٨٦٧ على إقتراح دى لسبس على أمل أن تقوم فرنسا بإنصاف مصر ومساعدتها على تنظيم شؤنها وتخليصها من نفوذ الإجانب وإصلاح فوضى القضاء بإنشاء المحاكم المختلطة .

وفى ٢٧ ديسمبر ١٨٦٧ صدر الأمر العالى بإعطاء الأطيان ملك الحكومة المصرية الى العساكر الاتراك مما فتح الباب للأجانب لتملك العقارات فى مصر .

وفى ٣ ابريل إتفقت الشركة مع الخديو على بيع بعض المبانى والمستشفيات والمعسكرات التى أقيمت خلال فترة شق القناة ولم تعد مطلوبة أو ضرورية للشركة. وطبقا لهذا الإتفاق ثم ضم الإدارة الصحية للشركة بمنشآتها إلى الحكومة المصرية. كما أشترت الحكومة محجراً كانت قد أعطت حق إستغلاله للشركة وقد حصلت الشركة بناء على إتفاق ابريل ١٨٦٩ على تعويضات من الحكومة المصرية قدرها البعض بـ ٣٠ مليون فرنك وقد كانت الشركة فى ذلك الوقت فى أشد الحاجة للمال بعد أن زادت تكاليف المشروع إلى أكثر من ضعف المبلغ الذى قدرته اللجنه العلمية الدولية .

وقد كان إتفاق إبريل ١٨٦٩ مفيداً لمنطقة الإسماعيلية بعد أن تسلمت الحكومة المصرية المستشفيات التابعة لشركة القناة بالإسماعيلية بما فيها من أدوات ومهمات وأدوية. وقد أصدر الخديو إسماعيل أمراً إلى الداخلية فى ٣ ديسمبر ١٨٦٩ بتقيين المندوبين لتسلم الاملاك والمحلات فى الإسماعيلية على أن يعين على مبارك لتثمين الاملاك. وقد راحت الشركة تمارس المضاربة في أراض الإسماعيلية ولم يتجاوز ثمن المتر الواحد بالإسماعيلية فى ذلك الوقت

١٦,٥ فرنكا بحد اقصى .

إستراحة الخديو بالإسماعيلية

بعد أن حملت مدينة التمساح أسم الخديو إسماعيل كان لابد وأن يكون للوالى مقرابها ولأن مرتفعات تلال الجسر أعلى نقطة فى المدينة فقد أقيمت فوقها مقصورة ملكية للخديو إسماعيل ومن هذه المقصورة كان الباشا يشرف على بحيرة التمساح وعلى جميع أعمال القناة. وقد إستبدلت هذه المقصورة الملكية بعد ذلك ببناء سراى الخديو إسماعيل وتلك السراى هى التى إستقبل فيها الخديو ملوك ورؤساء وأمراء اوروبا فى حفلات افتتاح القناة .

وقد تنامت حركة العمران في الإسماعيلية حيث مضى الناس فى إقامة العشش فى حي العرب ومضت الشركة فى إقامة الفيلات للاجانب كما استمرت الشركة فى جهودها لجعل الإسماعيلية مكانا صالحا لإدارة القناة. كما أولت الحكومة المصرية مدينة الإسماعيلية إهتماما بالغا خاصة وأنها تحمل إسم الوالى. وكانت الإسماعيلية قد غدت منطقة منظمة بداية من ١٨٦٤ فعندما غادر العمال ساحات الحفر بعد الغاء السخرة فى ٣١ مايو ١٨٦٤ تركوا وراءهم شبكة مواصلات مائية على درجة كبيرة من الأهمية ورغم ذلك لم تكن الإسماعيلية بعيدة عما تمر به مصر فى ذلك الوقت فقد مرت بالمدينة موجة شديدة البرودة فى شتاء ٦٣ – ١٨٦٤ وهبطت درجة الحرارة

عند جبل مريم إلى ثلاثة تحت الصفر وظهر وباء الكوليرابمنطقة الإسماعيلية ولم تكد الكوليرا تظهر فى الإسماعيلية حتى إنتشرت سريعاً وفتكت سكان الحى العربى وإجتاحت حى التجار والحى اليونانى فهرب الناس الى بورسعيد سيراً على الأقدام بعد أن عجزت المنشآت الصحية بالمدينة عن توفير الخدمة أو الإقامة للمرضى الكثيرين وإنتقل الوباء من الإسماعيلية إلى بورسعيد وإستمر الوباء فى الإسماعيلية ومنطقة القناة من ١٦ يونيه ١٨٦٥ إلى ٣١ يوليه ١٨٦٥ . وبعد الكوليرا ظهر فى الإسماعيلية مرض الجدرى فى أواخر عام ١٨٦٦ حيث كانت تجارة الرقيق لا تزال تجد بعض الرواج فى مصر رغم جهود الحكومة فى مطاردة تجار الرقيق وقد جاء الجدرى مع هؤلاء الرقيق الى السويس ثم الى الإسماعيلية .

القطار فى الإسماعيلية

لم تقف هذه الأمراض فى طريق تقدم وتطوير المدينة حيث تم فى عام ١٨٦٧ البدأ فى مد خط السكة الحديد من الزقازيق الى الإسماعيلية مما ساعد على تقليل زمن السفر من القاهرة إلى الإسماعيلية وجاء هذا الخط إستكمالا للخط الذى انشأه سعيد باشا من بنها إلى الزقازيق بطول ٣٦ كم عام ١٨٦٠ وقد كان الهدف من إنشاء خط الزقازيق الإسماعيلية إستخدامه فى نقل العمال بالمجان للمشاركة فى حفر القناة وقد تم إنشاء هذا الخط عام ١٨٦٨ وادى

إلى زيادة العمران بالمنطقة وخدمة الزراعة والتجارة وخلق نشاطات مختلفة بما قدمه من خلق فرص جديدة للعمل سواء فى إنشاء الخط وحراسته أو العمل فى محطات السكة الحديد وهذه الأعمال أتاحت فرص العمل لكثير من الأهالى. خاصة بعد أن أمتد هذا الخط من نفيشة إلى السويس بطول ٨٨ كم وكان عدد محطات خط القاهرة - السويس عن طريق الإسماعيلية عند إبتداء إنشائه ١٢ محطة وكان القطار يقطعها فى ٩ - ١٠ ساعات حيث يمر ببنها ومنيا القمح والزقازيق حيث يتناول السائحون طعامهم ثم أبو حماد والتل الكبير والمحسمة ونفيشة وسرابيوم وفايد وجنيفة والشلوفة وأخيرا السويس.

وفى اطار إهتمام الحكومة المصرية بمدينة الإسماعيلية صدر فى ٣ ديسمبر ١٩٨١ إمتياز إلى شركة القناة بإنشاء خط طوله ٨٠ كم يربط بين الإسماعيلية وبور سعيد وذلك لخدمة منشأت الشركة وخدمة البواخر وقد إفتتح الخط فى ٢ ديسمبر ١٨٩٣ فى حفل رسمى شهده الخديو عباس حلمى الثانى. وقد تحدد يوم ١٥ يناير ١٩٥٦ موعداً لإنتهاء الإمتياز الممنوح لشركة القناة بخصوص هذا الخط .

وفى أول فبراير ١٩٠٢ إتفقت الحكومة مع الشركة على إستغلال الخط لحساب الدولة إلى نهاية عقد الإمتياز على أن تدفع الحكومة مبلغ ٣ ملايين فرنك على أقساط سنوية بفائدة ٤٪ أى أن القسط السنوى يبلغ ١٩٩٣ جنيها مصريا الى نهاية سنة ١٩٥٥. وبعد تسلم

الحكومة لهذا الخط عملت على تطويره مما عمل على ربط القاهرة بالإسماعيلية ببورسعيد بخط مباشر تسير عليه أسرع القطارات .

تنظيم القضاء والأمن

عمل الخديو إسماعيل على تنظيم فوضى القضاء فى مصر وأسند إلى نوبار باشا هذه المهمه فوضع نوبار مذكرة سنه ١٨٦٧ وتكونت لجنة للنظر فى مشروع نوبار من قناصل الدول الأوروبية فى اكتوبر ١٨٦٩ وإستقر الأمر على إقامة ثلاث محاكم إبتدائية فى الإسماعيلية والقاهرة والإسكندرية وذلك ضمن خطة تنظيم القضاء .

كما بذلت الحكومة المصرية جهدها لحفظ الأمن فى الإسماعيلية وذلك فى اطار سعى الخديو إسماعيل بالتشبه بالممالك الأوربية وكانت الإسماعيلية اكثر المدن إحتياجا لتنظيم الامن نظر لتزايد عدد الأجانب وكثرة شغبهم وخاصة الأروام منهم فى أيام الأحاد وفى أعيادهم وذلك لإعتيادهم على السكر. وتنوعت اشكال قوات البوليس فى الإسماعيلية بين القواصة وعساكر الجهادية والجاويشية البلدية .

حفلات إفتتاح القناة

بدأت مصر تستعد لحفلات إفتتاح القناة وسافر الخديو إسماعيل لدعوة ملوك ورؤساء وامراء أوروبا لحضور تلك الحفلات وتولى إسماعيل بنفسه وبإسم مصر توجيه الدعوة لهم. وإجتمع نوبار مع دى لسبس لوضع برنامج الإحتفال الذى أضاف إليه الخديو بعض

التعديلات حيث امر بتخصيص يوم ١٨ نوفمبر ١٨٦٩ وهو اليوم الثانى للإحتفال لأهل مصر ومن يحضر كذلك من أهالى السودان لمشاهدة الضيوف والترحيب بهم فى الإسماعيلية .

وقد أظهرت صيغة الدعوات التى وجهها الخديو للملوك والامراء دوافعة لعمل تلك الحفلات فقد قال لملكة إنجلترا فيكتوريا (إنه يسره أن تلبى هى ومن ترى دعوتهم من الأسرة المالكة حفل الإفتتاح وستلمسون فى مصر التى هى فى الطريق إلى أملاككم فى الهند والشرق مدى ما أحرزته مصر من تقدم مادى ومعنوى). ورغم الجهد الكبير فى دعوة الملوك والامراء إلا أن غالبيتهم قد إعتذر وأناب غيره فى حضور الإحتفال خاصة بعد الخلاف الذى إستحكم بين السلطان العثمانى والخديو إسماعيل بسبب تلك الحفلات مما هدد إقامة هذه الحفلات حيث ذهب الخديو إلى ملوك أوربا قبل أن يذهب إلى السلطان العثمانى وقد بعث السلطان إلى جميع السفراء العثمانيين لدى الدول الغربية يأمرهم فيه الإحتجاج على خديو مصر وإعتباره خارجا عن حدود اللياقة جارحا لحقوق السيادة التى لتركيا عليه وذلك لأن الدعوة إلى حضور تلك الحفلات إنما كان من الواجب أن تكون بإسم السلطان العثمانى. وقامت معركة صحفية بين بعض الجرائد التركية بعضها تهاجم الخديو وبعضها يؤيده وأصبح الوضع ينذر بقيام الحرب بين الخديو والسلطان ووضع إسماعيل ٥٠ مليون

فرنك فى أحد مصارف باريس استعداداً للطوارئ.. وفى ٢٩ نوفمبر ١٨٦٩ صدر فرمان سلطانى يحرم على إسماعيل الإقتراض إلا بموافقة السلطان وأمره بالإمتثال لأوامره وألا يتصل بالدول الأجنبية إلا عن طريق سفراء الباب العالى وكذلك منعه من أى زيادة فى الأسطول وإخضاع ميزانيته لحكومة القسطنطينية.. وقد جاء هذا الفرمان ليلغى كل أحلام الإستقلال التى حاول إسماعيل تأكيدها خلال رحلته إلى أوروبا. ويؤكد المؤرخون أن إعتذار نابليون الثالث عن حضور إحتفالات فتح القناة جاء تخوفا من أن يستغل إسماعيل الفرصة ويعلن أمام الإمبراطور إستقلال مصر عن الدولة العثمانية. وقد أرسل نابليون الثالث زوجته الإمبراطورة أوجينى لحضور هذه الإحتفالات. ويؤكد المؤرخون أن الإحتفال الأسطورى لإفتتاح قناة السويس فى الإسماعيلية وغيرها كان مرضاة للإمبراطورة أوجينى. وقد تكلفت هذه الإحتفالات ١,٤ مليون جنية مصر ويؤكد أنصار إسماعيل بأنه أراد من هذه الإحتفالات أن يظهر مصر أمام أوربا دولة غنية ومتحضرة إستعداداً لإقدامه على إعلان إستقلال مصر عن الدولة التركية ولكن ضيوف الخديو إستفزهم بزخ الإحتفالات وبؤس الرعية فى الشوارع. وكان ضيوف إسماعيل المدعوين إلى حفلات الإسماعيلية وغيرها على درجتين فضيوف الدرجة الأولى هم الملوك والأمراء مثل امبراطيرة فرنسا أوجينى وإمبراطور النمسا جوزيف

وولى عهد بروسيا فردريك ويلهلم وأخو ملك هولندا إليوت والأمير موروا والأمير محمد توفيق باشا ولى العهد. اما ضيوف الدرجة الثانية فهم كبار الشخصيات السياسية فى أوربا وكبار العلماء والفنانين وممثلى الجرائد والمصورين وعدد كبير من المشتغلين بالتجارة والإقتصاد. وقد إختلف المؤرخون حول أعداد المدعوين إلى حفلات الإسماعيلية والمرجح أن ضيوف الدرجة الأولى كانوا مائة بينما بلغ ضيوف الدرجة الثانية تسعمائة ضيفاً ولكن البعض يصل بالمدعوين من ٣ – ٧ ألاف مدعو جاءوا على نفقة مصر. ويمكن تفسير هذا التناقض فى إحصائيات المؤرخين بأن هذه الاحتفالات قد اجتذبت إلى مصر كثيراً من السائحين من كل العالم فبداية من شهر أكتوبر ١٨٦٩ نقلت السفن إلى الإسكندرية آلاف الزائرين بخلاف ضيوف الخديو السابق الإشارة إليهم.

وقد أمر الخديو إسماعيل بإعداد وتجهيز ديوان محافظة القنال (الإسماعيلية) لإقامة الإمبراطورة أوجينى أثناء الاحتفالات وأشرف بنفسه على تأثيث وفرش الديوان بأفخر الأثاث كما عمل على استئجار قصور الأغنياء لكى يقيم بها ضيوفه فى الاحتفالات.

وقد شهدت الإسماعيلية استعدادات تفوق الوصف لحفل إفتتاح قناة السويس حيث روعى العمل على نظافة الأماكن التي سيزورها أو سيشاهدها الزوار إضافة إلي إعداد ما يلزم للمآدب التى ستقام

للمدعوين بإحضار الثلج من القاهرة وإعداد أنواع الأسماك الطازجة واللحوم بكميات خرافية وقد بدأت المدينة مع بداية شهر أكتوبر ١٨٦٩ في إعداد الزينات استعداداً لإستقبال الضيوف. كما تم ترتيب عساكر الأمن اللازمين لحفظ الأمن والنظام ليلا ونهارا وصرفت لهم ملابس من الجوخ واستقدمت طلمبة للحريق استعدادا للطوارئ وأضيئت الإسماعيلية بالفوانيس.

وارتفعت الأعلام وبدت الإسماعيلية فى أبهى حلة وأجمل زينة وتوقفت جميع الأعمال بالإسماعيلية أثناء فترة الاحتفالات وخوفا من شغب الأجانب المقيمين بالإسماعيلية عملت الحكومة على سفرهم إلى الأسكندرية على حسابها الخاص طوال فترة الاحتفالات. ومع ذلك فقد ضاقت الإسماعيلية بالمدعوين الذين وفدوا من كل أنحاد العالم وتم شغل كل الفنادق وكل منازل المدينة وأمر الخديو بإقامة الخيام على ضفاف الترعة الحلوة ونصب الأسرة لمبيت الضيوف والزائرين فانفرجت هذه الأزمة بسهولة تامة، وكان الخديو قد طلب من مديرى الأقاليم إرسال عدد من الأهالى بنسائهم وأطفالهم وأدواتهم البيئية فانتشروا على طول القناة فى منطقة الإسماعيلية من عربان وفلاحين وصعايدة فيما يمكن أن نطلق عليه بلغة العصر (المعرض المفتوح). وقد حضر أيضاً إلى مدينة الإسماعيلية جميع مشايخ وعمد القرى المصرية القريبة وأقاموا خيامهم على ضفاف بحيرة التمساح. وبلغ

عدد من نزلوا بمدينة الإسماعيلية أثناء حفلات إفتتاح القناة يومى ١٧، ١٨ نوفمبر ١٨٦٩ على أقل تقدير ١٠٠ ألف زائر من الأجانب والمصريين مما جعل حركة البيع والشراء تنشط فى المدينة. وكانت احتفالات افتتاح القناة قد بدأت فى بورسعيد يوم ١٦ نوفمبر ١٨٦٩ وأثناء احتفالات بورسعيد علم الخديو أن الباخرة المصرية لطيف قد اصطدمت بالشاطئ عند القنطرة فسافر ليلا إلى موقع الحادث ولم يتحرك إلا بعد أن خرجت الباخرة لتحية المراكب الحربية عند مرورها.. وكان الإنزعاج من هذه الأخبار بسبب الإشاعات التي روجتها إنجلترا بأن القناة لا تصلح لمرور البواخر. وفى الثامنة من صباح ١٧ نوفمبر ١٨٦٩ تحرك موكب الملوك وفى مقدمته اليخت النسر وعليه الإمبراطورة أوجينى ومعها دى لسبس وفى الثامنة والنصف اجتاز اليخت ميناء بور سعيد وأصبح أمام مدخل القناة حيث أقيمت أقواس النصر وبوابات للزينة على شكل أهرامات شاهقة الارتفاع وبعد ساعة وربع وصل إلى رأس العش على بعد ١٤ كم جنوبى بورسعيد وفى الساعة الثانية عشر ونصف كان يمر أمام القنطرة أى قطع ٤٤ كم فى أربع ساعات، وكان اليخت النسر يبلغ طوله ٩٩ متر وعرضه ١٨ مترا، وتلا اليخت النسر يخت امبراطور النمسا ثم بقية الضيوف وفى منتصف الساعة الخامسة وصلت ثلاث بواخر مصرية إلى بحيرة التمساح، بعد أن تحركت من السويس فى

الجنوب صباح نفس اليوم، ووصل فى نفس الوقت اليخت النسر واستقبلت الجماهير الإمبراطورة بحماس شديد وهتفت لها، وفى حركة آلية قدمت الإمبراطورة إلى الشعب المتحمس المسيو دى لسبس وأشارت إشارة يفهم منها أنه هو الجدير بالهتاف والثناء وبعد أن القى النسر مراسية صعد الخديو لتحية الإمبراطورة وعانق المسيو دى لسبس. وفى المساء أنيرت الإسماعيلية بأرصفتها وشوارعها وميادينها وأنيرت الذهبيات التي كانت راسية بالترعة الحلوة وعليها عائلات الباشوات والأعيان المصريين الذين حضروا من القاهرة وغيرها لحضور هذه الاحتفالات. وتلألأت أنوار السراى الخديوية.

وأقيمت فى ساحة الاحتفالات بالإسماعيلية ثلاث منصات مكسوة بالحرير الكبرى للملوك والأمراء والثانية لرجال الدين الإسلامى والثالثة لرجال الاكليروس. وجلس فى المنصة الكبرى الخديو إسماعيل والإمبراطورة أوجينى وبقية الأمراء. وقد القى الشيخ إبراهيم السقا فى هذا الاحتفال كلمة على سبيل (التبرك) ثم تلاه المونسيرتو واعظ نابليون الثالث الذى جاء خصيصا من فرنسا لحضور الإحتفال وألقى خطبة (تبريك) هو الآخر. وقام علماء الإسلام بتلاوة أدعية الشكر والحمد وقام أحبار المسيحية بإنشاد نشيد الشكر. وأعد الخديو لضيوفه وليمة عشاء فى قصره بالإسماعيلية ليلة

١٨ نوفمبر ١٩٦٨، وقد جلس الخديو فى مقابل الإمبراطورة وحولهما بقية الضيوف، وشهدت هذه الوليمة أفخر أنواع الأطعمة والشراب. وصدحت الموسيقى فى شوارع الإسماعيلية وإنطلقت الصواريخ النارية، وأقام الخديو بعد الوليمة حفلة رقص، وبدأت ألعاب البرجاس على ظهور الخيل العربية المطهمة، ودام الرقص والغناء حتي الصباح، وفى أثناء ذلك كانت المراكب ترسو الواحده بعد الأخرى على أرصفة ميناء بحيرة التمساح التي تم إفتتاحها يوم ١٨ نوفمبر ورسى بها أكثر من خمسين باخرة من مختلف الجنسيات. وفى يوم ١٩ نوفمبر استأنف الركب سيره فى القناة من بحيرة التمساح إلى البحيرات المرة وفى يوم ٢٠ نوفمبر تحرك اليخت النسر من البحيرات المُرة إلى السويس وهكذا عبر النسر القناة من بورسعيد إلى السويس فى ١٦ ساعة بدون أى حادث. ومن الإسماعيلية أرسل الجميع إلى حكوماتهم الإشارات البرقية بعد اجتيازهم القناة، حيث نشرت الحكومات النبأ فى نشراتها الرسمية، وعرف العالم كله أن الشرق قد اتصل بالغرب، وقد قامت الصحف العالمية بتغطية هذا الحدث الهام.. ومن طرائف هذه الاحتفالات أن دى لسبس قد تزوج أثناءها بكريمة قنصل المكسيك. وتلقى دى لسبس التهانى على اعتبار أنه صاحب الفضل في مشروع القناة وتناسى الجميع الآلاف من الشهداء المصريين الذين ماتوا أثناء حفر المشروع، وتناسوا أيضاً

التكلفة الباهظة التى تحملتها مصر، والتى بلغت ١٦,٢ مليون جنيه مما اضطر الخديو إلى بيع أسهم الحكومة المصرية فى الشركة. وما ترتب على ذلك من تغيرات خطيرة فى تاريخ مصر ولولا ذلك لبقيت القناة وحفلات الافتتاح فخراً لإسماعيل مدى الدهر.

ملامح الإسماعيلية

وصل عدد سكان الإسماعيلية عام ١٨٦٩ إلى ستة آلاف نسمة ثلثهم من الأجانب. وينبغى التأكد من أن أعداد السكان فى الإسماعيلية فى مرحلتها التكوينية والتي امتدت إلى سنة ١٨٩٧.

كانت أعدادا تقديرية غالبا من الناحية الإحصائية. وقد أعقب الإنتهاء من أعمال الحفر فى القناة عملية هجرة مرتدة من المدينة إلى القرى الأصلية للسكان، وذلك كنوع من رد الفعل تجاه أساليب العمل القهرية فى العقد الأول من إنشاء المدينة.. ثم عادت المدينة إلى اجتذاب تيارات الهجرة الإختيارية، فبدأت مرحلة جديدة من النمو السكانى تتسم بالإقامة الدائمة، وزادت معدلات الهجرة سنة بعد سنة. وبانتهاء عام ١٨٦٩ كان بالإسماعيلية من ٥-٦ مقاهى ومسجد ومدرسة وكنيسة ومكتب للتلغراف وكنيسة كاثوليكية. وتحولت الإسماعيلية بعد افتتاح القناة إلى مدينة حدائق هائلة تغص بالفيلات الضخمة ينمو بجوارها شجر الكافور والجميز وغيرها من الأشجار. وقد تفنن إسماعيل باشا فى جعل الإسماعيلية تضارع المدن الحديثة

فى التنسيق والتنظيم وانتشرت بها المانقورات لتصبح قطعة من أوربا. كما انتشرت اللغة الفرنسية فى شوارع الإسماعيلية بعد أن أصبحت مقراً رئيسياً للفرنسيين الذين يعملون فى الشركة. وبدأ الأجانب يتدفقون على الإسماعيلية، وكانوا من حثالة موانئ البحر المتوسط ومن الفقراء والطامعين إلى الثراء والمغامرين، أى كانوا مجموعات انتهازية خرجت تبحث عن الثروة بغض النظر عن الوسيلة، وراحوا يشرفون على أعمال الخدمة المحلية ويجلبون احتياجات وملذات الرواد ويديرون الملاهى والحانات والمطاعم ونوادى القمار وبيوت الدعارة وغيرها. وتم تقسيم حى الأفرنج بين الأجانب بحيث يحوى كل قسم جالية بعينها. وبشكل عام فقد تغلغل النفوذ الأجنبى داخل مصر طوال عهد إسماعيل خاصة النفوذ الفرنسى، ثم النفوذ الإنجليزى حيث فضلت الجالية الإنجليزية الإقامة فى الجزء الجنوبى الغربى لمدينة الإسماعيلية (معسكر الجلاء حاليا) وكانت منطقة عسكرية وسكنية فى نفس الوقت، وبه كافة أنواع الخدمات اللازمة مثل المدارس ومستشفى كبير ووسائل الترفيه من سينما ومسرح ونوادى اجتماعية ورياضية.

واحتلت الجالية الإيطالية المرتبة الثالثة فى الإسماعيلية، وعاشت فى منطقة سكنية محددة تداخلت مع المنطقة المخصصة للجالية اليونانية.

وكانت الجالية اليونانية أكثر الجاليات الموجودة فى الإسماعيلية عدداً واحتلت منطقة خاصة بها في حي الأفرنج.

وقد اشتهر اليونانيون بالعمل بالتجارة وحققوا ثروات كبيرة ومن الجاليات التي سكنت الإسماعيلية أيضاً الجالية الأرمينية، وكانت تسكن خلف المنطقة المخصصة للجاليات اليونانية والإيطالية، وقد حظى الأجانب فى الإسماعيلية بالعديد من الامتيازات منها.

– يحمى قناصل الدول رعايا بلادهم ويفصلون بينهم فى القضايا المختلفة.

– المحاكم المصرية تفصل فى القضايا التى تحدث بين شخصين تابعين لدولتين أجنبيتين مختلفتين أو بين مصرى وأجنبى مع حضور القنصل الأجنبى.

– لا تفرض على الأجانب ضرائب جديدة دون أن توافق عليها دولهم، أى أن الأجانب فى الإسماعيلية كانوا يتمتعون بأربع حصانات: الحرية الفردية – حرية السكن والإقامة – الحصانة القضائية والتشريعية – حصانة الإعفاء من الضرائب.

ولم يكن فى استطاعة الحكومة المصرية القبض على الجانى الأجنبى إلا بعد استئذان قنصليته، وبعد القبض عليه يتم تسليمه لقنصليته، وفى يوليه ١٨٧٦ أصبحت الإسماعيلية تابعة لبورسعيد، ويرجع بعض المؤرخين ذلك إلى عدم تقدم الإسماعيلية والسويس مما

أدى إلى نقل مركز إدارة منطقة القناة من الإسماعيلية إلى بورسعيد رغم بعدها عن مقر الحكومة المركزية، ربما يعود ذلك إلى قرب بورسعيد من موانى أوربا بعد افتتاح القناة.

أما عن التعليم فى الإسماعيلية فقد كان مثله مثل كل القطر المصرى يقتصر على الكتاتيب فى حى العرب بينما للجاليات الأجنبية مدارسها الخاصة، وفى سنة ١٨٧٨ تقدم أهالى الإسماعيلية بطلبات يرغبون فيها فتح مدرسة لأبنائهم. وقد تفوقت الإسماعيلية فى نسبة تعليم التلاميذ بالكتاتيب عنها فى سائر القطر المصرى باستثناء بورسعيد التى احتلت المركز الأول.. فقد كانت نسبة التعليم فى بورسعيد ٨٠ فى الألف، وفى الإسماعيلية ٧٥ فى الألف، وكانت النسبة تقل عن ذلك كثيراً فى بقية القطر المصرى لدرجة أنها وصلت إلى ١١ فى الألف فى قنا.

الإسماعيلية.. حصن الثورة العرابية

تسارعت الأحداث وأدت فى النهاية إلى عزل الخديو إسماعيل فى عام ١٨٧٩، وتولى الحكم أكبر أنجاله محمد توفيق والذى شهدت سنوات حكمه الأولى تصاعد تيار القومية المصرية، وكان الحاكم الجديد ميالا إلى الأخذ بنظام الحكم المطلق مما أدى إلى سرعة التصادم مع مطالب الحكم الدستورى، وكانت الثورة العرابية أعلى الأصوات مطالبة بذلك.

ويعد المواجهة الشهيرة التي تمت يوم ٩ سبتمبر ١٨٨١ بين الخديو والزعيم أحمد عرابى عمت الفرحة كل أنحاء مصر عندما أجيبت طلبات عرابى والتى طالب فيها بسقوط الوزارة وزيادة أعداد الجيش. وقد استقبل أحمد عرابى بحفاوة كبيرة عندما ذهب على رأس قواته العسكرية إلى وادى الطميلات، متخذاً من التل الكبير حصنا يمكن بواسطته وقف الزحف الإنجليزى القادم على القاهرة.. كما شهدت الإسماعيلية قصة الصراع الدامى بين قوات الاحتلال الإنجليزى وقوات العرابيين. عندما شرع الإنجليز فى احتلال مصر والزحف إلي القاهرة عن طريق الإسماعيلية، فعلى أرض الإسماعيلية

ونفيشة وتل المسخوطة والمحسمة والقصاصين والتل الكبير دارت معارك ضارية بين قوات العرابيين والقوات الإنجليزية انتهت بهزيمة العرابيين فى التل الكبير فى ١٣ سبتمبر ١٨٨٢ مما أتاح للإنجليز فرصة دخول القاهرة واحتلال مصر. ويأتى فى مقدمة أسباب الاحتلال الإنجليزى لمصر، افتتاح قناة السويس للملاحة البحرية سنة ١٨٦٩، وقد مهدت إنجلترا لهذا الاحتلال عندما أطلقت يدها فى شئون مصر الداخلية أثناء حكم إسماعيل، واقتنصت الفرصة عندما عرض إسماعيل بيع نصيب مصر من أسهم القناة فاشترت إنجلترا هذه الأسهم فى ٢٥ نوفمبر ١٨٧٥ مقابل ٤ ملايين جنيها مصرياً، وبعد ذلك أعلنت إنجلترا ضرورة حماية القناة ضد كل الإجراءات التى يحتمل أن يقوم بها الثوار العرابيون فى مصر. وأصدر مجلس الوزراء البريطانى فى ٥ يوليو ١٨٨٢ قراره بإرسال حملة عسكرية إلى مصر لتأمين القناة خاصة بعد تفكير عرابى فى حماية القناة عن طريق قوات عسكرية.

مؤامرة دى لسبس

فى ٥ أغسطس ١٨٨٢ قرر عرابى سد القناة وبنى خطته على قطع الترعة الحلوة أولاً لتنزل مياهها فى القناة جارفة معها الرمال لتسد القناة جزئياً ثم سد القناة بشكل كلى فى نقط معينة هى رأس العش والقنطرة والجسر والشلوفة، وتؤكد الشواهد على شروع

القيادة المصرية فى تنفيذ هذه الخطة عن طريق نسف جوانب القناة بالديناميت. وقبل التنفيذ مباشرة تدخل دى لسبس وأكد لعرابى أن القناة لا يمكن استخدامها فى الأغراض الحربية حيث أن الاتفاقات تمنع إنجلترا من استخدام القناة ميدانا للحرب، وأن احترام عرابى للاتفاقات الدولية سيكسبه عطف الدول ومساعدتها، وانخدع عرابى بنصائح دى لسبس ولم يصغ إلى نصائح أصدقائه وزملائه الذين أشاروا عليه بضرورة سد القناة لأنها خط الدفاع الوحيد للعرابيين، ولمنع الإنجليز من اجتيازها والوصول إلى الإسماعيلية. وقد أخطأ عرابى بتردده فى اتخاذ هذا القرار الحاسم مما سهل على الإنجليز اغتصاب مصر.

وظل عرابى متردداً حتى بعد وصول الإنجليز من بورسعيد إلى الإسماعيلية عبر القناة، وعند هذا الحد أرسل خطابا إلى دي لسبس يطلب منه منع إنتهاك الإنجليز لحرمة القناة ويستأذنه فى ردم القناة ولكن دى لسبس واصل خداعه طالبا من عرابى ألا يخشى شيئاً من هذه الناحية لأن الإنجليز لن يستطيعوا إنزال جندى واحد إلا ويكون معه جندى فرنسى وأنه مسؤل عن كل شىء.

وعندما احتل الإنجليز بورسعيد والإسماعيلية وقرر عرابى سد القناة سارع دى لسبس لمخاطبته (لا تعمل عملا لسد القناة) وبعد أن تمكن الإنجليز من كل شىء أرسل دى لسبس إلي عرابى قائلا (افعل

ما تسوغه قوانين الحرب) ثم رحل الخائن عن مصر يوم ٢٧ أغسطس ١٨٨٢ بعد أن تآمر لسقوط القناة في يد الإنجليز ولم يسعف الوقت العرابيين لسد القناة وكل ما استطاعوه هو سد الترعة الحلوة ليمنعوا المياه العذبة عن معسكرات الإنجليز.

وكانت الحملة الإنجليزية قد وصلت إلي الإسكندرية في ١١ يوليو ١٨٨٢ ثم وصل إلى الإسكندرية الجنرال (جارنت وسلى) في ١٥ أغسطس ١٨٨٢ ليتولى قيادة الحملة فقرر فور وصوله نقل العمليات الحربية من الجهة الغربية إلى شرق مصر عند قناة السويس، وذلك بعد أن فشل الإنجليز عند كفر الدوار. ورأى الجنرال ولسلى أن الزحف على القاهرة يستلزم أولا اتخاذ الإسماعيلية قاعدة للقوات البريطانية وقد طلب من أجل ذلك إمداد الحملة بالقطارات والعربات والقضبان الحديدية والمهندسين والعمال الفنيين لإستعمال الخطوط الحديدية من الإسماعيلية إلى القاهرة. كما أن اتخاذ الجيش البريطاني طريق القناة يؤكد مزاعمها التي رددتها كثيراً عن رغبتها في حماية قناة السويس. وعلى هذا النحو وضعت وزارة الحربية الأنجليزية خطتها في غزو مصر عن طريق الإسماعيلية وتكتمت خطتها حتى ظن العرابيون أنها ستتخذ طريق الإسكندرية وفي ٢٢ يوليو ١٨٨٢ صدرت الأوامر إلى الأميرال (بوشامب سيمور) قائد الأسطول الإنجليزى بالتحرك إلى بورسعيد والإسماعيلية واقتحمت

السفن الإنجليزية بورسعيد يوم ٢٦ يوليو وألقت مراسيها فى بحيرة التمساح يوم ٢٧ يوليو وتوقفت السفن الإنجليزية حتي حصلت قيادة الجيش الإنجليزى من الخديو توفيق على أمر يبيح لها التدخل لاحتلال القناة. إذ أصدر الخديو فى ١٤ أغسطس تصريحا بأن تحتل القوات البريطانية جميع النقط الواقعة على طول القناة والتي ترى أن احتلالها ضرورى لقمع العصيان ولم ينتبه عرابى إلي التحركات الإنجليزية خاصة بعد أن احتلوا السويس فى ٢ أغسطس ١٨٨٢ كما فات عليه أن مناوشات الجيش الإنجليزى عند الإسكندرية وكفر الدوار ما هى إلا عمليات لتغطية نيتها الحقيقية فى غزو مصر عن طريق القناة. وقد اتضح ذلك بعد أن صدرت الأوامر للقوات الإنجليزية فى ٢٠ أغسطس ١٨٨٢ باحتلال بورسعيد والإسماعيلية، ولم يكن فى بورسعيد حينئذ إلا ٢٤٩ جنديا فر منهم ١٧٤ وتم أسر ٧٥ جنديا، على الفور أغلق الجيش الإنجليزى القناة أمام السفن التجارية.

ثم احتلت السفن الإنجليزية مدينة القنطرة، ثم وصلت إلى الإسماعيلية واحتلتها أيضاً فى ٢٠ أغسطس ١٨٨٢.

ومن سوء الطالع أو من سوء التخطيط أن عرابى كان قد سحب فى يوم ٧ أغسطس ١٨٨٢ الحامية العسكرية والتى بلغ تعدادها نحو ألفين من فرسان البدو والتي كانت مكلفة بالدفاع عن القناة وتتخذ

من الإسماعيلية مركزاً لها. وذلك بعد أن خدعه دى لسبس بأن الإنجليز لن يخترقوا الاتفاقيات الدولية.

ولذلك لم يكن فى الإسماعيلية عند احتلال الإنجليز لها سوى بعض جنود الشرطة قليلى التسليح، وبعد احتلال الإسماعيلية بأكثر من ثلاثين سفينة تحمل أكثر من تسعة آلاف جندى اتخذها القائد الإنجليزى مقراً لمركز قيادته فى منطقة القناة. ولم يكن ذلك بناء علي الصدف بل كان بناء على خطة وتدبير محكم تعود جذوره إلى سنة ١٨٦٥ عندما كانت إنجلترا تمهد لاحتلال مصر فقد أوفدت إنجلترا فى ٢٨ يونيو ١٨٦٥ قنصلا جديدا لها إلى مصر يدعى (ستانتون) وطلبت منه دراسة منطقة القناة، وقد كتب هذا القنصل تقريراً أكد فيه أن منطقة الإسماعيلية هى أهم مركز استراتيجى فى منطقة القناة.

المهم أن عرابى بعد احتلال الإنجليز للإسماعيلية حاول تدارك الأمر فأرسل محمود فهمى باشا رئيس أركان الجيش المصرى مع كبير المهندسين إلى منطقة القناة لدراسة الموقف واتخاذ التدابير اللازمة لسد القناة وأرسل معهم أربعة آلاف من الفلاحين، ولكن ضيق الوقت حال دون ذلك وقد اعترف الجنرال (ولسلى) فيما بعد بأن عرابى لو كان أفلح فى سد القناة لظل الإنجليز فى البحر يحاصرون مصر!.

مسلسل الخيانة

لم يكن عرابى يحارب الجيش الإنجليزى فقط، ولكنه كان يحارب الخيانة أيضاً. فبعد خيانة الخديو توفيق وخيانة دى لسبس خانه أيضا إسماعيل حمدى محافظ القنال الذى هرب إلى السفن الإنجليزية الراسية فى القناة فاستقبله الإنجليز بحفاوة كما اتفق وكيل المحافظة واسمه على ياور بك مع المستخدمين التابعين له على تسليم المدينة للإنجليز دون مقاومة، ولكن مأمور ملاحات سرابيوم رفض الخيانة وأبرق إلى وكيل الجهادية بذلك، فقرر المجلس العرفى رفت وكيل المحافظة واستدعائه برقيا وتعيين وكيلا جديداً.

وعلى عكس قيادات المحافظة فقد رفض شعب الإسماعيلية أوامر قوات الاحتلال وأمتنعوا عن التعامل مع الإنجليز وامتنع عمال الفحم عن تموين السفن الإنجليزية بالفحم وعن صيانة القناة.

معركة نفيشة

بعد أن اكتمل الجيش الإنجليزى فى الإسماعيلية بدأوا فى استطلاع مواقع العرابيين فتوجهوا إلى نفيشة غربى الإسماعيلية وعلى بعد نحو ٣ كم منها أطلقوا قنابلهم على القرية فى محاولة لاستخلاص ترعة الماء العذب من أيدى العرابيين واستمر الضرب ساعتين فانسحب العرابيون إلى المحسمة على بعد ٢٢ كم من نفيشة، فاحتل الإنجليز نفيشة فى ٢٣ أغسطس ١٨٨٢ ويتمتع هذا

الموقع بأهمية خاصة لأن ترعة الإسماعيلية تتفرع عنده إلى فرعين يذهب أحدهما إلى بورسعيد والآخر إلى السويس.

وفى هذه الأثناء ذهب الفريق راشد حسنى (أبو شنب فضة) فى ٢١ أغسطس ١٨٨٢ ومعه فرقة من المشاة والمدفعية والفرسان إلى تل المسخوطة وبدأ فى إنشاء خطوط دفاع وفى ٢٢ أغسطس انسحبت القوات المصرية من جنيفة إلى المحسمة وسد العرابيون ترعة الإسماعيلية عند (المجفر) فهاجم ولسلى المجفر فى ٢٤ أغسطس واحتلها وتقدم بجيشه إلى تل المسخوطة فقابلهم راشد حسنى واستطاع إيقاف التقدم الإنجليزى وفى ٢٥ أغسطس عاد الجيش الإنجليزى بقوات أكبر إلي تل المسخوطة، فتراجع العرابيون واستولى الإنجليز على تل المسخوطة وتقدموا إلى المحسمة واستولوا عليها فى ٢٥ أغسطس وأسروا محمود فهمي رئيس أركان الجيش المصرى. وتصدعت الجبهة الشرقية فانتقل عرابى من كفر الدوار إلى وادى الطميلات وأقام معسكره في التل الكبير ورحب أهل المدينة بعرابى وتوافد عليه الأعوان من كل مصر وعين على رأس هذه القوات غير النظامية الضابطين على الروبى ومحمود سامى البارودى وتتابع وصول القوات من القاهرة إلي التل الكبير.. وفى نفس الوقت واصل الإنجليز زحفهم إلي الجنوب فاحتلوا القصاصين فى ٢٦ أغسطس ١٨٨٢ دون مقاومة تذكر وأصبحوا على بعد ١٥ كم من

التل الكبير فعقد عرابى مجلس الحرب وتقرر الهجوم على العدو فى القصاصين.

معركة القصاصين الأولى

هاجم المصريون بقيادة الفريق راشد حسنى مواقع الإنجليز فى القصاصين يوم ٢٨ أغسطس واستطاع الجيش المصرى أن يتقدم حتى أصبح على بعد ٥ آلاف متر من الإنجليز وتم حصار الجيش الإنجليزى والتحم الجيشان وتم استخدام السلاح الأبيض فتراجع الإنجليز ولكن سرعان ما جاء المدد الإنجليزى، وفى قلب هذه المعركة جاءت لعرابى خيانة جديدة حيث صدر منشور من الباب العالى يقول: بإرادة سيدنا ومولانا السلطان المعظم أمير المؤمنين خليفتنا الأعظم.. إشعاراً لجميع المسلمين بأن الأفعال التى أجراها عرابى ورفقاؤه فى مصر مخالفة لإرادة الدولة العليا السلطانية ومجحفة لمصالحها ومضرة بمصر ومغايره لصالح المسلمين وبناء على ذلك تقرر أن عرابى وأعوانه عصاة بغاة وبهذه الصفة تجرى معاملتهم).

وقد نزل هذا الخبر كالصاعقة على عرابى وجيشه وانتشر اليأس والتشاؤم والتخاذل بين الجميع.. وقد كان الإنجليز وراء هذا القرار مثلما كانوا وراء قرار الخديو توفيق فى ١٨ أغسطس ١٨٨٢ وذلك لكسر شوكة العرابيين وقد نجحت المؤامرة وظهر أنصار الخديو فى جيش عرابى يدعون الضباط والأعيان والأعراب إلي ترك عرابى

والجيش وراحوا يرشدون الإنجليز إلى أقرب السبل للوصل إلى القاهرة. وكان محمد سلطان باشا رئيس مجلس النواب صاحب الدور الأكبر فى هذا المجال فبعد معركة القصاصين الأولى أرسل الخديو فى ٢٨ أغسطس وفداً من سلطان باشا وعمر لطفى وعثمان رأفت وغيرهم وذلك لمساعدة الجيش الإنجليزى وطلب ولسلى إلي الوفد الاتصال بمشايخ العربان لإبعادهم عن عرابى وضمهم إلى الجيش الإنجليزى وأبدى القائد الإنجليزى استعداده لتقديم أى دعم مادى مقابل ذلك. ونجح سلطان باشا فى استمالة سعود الطحاوى ومحمد صالح الحوت من مشايخ العربان ومعهم محمد البقلى. وقد فطن عرابى إلى خطة الخديو فى نشر الدسائس والفتن وإحباط الروح المعنوية وبث الفرقة، لذلك قرر عرابى مراقبة البريد فى السويس وبورسعيد والإسماعيلية. وفى ٨ سبتمبر ١٨٨٢ عقد عرابى مجلس الحرب وتقرر مواجهة الإنجليز مرة أخرى فى القصاصين.

معركة القصاصين الثانية

فى صباح ٩ سبتمبر ١٨٨٢ هجم المصريون بقيادة راشد حسنى على مواقع الإنجليز فى القصاصين فى محاولة ثانية لاستردادها، وكان الهجوم بكل أسلحة الجيش ولكن الخيانة كان لها الرأى الأكبر فى المعركة من على بك يوسف خنفس، كما كان سعود الطحاوى يقدم إلى عرابى معلومات مغلوطة عن تحركات الإنجليز، وبدأت

المعركة وثبت الجيش المصرى وجرح القائدان راشد حسنى وعلى فهمى واستشهد ٣٠٠ شهيداً وجرح ٤٥ من الإنجليز وأسر الإنجليز ١٧ من جرحى المصريين، وتم قتل عدد من جنود الإنجليز، ولكن الجيش الإنجليزى استطاع هزيمة العرابيين مما جعل اليأس يتسرب إلى صفوف المصريين وحاول عرابى إعادة ترتيب قواته فى محاولة لمنع تقدم الإنجليز.

معركة التل الكبير

كان جيش عرابى فى التل الكبيد نحو ٢٥ ألف جندى معهم ٦٠ مدفعاً وكان الجيش الإنجليزى الذي زحف إلي التل الكبير نحو ١٣ ألف جندى معهم ٦٠ مدفعا ووضع ولسلى خطته في الهجوم من الجهة الشمالية على أن يكون الهجنوم ليلا وذلك لضعف عملية الاستطلاع فى جيش عرابى وبدأ الجيش الإنجليزى فى التحرك مساء ١٢ سبتمبر وأطفئوا الأنوار أثناء الزحف وكان المؤسف أن أدلة الجيش الإنجليزى كانوا من ضباط الجيش المصري (خيانة أخرى) وقطع الإنجليز ١٥ كم من من القصاصين إلى التل الكبير دون أن يقابلهم أى جندى من الجيش المصرى وعند فجر ١٣ سبتمبر بدأ الإنجليز فى إطلاق النار فى الوقت الذي كان فيه الجنود المصريون مازالوا نائمين وأقتحم الإنجليز الاستحكامات الرئيسية لجيش عرابى ورغم ذلك استبسل آلاى المشاه بقيادة أحمد بك فرج،

وكذلك الآلايين السودانيين بقيادة محمد بك عبيد واستبسل الجميع في القتال فاستشهد الكثيرون يتقدمهم محمد عبيد واستبسلت قوات المدفعية بقيادة حسن أفندى رضوان والغريب أن عدد الجنود الذين اشتركوا فى المعركة لم يزد عن ثلاثة آلاف جندى بينما فر الباقون بعد أن ألقوا أسلحتهم، ولم تستمر المعركة أكثر من عشرين دقيقة خسر فيها الإنجليز ٥٧ قتيلا، ٤٠٢ جريحا بينما خسر المصريون نحو ألفين من القتلى، ونحو ألفى أسير وغنم الإنجليز أسلحة الجيش المصرى، وكان عرابى يصلى الفجر عندما بدأت المعركة وكان معه حوالى ألفين من المتطوعين فأمرهم بالاشتراك فى المعركة ولكنهم رفضوا و فروا وحاول عرابى منع فرار الجنود، ولكن بلا جدوى فتراجع إلى بلبيس في محاولة لمنع العدو من الوصول إلى القاهرة وقابل على الروبى وانضم إليهما عبد الله النديم وذهب الثلاثة إلى القاهرة ووصلوا إلى العباسية فى ١٥ سبتمبر ١٨٨٢ ومنها إلى القلعة حيث استسلمت حاميتها ثم استولى الإنجليز على ثكنة قصر النيل. ثم سلم عرابى سيفه إلى الإنجليز. وفى ٢٥ سبتمبر وصل الخديو توفيق من الإسكندرية إلي القاهرة بصحبة الإنجليز ليصبح ذلك إيذانا ببداية عصر الاحتلال الإنجليزى لمصر الذى استمر لمدة سبعين عاماً كاملة.

الإسماعيلية من الاحتلال الإنجليزى
إلى الحرب العالمية الثانية..!

بعد أن أصبح الاحتلال الإنجليزى لمصر أمراً واقعاً بدأت المتاعب الحقيقية لشركة قناة السويس فقد اضطربت الملاحة فى القناة وفقدت الشركة هيبتها بعد أن كانت دولة داخل الدولة.

والغريب أن الحكومة البريطانية دفعت لشركة القناة ٩٥ ألف جنيه إسترلينى بصفة رسوم عن مرور ١٥٥ سفينة حربية وناقلة جنود تابعة للأسطول البريطانى وعن مرور أكثر من ٣٧ ألف جنديا بريطانيا بين ١٦ يوليو، ٣١ أغسطس ١٨٨٢ ورفضت بريطانيا دفع أى رسوم عن رسو سفنها فى بحيرة التمساح بحجة أن البحيرة من عمل الطبيعة. وقد اتخذت القوات البريطانية من الإسماعيلية مركزاً ومقراً لقيادتها العسكرية فى مدن القناة كما أصبحت المدينة المكان المفضل لإقامتهم لتميز موقعها وحسن مناخها.

وقد عملت إنجلترا بعد احتلال مصر على تقويض دعائم الشركة والسيطرة عليها كما فكرت فى إنشاء قناة أخرى وإزاء كل هذا هبطت أسهم قناة السويس فى ٣ يناير ١٨٨٣ بنسبة ١٨,٥٪ عما

كانت عليه فى ١٨ سبتمبر ١٨٨٢. وقد اقترح اللورد (راندال) فى ٢٤ يناير ١٨٨٣ فتح قناة موازية فى سيناء من بحيرة سيرابيوم إلي البحيرات المُرة وسلطت إنجلترا نفوذها على قسم الملاحة بالشركة فعينت به بعض رجال البحرية البريطانية وبدأت تتعامل مع القناة كما لو كانت جزء من بريطانيا وليست جزء من مصر.

وتسرب القلق إلى الدول الأوربية وخاصة فرنسا التي رأت أن الاحتلال الإنجليزى لمصر قد أخل بالتوازن الدولى فى الحوض الشرقى للبحر المتوسط، وتحولت القناة إلى وسيلة أساسية للمواصلات بين أجزاء الإمبراطورية البريطانية مما جعل فرنسا تدعو إلى عقد مؤتمر فى باريس للنظر فى الوضع الدولى لقناة السويس وعقد المؤتمر فى ٣٠ مارس ١٨٨٤ وحضره فرنسا – إنجلترا – روسيا – تركيا – المانيا – هولندا – النمسا. واتفقوا على تدويل قناة السويس. وفى ٢٩ أكتوبر سنة ١٨٨٢ وقع ممثلو الدول الأوربية فى القسطنطينية إتفاقية عرفت بإتفاقية القسطنطينية، وقد اشتلمت على سبع عشرة مادة نصت المادة الأولى على حرية الملاحة فى القناة سواء فى الحرب أو السلم لكل الدول دون تمييز ونصت المادة الثانية على عدم المساس بسلامة ترعة الإسماعيلية والزمت المادة الثالثة الدول المتعاقدة على ضرورة احترام كل ما يتعلق بالقناة وبالترعة وحرمت المادة الرابعة على هذه الدول مباشرة أى حق حربى فى

القناة كما حرمت المادة الخامسة إبقاء أى سفن حربية داخل القناة وأكدت بقية مواد الاتفاقية على احترام نظام المرور فى القناة أى أن الاتفاقية أكدت على (حياد) القناة وضمان حرية الملاحة فى القناة طوال الوقت. وقد تحفظت إنجلترا على هذه الاتفاقية وأباحت لنفسها التحلل منها إذا ما أثرت على سلطانها ونفوذها في مصر، أى جعلت لنفسها الكلمة الأولى على هذه القناة وظلت إنجلترا متمسكة بهذا التحفظ حتى سنة ١٩٠٤ عندما وقعت مع فرنسا الإتفاق الودى الذى يترك مصر لإنجلترا ويترك مراكش لفرنسا وبذلك أكدت إنجلترا مركزها فى مصر وتنازلت عن تحفظها الخاص بإتفاقية القسطنطينية.

فى عام ١٨٨٩ تضاعفت حركة الملاحة فى القناة عما كانت عليه عام ١٨٨١ وتضاعفت مرة أخرى في عام ١٩١١ وكانت البضائع الإنجليزية تمثل ٧٨,٦ من مجموع البضائع المارة فى القناة، ولذلك طلبت إنجلترا مد الامتياز الممنوح لشركة القناة إلى ٣١ ديسمبر سنة ٢٠٠٨ أى مدة أربعين سنة بعد مدته التي تنتهي فى ١٧ نوفمبر ١٩٦٨ وأكد هذا الاقتراح على أنه خلال المدة الجديدة يقسم صافى الربح بين الحكومة المصرية والشركة وأن تدفع الشركة إلى الحكومة المصرية ٤ ملايين جنيه على أربعة أقساط تبتدئ من ١٩١٠ وتنتهى ١٩١٣، وتتنازل مصر من أجل ذلك عن ١٥٪ من أرباحها أبتداء من

الأجل الجديد. وقد كان فى عزم وزارة بطرس غالى باشا تنفيذ هذا المشروع على وجه السرعة لكن محمد فريد زعيم الحزب الوطنى تمكن من الحصول على نسخة المشروع فى أكتوبر ١٩٠٩ ونشرها فى جريدة اللواء وتساءل كيف لحكومة مصر أن تمد هذا الامتياز رغم علمها أن القناة هي التي أضاعت استقلال مصر. وأرسل محمد فريد إلي الخديو والى رئيس مجلس النظار ورئيس الجمعية العمومية محتجاً على المشروع واضطرت الحكومة تحت هذا الضغط إلى إحالة المشروع إلي الجمعية العمومية وفى ٩ فبراير ١٩١٠ حضر الخديو عباس جلسة الجمعية العمومية التى شكلت لجنة من ١٥ عضواً وقد رفضت هذه اللجنة هذا المشروع مؤكدة أنه مشروع لا يقبله الجيل الحاضر ولا يمكن تحمل مسؤليته أمام الأجيال المستقبلة. وقد وافقت الجمعية العمومية على قرار هذه اللجنة. وقد أدى هذا المشروع إلى اندفاع الشاب المصرى إبراهيم الوردانى الذى قام فى ٢٠ فبراير ١٩٠١ باغتيال بطرس غالى وأكدت التحقيقات أنه قتله لأنه خان مصر فى مشروع مد الامتياز. وقد اعتبر المصريون رفض هذا المشروع أعظم نصر قومى وشعبى منذ انتكست مصر سنة ١٨٨٢ .

القناة فى الحرب العالمية الأولى

عندما إندلعت الحرب العالمية الأولى حشدت بريطانية قواتها فى منطقة القناة خشية أن تتعرض لهجوم من أعدائها، كما وضعت

شركة القناة نفسها تحت تصرف بريطانيا وأصبح للقوات البريطانية حق التصرف فى كل منشآت الشركة بل أكثر من هذا قررت الشركة إعفاء كل السفن البريطانية والقائمة بالدفاع فى منطقة القناة من رسوم المرور. وتولت السلطات البريطانية تفتيش السفن قبل دخولها القناة وتولت إنجلترا حراسة القناة من بورسعيد إلى السويس. وقد تعرضت القناة ليلتى ٢ . ٣ فبراير سنة ١٩١٥ لهجوم برى من جانب القوات التركية تحت قيادة ألمانية حيث تجمعت هذه القوة عند بير سبع ثم اتجهت إلى الإسماعيلية بينما وجهت قوة إلى القنطرة بقصد التمويه عن خطة الهجوم ولكن القوات البريطانية والمصرية صدت الهجوم وتلا ذلك أن تقرر تعطيل الملاحه بالقناة ليلا وتحتم على كل سفينة تبغى عبور القناة أن تحصل على تصريح من السلطات العسكرية. ومن ذلك يتضح أن إنجلترا وحلفائها وكذلك أعدائها قد خالفوا جميعاً بنود إتفاقية القسطنطينية سنة ١٨٨٨ والتى أكدت على حياد القناة.

الإسماعيلية فى الحرب العالمية الأولى

١٩١٤ - ١٩١٨

نشبت الحرب العالمية الأولى فى يوليه/ أغسطس سنة ١٩١٤ وذلك بعد مقتل الأرشيدوق فرانسوا فريناند ولى عهد العرش الأمبراطورى النمساوى يوم ٢٨ يونيه ١٩١٤ على يد أحد الصربيين

أثناء زيارة رسمية فى (سراييفو) عاصمة البوسنة. فأعلنت النمسا الحرب على الصرب فى ٢٨ يوليه ١٩١٤ وهبت روسيا لنجدة الصرب وأعلنت الحرب على النمسا وتدخلت ألمانيا إلى جوار النمسا وأعلنت الحرب على روسيا فى أول أغسطس ثم إنضمت فرنسا إلى روسيا فأعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا فى أغسطس ١٩١٤ ثم دخلت بريطانيا الحرب إلى جوار فرنسا فى ٤ أغسطس وأصبحت الحرب عالمية بإنضمام معظم الدول إليها .

وكان وضع مصر السياسى محدداً بمعاهدة لندن المبرمه فى ١٨٤٠ والتى تعترف بإستقلال مصر وضمان عرشها فى أسرة محمد على مع الإعتراف أيضاً بسيطرة الدولة العثمانية على مصر تلك السيطرة التى أصبحت إسميه بعد الإحتلال الإنجليزى لمصر فى ١٨٨٢ ..

وتعتبر الحرب العالمية الأولى بداية مرحلة جديدة فى السياسة البريطانية تجاه مصر حيث ضغطت إنجلترا لمنع مصر من إعلان حيادها فى هذه الحرب وحولت مصر إلى مستعمرة إنجليزية ووزعت جنودها لمراقبة حدود مصر. ورغم ذلك أعلنت مصر حيادها إلا أن ضغوط إنجلترا جعلت رشدى باشا رئيس الوزارة يوقع قراراً فى ٥ أغسطس ١٩١٤ بمنع التعامل مع ألمانيا ورعاياها .

وبعد إقحام مصر فى الحرب ودخول تركيا الحرب ضد إنجلترا

وحلفائها فى ٥ نوفمبر ١٩١٤ قررت بريطانيا إعلان الحماية على مصر فى ١٨ ديسمبر ١٩١٤. وعينت إنجلترا (مكسويل) قائداً عاما لقواتها فى مصر وقسمت ودفاعات قناة السويس إلى ثلاثة دفاعات هى الشط والكوبرى وجنيفة والثانى الدفرسوار وسيرابيوم بالإسماعيلية والثالث القنطرة وملاحات بور سعيد. وتحولت الإسماعيلية إلى قاعدة حربية إنجليزية وتم تقييد حركة السكان وإخضاعهم لرقابة عسكرية صارمة وشهدت المدينة طوفانا من جنود الإمبراطورية من كل ملة ولون وجنس. وقد لعبت الإسماعيلية دوراً هاماً فى الدفاع عن مصر وصد الهجوم التركى سنة ١٩١٥ فقد دافع الإنجليز عن مصر من على خط قناة السويس لضمان خط دفاع طبيعى وتم حشد ٢٢ ألف جندى مصرى وسودانى إضافة ألى ٧٠ الف من القوات البريطانية والهندية والأسترالية والينوزلندية. وذلك للدفاع عن قناة السويس. وتحولت الإسماعيلية إلى مسرح للكثير من المعارك الحربية بين القوات المصرية والبريطانية ضد القوات التركية ففى ١٥ يناير ١٩١٥ عزز الأتراك قواتهم فى سيناء وفى ليله ٢/٣ فبراير ١٩١٥ بدأ الأتراك هجومهم الرئيسى بين بحيرة التمساح والبحيرات المرة ضد دفاعات القناة الوسطى وعندما بدأ الأتراك يمدون الجسر فوق القناة الذى كان منصوبا على زوارق من الالومنيوم للعبور عليه وأثناء عبورهم فاجأهم الملازم أول أحمد

حامى بنيران مدفعيته فهزمهم وأحبط محاولتهم ولكن أحد حلمى إستشهد فى هذه المعركة ومعه الملازم فريد حلمى وشهد القائد البريطانى بتفوق المصريين وقدم الشكر للسلطان حسين كامل. وفى مساء ٢ فبراير إنسحب الجيش التركى تاركا قوة صغيرة تبلغ ٤٠٠ جندى وفى يوم ٢٨ ابريل هاجمت القوات المصرية مؤخرة القوات التركية التى سارعت بالإنسحاب بأقل الخسائر الممكنه.

وبعيداً عن الحرب ساهمت الإسماعيلية فى تكوين فيالق العمال والفلاحين والجمال لخدمة المجهود الحربى للقوات البريطانية فى الأعمال التى يقوم بها الجنود مثل تعبيد الطرق ومد السكك الحديدية وحفر الأبار والخنادق ومد أنابيب المياه وإقامة الإستحكامات ونقل معدات التليفون والتلغراف والمهمات والذخائر والتموين وقامت انجلترا بتأليف فيلقين الأول للعمال للقيام بالأعمال اليدوية والثانى للجمال لنقل المهمات وتم جمع العمال والفلاحين بالإكراه حيث بلغ عددهم ١٧٠ ألف من كل مصر وكان الناس يساقون مكرهين إلى مركز التوزيع بالإسماعيلية ثم منها إلى ميادين الحروب. وقد إستفادت الإسماعيلية من كونها مركزاً للمتطوعين من العمال والفلاحين فى تعمير وتشييد مرافقها فمنذ أواخر ١٩١٥ بدىء فى إستخدام العمال المصريين لمضاعفة الخط الحديدى الممتد من الزقازيق للإسماعيلية لتسهيل نقل القوات والعتاد الحربى

للإسماعيلية ومنطقة القناة كما تم تعبيد الطرق ومد انابيب المياه وبناء الخزانات وأيضاً مخازن العتاد والتموين .

وكما جمعت السلطة البريطانية الرجال بالإكراه فإنها لم تبق على جمل أو حمار أو حصان إلا واستولت عليه لصالحها وبالإكراه أيضاً. وقامت السلطة البريطانية بمساعدة الحكومة المصرية بتحويل عدة مبانى بالإسماعيلية والقنطرة لتكون مستشفيات لإستقبال جرحى قوات الإمبراطورية البريطانية .

ومع بداية الحرب قررت شركة قناة السويس تحصيل رسوم المرور بمعرفة مكتبها فى لندن تحت إشراف الحكومة البريطانية. كما وضعت موظفيها ومكاتبها وآلاتها ومهماتها فى مصر تحت تصرف السلطة البريطانية .

جاذبية الهجرة

تعتبر محافظة الإسماعيلية من أكثر المحافظات المصرية جذباً للهجرة الداخلية مما جعلها تضم عدداً من القطاعات الإجتماعية التى يحتفظ كل منها بنمط ثقافى يختلف بشكل أو بآخر عن غيره ولذلك يمكن التمييز بين قطاع النوبيين وقطاع الصعايدة وقطاع منها جرى الوجة البحرى ثم القطاع الحضرى والقطاع الريفي. واكثر المحافظات إرسالا للمهاجرين إلى الإسماعيلية هى الشرقية ومحافظات الصعيد. وقد تكون سكان الإسماعيلية من ثلاث فئات

جيش الإحتلال البريطانى وشركة قناة السويس ثم المصريين وقد توالت المرافق والمنشآت التى أقامتها شركة القناة فى الإسماعيلية من الأسواق إلى الأندية فقد أنشأت الشركة نادياً بحريا للعاملين فيها فقط وكان رد الفعل الوطنى إزاء ذلك ظهور الدعوة إلى إنشاء نادى بحرى على ضفاف بحيرة التمساح أقامته الجمعية التعاونية المنزلية بالإسماعيلية .

وقد عملت السياسة البريطانية على إجهاض التعليم وحصره فى فئه معينة كما عملت على تقديم مرتبات كبيرة لكل من يعمل لديها مما هدد بغلق المدرسة الإبتدائية بالإسماعيلية بعد أن أصبح العمل لدى الإنجليز يمثل أكبر طموحات الناس .

وبعد أن كانت الشركة تستبعد الموظفين المصريين عقدت إتفاقا مع الحكومة المصرية فى عام ١٩٣٦ تعمل بموجبه الشركة على تعبيش ربع موظفيها من الشباب المصريين ثم رفعت النسبة إلى الثلث فى إتفاق آخر عام ١٩٣٧ . ورغم هذا لم تتحسن أوضاع الموظفين المصريين وظلت الشركة تفرق بينهم وبين الأجانب. ولم تستطع الشركة فصل العمال المصريين عن أحداث الوطن حيث كان للعمال المصريين العاملين فى شركة قناة السويس دور إيجابى فى ثورة ١٩١٩ فقد أضرب العمال من المهنيين والميكانيكية فى بورسعيد وإمتد الإضراب ليشمل العمال المماثلين فى السويس والإسماعيلية .

أثر معاهدة ١٩٣٦ على مدينة الإسماعيلية

قامت إيطاليا بغزو الحبشة فى اكتوبر ١٩٣٥ وقد حاولت إيطاليا السيطرة على البحر المتوسط ولم يكن ذلك ليتم إلا بسيطرتها على قناة السويس كما أن الإسماعيلية وباقى منطقة القناة كانت واقعة فى الطريق إلى مستعمرات إيطاليا فى أريتريا والصومال ولذلك خشيت بريطانيا من إقدام إيطاليا على إحتلال قناة السويس التى صارت شريانا حيويا لها أثناء حربها مع الحبشة.. ومما ساهم فى قلق بريطانيا أيضاً أن ايطاليا لم تقتصر مساعدتها على تنمية نفوذها فى أثيوبيا بل طلبت أن يعمل لمركزها فى قناة السويس حساب آخر مما جعل مركز الأسطول البريطانى فى القناة فى خطر شديد إذا قامت حرب بينها وبين إيطاليا. وكانت ايطاليا تطالب بنصيب فى إدارة القناة نكاية فى فرنسا. وتم عرض العدوان الإيطالى على الحبشة أمام عصبة الأمم التى أدانت العدوان وأقترحت بعض الدول اغلاق قناة السويس أمام السفن الإيطالية الحربية ولكن بريطانيا عارضت ذلك وقد أدى التواجد الإيطالى فى ليبيا وفي الحبشة إلى قيام بريطانيا بإضافة تعزيزات بحرية وجوية وبرية إلى قوتها فى مصر وتم ذلك فى عام ١٩٣٥ .

وسعت إنجلترا إلى محاولة إنهاء إحتلالها لمصر ولو بصورة نظرية وأن تكتفى بقاعدة عسكرية فى منطقة الإسماعيلية وباقى

منطقة القناة .

وقد تمكن زعماء الأحزاب المصرية من تأليف جبهة برئاسة حكومة وفدية يرأسها مصطفى النحاس وتم التفاوض مع بريطانيا تحت التهديد الإيطالى لمصر وتم تكوين الوفدين المصرى والبريطانى وتم توقيع المعاهدة المصرية البريطانية فى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ .

ونصت المعاهدة على إنتهاء الإحتلال البريطانى لمصر وأن يكفل الجيش المصرى حرية الملاحة فى القناة على أن تتعاون القوات البريطانية التى تركزت فى منطقة القناة فى تأمين الملاحة بالقناة وتم تحديد مدة المعاهدة بعشرين سنة . ونصت المعاهدة على أن ينقل الجانب البريطانى من شتى أنحاء مصر إلى منطقة القناة وفى المقابل تقوم الحكومة المصرية ببناء المنشآت لهذه القوات وتقديم المستلزمات الفنية بما فيها توصيل الماء وتوفيره وأن تكون هذه المنشآت مطابقة لأحدث النظم، وتم تقدير تكاليف بناء الثكنات بخمسة ملايين من الجنيهات تدفع مصر ثلاثة أرباعها وتساهم إنجلترا بمقدار الربع وكانت ميزانية مصر فى ذلك الوقت ٣٥ مليون جنيه ولذلك ثار النقاش حول ضخامة تكاليف بناء الثكنات خاصة بعد أن اتضح أن التكاليف الفعلية ستصل إلى ١٢ مليون جنيه بعد إلتزام مصر بإصلاح طرق السكك الحديدية بين الإسماعيلية والمدن الاخرى. وقد نصت ملاحق المادة الثانية من المعاهدة على ألا تزيد

القوات البريطانية بمنطقة القناة عن عشرة آلاف من القوات البرية وأربعمائة طيار بخلاف العدد الضرورى من العمال والكتبة والمستخدمين والملحقين للقيام بالإدارة وتم تحديد مهام هذه القوات فيما يلى :

- الدفاع عن القناة .

- معاونة الجيش المصرى فى الدفاع عن القناة .

- هذا التعاون مع الجيش المصرى لا يخل بحقوق السيادة المصرية ونصت المعاهدة أيضا على تحالف الطرفين ضد أي طرف ثالث يدخل حرباً ضد أى طرف منهما وقد صمم الجانب البريطانى على أن تتجدد المعاهدة بشكل آلى بما يضمن له الوجود الأبدى فى مصر وقد إستفادت إنجلترا من المعاهده بأن أصبح لها قاعدة حربية فى منطقة الإسماعيلية كما أنها ربطت مصر بمحالفة عسكرية رغم مخالفة نصوص معاهدة ٣٦ لبنود معاهدة ١٨٨٨ التى نصت على أن مصر وحدها تملك حق الدفاع عن القناة .

وقد أصبحت كل أراضى الإسماعيلية بموجب معاهدة ٣٦ تحت سيطرة الإنجليز وأصبحت المعاهدة تمثل أساساً قانونيا وشرعياً أرتكز عليه الإنجليز فى وجودهم بالإسماعيلية بعد أن كانوا منذ بداية الإحتلال قوة إستعمارية .

وقد دافع حزب الوفد وأنصاره عن المعاهدة التى وقعوها مع

الإنجليز رغم أن المعاهدة لم تنهى الأحتلال ولم تحصل لمصر على الإستقلال .

وبعد عام واحد من معاهدة ٣٦ وقعت الحكومة المصرية إتفاقاًجديداً ،مع شركة القناة فى سنة ٣٧ رفعت فيه الشركة المبلغ الذى تدفعة لمصر سنوياً من ٢٠٠ ألف جنية سنوياً إلى ٣٠٠ ألف جنية كما تم رفع نسبة الموظفين المصريين من ٢٥٪ إلى ٣٢٪ وإستطاع هذا الإتفاق أن يهدىء الأوضاع إلى حد ما.

وبعد أن اقيلت وزارة الوفد فى نهاية ١٩٣٧ تشكلت وزارة أخرى برئاسة محمد محمود زعيم الاحرار الدستوريين وحدث خلاف جوهرى بين الوزارة الجديدة والحكومة البريطانية حول كيفية بناء ثكنات الجيش البريطانى فى منطقة الإسماعيلية وخط القناة. وقد تلكأت القوات البريطانية فى ترك ثكناتها القديمة لأن الحكومة المصرية لم تبن الثكنات الجديدة. وعندما إندلعت الحرب العالمية الثانية كانت القوات البريطانية فى ثكناتها القديمة .

وحاول رئيس الوزراء التفاوض حول بند بناء الثكنات والإكتفاء بدفع ٥ ملاين جنية للحكومة البريطانية وبعد مفاوضات طويلة وافقت بريطانيا على أن تدفع نصف تكاليف بناء الثكنات بدلاً من الربع باستثناء وسائل المواصلات ومنشآت السكك الحديدية والخدمات الصحية وقدرت التكاليف بأثنى عشرة مليون جنية تدفع إنجلترا منها

٦ ملايين مع تعهد الحكومة المصرية بتقديم الأراضى والمعدات ومياه الشرب. وكانت بريطانيا تعمل على ألا تتمكن مصر من بناء الثكنات حتى تبقى جنودها منتشرة فى كل مصر .

وعندما إستولت ألمانيا على تشيكو سلوفاكيا فى مارس ١٩٣٩ وبانت نذر الحرب العالمية الثانية طلب الجانب البريطانى من حكومة محمد محمود باشا تأجيل بناء الثكنات لأن وجود القوات البريطانية فى مكان واحد يحمل كل الخطر على هذه القوات حيث تصبح هدفا سهلا للغارات الجوية ووافقت الحكومة المصرية على وجهة النظر البريطانية بحجة أن ذلك سيوفر على الدولة أموالاً وفيرة .

الحرب العالمية الثانية

كان على ماهر يرأس الوزارة المصرية عند إندلاع الحرب العالمية الثانية فأصدر قراراً بفرض الأحكام العرفية وحالة الطوارئ وأمر بإعتقال الرعايا الألمان فيما عدا النساء والأطفال تمهيداً لترحيلهم إلى بلادهم وفرض الرقابة على البريد والمواصلات اللاسلكية وفرض الرقابة على المواصلات بين الإسماعيلية وباقى القطر المصرى .

وفى ٣ سبتمر ١٩٣٩ أصدرت الحكومة المصرية الأمر العسكرى رقم ٤ والذى يقضى بإنشاء نظام لتفتيش البواخر لضمان سلامة القناة وفى نفس اليوم صدر الأمر العسكرى رقم ٥ بإعتبار الإسماعيلية منطقة خاصة وأن يكون أحمد محمود عزمى حاكما

عسكريا لمحافظة القنال بإعتبارها منطقة عسكرية.

وسمح على ماهر لبريطانيا أن تراقب بإسم مصر التجارة المارة في القناة. وأصبحت الإسماعيلية المركز الرئيس لكل جيوش الحلفاء وقام الجيش لمصرى بحراسة مرافق القناة وخطوط المواصلات ومراقبة الطائرات المغيرة .

وبعد بداية الحرب أنشأ الجيش البريطانى طريق الإسماعيلية - فلسطين بطول ٢٢٣ كم بتكلفة وصلت إلى ١٦٨ الف جنيه. وقد ظلت السفن التابعة للحلفاء تمر فى قناة السويس دون عائق حتى دخلت إيطاليا الحرب فى ١٠ يونية ١٩٤٠ فحاولت مع المانيا إتلاف القناة وتعطيل الملاحة بها فلجأت السفن البريطانية إلى طريق رأس الرجاء الصالح. وعندما سقطت باريس في يد الالمان أشرف الإنجليز على إدارة القناة .

وكان الألمان يعلقون أهمية كبيرة بالنسبة للسيطرة على القناة حيث كان هتلر يرى أنه من الضرورى قطع خطوط المواصلات البريطانية مع الشرق وتحطيم دفاعاتها فى هذه المنطقة. وكان يرى أنه إذا ما سيطر على القناة أمكنه الوصول إلى القوقاز ومنابع البترول الروسية في باكو. وأجتمع هتلر مع موسولينى فى ٢٨ اكتوبر ١٩٤٠ وإتفقا على أهمية السيطرة على القناة. وحتى قبل هذا اللقاء كانت إيطاليا تخطط لكى ترث بريطانيا في وضعها السياسى

والعسكرى والقانونى فى مصر وحل شركة قناة السويس وإنشاء نظام خاص للإدارة فى منطقة القناة ومع بداية عام ١٩٤١ بدأت الطائرات الالمانية تشترك مع القوات الجوية الإيطالية فى ضرب منطقة القناة والقاء الإلغام عليها ففى ليلة ٣٠ - ٣١ يناير ١٩٤١ القيت الإلغام بالبراشوت حيث إنفجر إحداها فى سفينة حربية بريطانية عند الشلوفة. وبعد ذلك بعشرة أيام إنفجر لغم أخر فى منطقة القناة فى سفينة يونانية وأستمرت القوات الالمانية فى ضرب قناة السويس من الجو بعد ذلك فقد حدثت غارة جوية ليلة ٤ مارس ١٩٤١ على منطقة القناة والقيت بضع قنابل لم ينتج عنها خسائر، وأذاعت حكمدارية القناة بيانا لفتت فيه أنظار الجمهور إلى أنه ستضاء اثناء حدوث الغارات الجوية مصابيح عليها حرف D وكلمة خطر وذلك فى محطات شركة القناة القائمة بين بورسعيد والقنطرة .

وقد أصدر وزير الداخلية المصرى تعليماته بأن الإسماعيلية من المدن التى يجب أن تتخذ فيها تدابير الوقاية وإنشاء المخابىء كما أصدر الحاكم العسكرى لمنطقة القناة فى الإسماعيلية قراراً نص على أن الأطباء الموجودين فى الإسماعيلية يجب عليهم تقديم الإسعافات الطبية على أكمل وجه.

وفى صباح يوم ١٣ يوليو ١٩٤١ حدثت غارة جوية على منطقة القناة ألقيت فيها القنابل التى قتلت ستة أشخاص وأصابت أربعة

عشر شخصاً ونتجت عنها خسائر مادية .

ولم تنج الإسماعيلية طوال شهر أغسطس ١٩٤١ من الغارات كل ليلة وفى ذلك الوقت كان الجيش المصرى يقوم بواجبه فى جراسة شواطىء القناة وجمع الألغام التى تسقط دون تفجير وإعدامها .

الإسماعيلية فى حرب فلسطين

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية بدأت الحركة الصهونية تقوى وتدعم العصابات الصهيونية فى عملياتها الإرهابية ضد القوات البريطانية والسكان العرب فى فلسطين ومن أبرز هذه العصابات (شتيرن – الأرجون – زفاى – ليومى – الهاجاناه) وتوالت الأحداث حتى إتخذت الأمم المتحدة فى سنة ١٩٤٧ قراراً بتقسيم فلسطين إلى دولتين عربية ويهودية. وأعلنت بريطانيا أن إنتدابها على فلسطين سينتهى فى ١٥ مايو ١٩٤٨. وقد رفض الجانبان العربى واليهودى قرار التقسيم. ومع بداية عام ١٩٤٨ أحس الفلسطينيون بخطورة موقفهم أمام العصابات اليهودية المسلحة فبدأت اللجنة العليا لإنقاذ فلسطين برئاسة الحاج أمين الحسينى فى تجميع الفلسطينيين وتسليح القادرين بمعونه من الدول العربية. وبدأ البحث عن مصادر للتسليح وإتجهت الأنظار إلى منطقة الإسماعيلية حيث توجد اكبر مخازن للأسلحة البريطانية فى الشرق الأوسط وهى مخازن أبو سلطان وكذلك مخازن (كمب البمب). وبدأت عملية السطو على

مخازن الأسلحة البريطانية تتطور وتأخذ أبعاداً كبيرة خاصة بعد أن بدأ (الأخوان المسلمين) فى تجهيز كتيبة لتساعد عرب فلسطين وكان فيها عناصر من الإسماعيلية مثل الشيخ محمد فرغلى والشيخ يوسف طلعت .

وبدأت الإسماعيلية تشهد نشاطا واسعافى تجارة السلاح وسرقته من المخازن البريطانية وشحنه إلى فلسطين وإشترك فى هذا العمل العديد من أبناء الإسماعيلية .

إتفقت الحكومات العربية فى إطار الجامعة العربية على دخول الجيوش العربية الى فلسطين بعد إنسحاب القوات البريطانية فى ١٥ مايو ١٩٤٨ - ولكن العصابات اليهودية أعلنت قيام دولة إسرائيل فى منتصف ليلة ١٥ مايو ١٩٤٨ وعلى الفور إعترفت الدول الكبرى بهذه الدولة اللقيطة.. ودخلت الجيوش العربية الى فلسطين محملة بالحماس وبعيدة عن التخطيط أو التسليح الحديث وتعرض الجيش المصرى لكثير من المؤامرات وتم حصار جزء من الجيش المصرى فى (الفالوجا) وإندفع طابور مدرع بقيادة الصهيونى (الون) ليعبر الحدود المصرية قاصداً الإسماعيلية. ولم يكن أمام مصر الأسرقة السلاح من المخازن البريطانية وتشكلت لجنة من الصاغ أمين حلمى الثانى والصاغ عبد العظيم ومعهما وجيه أباظة - عبد الحميد صادق - عبد الرحمن عبد العال - محمود التنير - مجدى حسنين - عبد

الهـال الهـوارى وعملت هذه اللجنة على الحصول على الأسلحـة من مخازن الإنجليز ونجحت كثيراً حيث قدمت للجيش المصرى أكثر من الف طن من المعدات والاسلحة والذخائر قيمتها حوالى مليون جنيه، وقد كان لهذه العملية أبطال وضحايا حيث إستشـهد ٢٩ بطلا وجرح ٦٩ وذلك طبقا لمذكرة إدارة المخابرات الحربية بتاريخ ١٩٤٩/٣/٥ .

وإنتهت حرب فلسطين بكارثة قومية بعد تأكيد قيام إسرائيل وتم ضم الضـفـة الغـربيـة للأردن وأصبـح قطاع غـزة تحت رعاية مصـر وخرجت الإسماعيلية فى إستقبال رائع للجيش المصرى العائد من فلسطين وذلك لأن الجـمـاهـيـر أحـست أن هذا الجـيش كـان ضـحـيـة للفساد والمؤامرات .

القرصان الشريف

بعد إنتهاء حرب ١٩٤٨ بدأ الكاتب إحسان عبد القدوس حملتين صحفيتين الأولى للتنديد بالفساد وخاصة ما فيا الأسلحة الفاسدة والثانية للإشادة بما قدمه ابطال الإسماعيلية من تضحيات وأطلق احسان على المحامى عبد الحميد صادق لقب (القرصان الشريف) وأصبح صادق بطلا قوميا وقدوة لكل شباب الإسماعيلية الذى يبحث عن دور وطنى يشارك به للخلاص من الإحتلال الإنجليزى لمصر .

تداعيات الحرب العالمية على القضية المصرية

بعد نهاية الحرب العالمية الثانية فى سنة ١٩٤٥ بدأ المد الثورى

المصرى يتعاظم بقيادة الطلبة الذين فقدوا الثقة فى القيادات السياسية التقليدية. وظهرت فصائل وطنية تؤمن بأن السلاح هو الأداه الوحيدة التى ستحسم الصراع مع الإنجليز وأعوانهم. وبدأت الإغتيالات تجتاح شوارع القاهرة والإسكندرية وسط تأييد شعبى جارف من قطاعات الشعب المختلفة. الأمر الذى فرض على الإنجليز إنسحابا تكتيكيا من الدلتا والقاهرة إلى منطقة القناة فى سنة ١٩٤٦ ووصلت القوات الإنجليزية فى القناة نحو ١٢٠ ألف جندى وأصبحت قاعدة القناة اكبر القواعد الإنجليزية فى الشرق الأوسط كله. وقد إتخذت بريطانيا الخطوات الأتية لتأمين قاعدتها فى القناة ..

– ربط أهالى المنطقة إقتصاديا بالقوات البريطانية سواء بالعمل أو التجارة .

– إقامة علاقات إجتماعية مع قيادات المنطقة فى كل المجالات .

– توثيق الإتصالات مع الأقليات الموجودة فى المنطقة .

– إرهاب المواطنين بالإستعراضات العسكرية الضخمة للقوات البريطانية .

– العمل على فصل منطقة القناة عن باقى مصر تمهيداً لتدويلها.

إلغاء معاهدة ٣٦

مع بداية عام ١٩٥٠ كانت ملامح منطقة القناة تتلخص فى إرتباط إقتصادى وثيق مع القوات البريطانية وإحساس متعاظم

بالقـوة العسكرية البـريطانيـة وضـمـور فى الإحـسـاس الوطنى فى مواجـهة هذه القوة الجبارة مع الإنبهار بالإنجليز فى أسلوب حياتهم وترسخ فى أذهان البعض أن خروج الإنجليز من مصر مستحيل.. ووسط هذا الظلام الدامس الذى أصـاب مـسـيرة الحـركـة الوطنيـة. إشتعلت حركة الطلبة وبدأت الضغط على حكومة الوفد لإلغاء معاهدة ١٩٣٦.. وقـام مـصطفى النحـاس بالغـاء المعـاهدة فى ١٨ أكـتـوبر ١٩٥١ ولم يكن هناك تخطيط أو إعداد لمرحلة ما بعد المعاهدة وتحرك الإنجليز وإحتلوا جمرك بور سعيد ثم كوبرى الفردان الذى كانت تحمية القوات المصرية وبذلك تم عزل القوات المصرية فى سيناء وغزه عن باقى مصر.. وفوجىء الجميع بما أقدم عليه الإنجليز. وتخبطت الحكومـة وأخـذ الشـعب المبـادرة وبدأ طريق الكفـاح المسلح. وفى الإسماعيلية كانت المدرسة الثانوية هى مركز الثقل السياسى فى المدينة حيث تحتوى كل التيارات السياسية فى مصر. وخرجت منها المظاهرات وتكونت مـجـمـوعـة من طلبـة المدرسـة وقـررت بدأ العـمل السرى إضافة إلي تعبئة الجماهير وذلك من خلال الخطوات الآتية ..

- تعبئة الجماهير مع التركيز على الضواحى .
- الحصول على السلاح من أى مصدر
- إقامة قواعد للتخزين والإعاشة خارج المدينة .
- الإتصال بالفصـائل الأخرى للإنصـهـار فى وحدة تنظيمـيـة

واحدة.

وبدأت جماهير الإسماعيلية تتجمع عمال السكك الحديد - عمال مصنع الكو كاكولا - الطلبة - الفدائيون القدامى الذين شاركوا فى حرب فلسطين.. وكان لابد وأن يؤدى هذا التجمع إلى إنفجار كبير .

حركة الفدائيين تنفجر فى القناة ومائة يوم خالدة فى تاريخ الاسماعيلية

حريق النافى ..

خرجت مظاهرات طلبه المدرسة الثانوية فى صباح ١٦ أكتوبر ١٩٥١ وتحركت من العرايشية إلى شارع الثلاثينى حيث إنضم إليهم جموع العمال. لتصبح المظاهرة سيلا بشريا تحرك من خلال شارع السكة الحديد إلى ميدان المحطة حيث توجد مبانى (النافى) البريطانى وهو الذى كان يقوم بخدمة العائلات البريطانية التى تسكن المدينة (سوبر ماركت كبير جداً) كما كان أحد رموز الإحتلال فى المدينة. وهاجمت الجماهير المندفعة مبانى (النافى) وسقط أول شهيد من الجماهير فاندفع المتظاهرون يحطمون مبانى النافى والسيارات الإنجليزية فى الشوارع ثم تحولت إلى مساكن الضباط فى العرايشية وعلى الفور قامت القيادة البريطانية بدفع قوات مسلحة لصد المتظاهرين وتفريقهم وكانت مذبحة بين الجماهير ودبابات القوات البريطانية. وباتت الإسماعيلية ليلتها تحت الحصار

والحكم العسكرى البريطانى وهى تغلى تحت وطأه الإحساس بالقهر والعجز خاصة بعد إنسحاب جنود الشرطة المصريين من المدينة بناء على أوامر الحكومة المصرية .

١٠٠ يوم.. من التضحية والنضال

كان يوم ١٦ أكتوبر ١٩٥١ بداية لمرحلة جديدة فى كفاح الشعب المصرى ضد الإستعمار البريطانى. وإستمرت هذه المرحلة الخالدة مائة يوم لتنتهى بمأساة حريق القاهرة يوم ٢٦ يناير ١٩٥٢ .

وفى مساء يوم ١٦ أكتوبر بعد أن تم حرق النافى وتدمير السيارات الإنجليزية حدث ما كان أغرب من الخيال. فقد تجمع المتظاهرون يحملون علم مصر فى شارع الثلاثين وخاصة أمام قهوة عبد الخالق فى مواجهة المتاريس البريطانية وهم ينشدون الأناشيد البريطانية ويهتفون لمصر. وحاولوا وهم عزل الهجوم على المتاريس وكان بينهم بطل مجهول الإسم حمل علم مصر وتقدم فى جسارة بينما جنود المستعمر يمطرونه بوابل من الرصاص وهو يتقدم ليغرس علم مصر فى أكياس الرمال التى تحمى المتاريس وقد باتت الإسماعيلية هذه الليلة تغلى قهراً وعجزاً بعد أن أصبحت تحت الحكم العسكرى البريطانى. وبدأت فصائل المقاومة تضع خطط الثأر من العدو وعلى الجانب الأخر كان المستعمر ورغم ترسانة الإسلحة التى يحتمون بها يشعرون بالخوف والفزع والترقب خوفا من رد فعل

الجماهير الغاضبة. وقد حاول الإنجليز فى صباح ١٧ أكتوبر أن يمنعوا بالقوة تشييع جنازة الشهداء فتحول موكب الشهداء إلى مظاهرة غضب وحب لمصر وثارت مصر كلها غاضبة لما حدث فى الإسماعيلية فقامت المظاهرات العنيفة فى بورسعيد وتم مهاجمة معسكرات الإنجليز بالمدينة فاشتعلت فيها النيران وسقط فى بورسعيد خمسة شهداء منهم طالب فى الثانية عشر من عمرة هو الشهيد (نبيل منصور) ولعبت الصحافة دوراً رائعا ووطنيا فى نقل أخبار الإسماعيلية إلى كل الوطن وأنفجرت المظاهرات فى كل مصر يقودها طلبة الجامعة فى القاهرة والإسكندرية. وأصبح الكفاح المسلح هو الشعار الذى ترفعه كل القوى الوطنية.

أما فى منطقة القناة فقد بدأ الإنجليز تنفيذ مخططهم بعزل المنطقة عن مصر وإقامة حكم عسكرى بريطانى. فأحكمت القوات البريطانية إحتلالها للإسماعيلية صباح الخميس ١٨ أكتوبر ١٩٥١. فتم فصل المدينة إلى قسمين عند شارع الثلاثينى كما إحتلوا مدرسة البنات الإعدادية (صفية زغلول الأن) وتم تحويل المدرسة إلى مركز القيادة لمقاومة الفدائيين كما إتخذ جزء منها بديلا للتافى لخدمة العائلات التى تسكن المنطقة. وقد تم تعيين (البريجادير إكسهام) قائداً عسكريا لمنطقة الإسماعيلية ونظراً لإستيلاء الإنجليز على كوبرى الفردان وتوقف حركة القطارات بين القاهرة وغزة مما شكل

خطورة كبرى على القوات المصرية الموجودة فى سيناء وقطاع غزه. فقد بدأت مباحثات بين اللواء سعد الدين صبور قائد القوات المصرية بمنطقة القناة والجنرال (ارسكين) القائد العام بمنطقة القناة لاعادة تسيير القطارات إلى غزة بشرط عدم التوقف فى أى من مدن القناة وكذلك اخطار القوات البريطانية بموعد القطارات قبل تسييرها بـ ٢٤ ساعة.

كما أسفرت المباحثات بين إكسهام واللواء أحمد عبد الهادى المدير العام للبوليس المصرى وعلى حلمى وكيل محافظة القناة عن تسليم المواقع التى إحتلتها القوات البريطانية فى شوارع الإسماعيلية ومداخلها بشرط أن تتحمل السلطات المصرية مسؤلية المحافظة على الأمن وسلامة الإنجليز. ورغم هذا إستمر الإنجليز فى حصار المدينة وتفتيش المسافرين. ومنع الصحف من الدخول للمدينة. وفى أول صلاة جمعة بعد الأحداث أرسلت الحكومة مفتش الوعظ فى منطقة القناة ليحث الناس على الهدوء حفاظا على أرواح المواطنين ولكن إستمرار الإعتداءات البريطانية على الأهالى العزل جعل الكثير من سكان الإسماعيلية يهجرون المدينة وتحولت المدينة إلى معسكر مسلح. وقامت الحكومة المصرية بصرف إستمارات سفر مجانية لاهالى الإسماعيلية مما سهل من هجرة السكان خارج المدينة وترك أعمالهم فى معسكرات الإنجليز وقد احتل الإنجليز كل المكاتب

الرسمية والمرافق بالمدينة وأستولوا على منطقة المعدية نمرة ٦ وكذلك معدية السويس وعلى كوبرى الفردان وتم إستشهاد جنديين وجرح خمسة أخرون وتم أيضاً أسر ٢٥ ضابط وجندى. كما تم إحتلال جمرك السويس يوم ٢٠ أكتوبر ١٩٥١. وقبضت القوات الإنجليزية على بعض الموظفين وضباط الجيش والشرطة بدعوى أنهم غير مرغوب فى بقائهم. وبدأت الدوريات الإنجليزية المسلحة تجوب شوارع مدن القناة وتدفقت القوات البريطانية من قبرص وطرابلس وتوقفت المواصلات تقريباً بين منطقة القناة وباقى الوطن مع تفتيش الداخلين والخارجين من مدن القناة وبذلك تم عزل منطقة القناة ولم تفعل الوزارة الوفدية إلا بعض الإعتراضات الشكلية ودفع بعض المئات من جنود بلوكات النظام المصرية إلى منطقة القناة لمساعدة البوليس المحلى على خفظ الأمن .

وعلى الجانب الأخر بدأت القوى الوطنية تأخذ زمام المبادرة من الحكومة التى تخاذلت فراحت الجامعات تقيم تدريبا عسكريا للطلبة وتعطلت الدارسة فى بعض الجامعات وتم إتخاذ قواعد محافظة الشرقية لضرب الإنجليز بعد حصار مدن القناة وكانت أهم النقاط أبو حماد – القرين – العباسة .

أما فى الإسماعيلية فقد سيطر على الناس إحساس بخيبة الأمل فى الحكومة المركزية التى لم تفعل شيئاً ضد صلف المستعمر. فحتى

عساكر بلوكات النظام كانوا فى حالة من القلق لأن تسليحهم بنادق (لى إنفيلد) عتيقة ومع كل منهم عشر طلقات فقط ومع ذلك إستطاع أهل الإسماعيلية توفير كميات ضخمة من الذخيرة لعساكر بلوكات النظام. ومع نهاية أكتوبر ١٩٥١ بدأت تتضح معالم التنظيمات التى تعمل فى منطقة الإسماعيلية فكلها كانت تعمل بصدق وإن إختلفت توجهاتها ورؤاها السياسية وأهم هذه المجموعات هى التى إرتبطت مع مجموعة جامعة الإسكندرية التى تم الإتفاق معها من داخل المدينة. وقد إستطاعت هذه المجموعة إستئجار شقه فى منطقه العرايشية لتخزين المعدات والإعاشة. ثم بدأ تنفيذ الكمائن ضد القوات الإنجليزية التى تتحرك داخل وخارج المدينة. وكان أول هذه الكمائن فى شارع محمد على عند دوران المتحف حيث تم إصطياد أول سيارة جيب إنجليزية وكان التخطيط والتنفيذ على أعلى مستوى. وكانت المجموعة بقيادة المناضل (غريب تومى) وخسر الإنجليز فى هذا الكمين أربعة جنود. وإمتد العمل الوطنى لكشف عملاء الإنجليز وتصفيتهم أو فضحهم وقد قام المناضل (أحمد فهمى عبد القادر) بدور كبير فى هذا المجال.

وفى ٣ نوفمبر ١٩٥١ صدر البلاغ الأول لكتائب التحرير بمدينة الإسماعيلية وكان صدور هذا البيان بمثابة تطور إيجابى يؤكد تحول مرحلة العمل الفدائى الفردى إلى حركة الكفاح المسلح الجماعى وقد

جاء فى هذا البلاغ .

(الأن وقد إتخذت الحركة الوطنية شكلا إيجابيا مسلحا لرد العدوان الغاشم عنك أيها الشعب الإسماعيلى فاننا نوجه إليك هذه التوجيهات للعمل بها. إن واجب الشباب أن يبدأ كفاحا مريرا وأن يثبت أنه جدير بشرف التضحية والفداء. وأننا على يقين بأنه سنمضى للنهاية حتى تتحطم تحت ضرباته قوات الطغيان).

وحدد البلاغ بعد ذلك التعليمات والأوامر الصادره من كتائب التحرير والواجبة التنفيذ من جانب أبناء وقرى الاسماعيلية فيما يلى..

١ - على كل مواطن أن يكافح بإيجابية وأن يقطع أى صله مع المستعمر

٢ - تحديد الخونه والإرشاد عنهم وكشفهم والقضاء عليهم

٣ - مساعدة حركة المقاومة بكل الوسائل والإحتياط لكل الإحتمالات.

٤ - على أصحاب البيوت إخراج عائلات العدو الساكنه لديهم وهذا البلاغ إنذار إلى كل من تثبت خيانته لمساعدته أو صلته بالإنجليز وتوجيه إلى كل الذين يعدون أنفسهم فى الطليعة الأولى لخدمة الوطن. وعلى كل مصرى أن يعتبر نفسه من أفراد حركة المقاومة. لأن العالم يرقب جهادكم بعطف شديد وليكن جهادنا نافعا

وفعالا.

إن الطريق الوحيد للنصر هو طريق التضحية والفداء

والله معنا

كتائب تحرير الإسماعيلية

الاسماعيلية بين السياسة والكفاح المسلح

كانت القوى السياسية موجودة على خريطة الإسماعيلية قبل بداية حركة الكفاح المسلح. وقد تجاوبت هذه القوى السياسية بدرجات مختلفة مع تصاعد المقاومة الشعبية ويمكن رصد هذا التجاوب فيما يلى.

حزب الوفد: مع أن الوفد هو الذى كان يحكم البلاد فى ذلك الوقت إلا أنه كان فى حالة غياب كامل عن الشارع السياسى وفقدت قياداته مصداقيتها وإرتبطت بعض هذه القيادات بمصالح إقتصادية مع قوات الإحتلال ولذلك كان الوفد بعيداً عن مجريات الأمور وغير مؤثر.

– أحزاب الأقلية : هى السعديين والأحرار الدستوريين وهؤلاء لم يكن تأثيرهم يزيد عن بعض وجهاء المدينة لاغير وقد إنسحبوا من الساحة أمام حركة المد الثورى الشعبى.

– الإخوان المسلمين : كانوا أكثر الجماعات السياسية فى الاسماعيلية تنظيماً وترابطا وذلك لخبرتهم القتالية فى حرب فلسطين

ولإرتفاع مستوى تسليحهم وكان لهم أيضا جهاز مخابراتهم الخاصة ومع ذلك كانت ميولهم أن يعملوا متفردين دون التعاون مع أى جهة أخرى وقد إختاروا كامل شريف قائداً لهم فى منطقة القناه و (يوسف طلعت) للإسماعيلية وأختاروا (فاقوس) مقراً للقيادة وقاموا بعدة عمليات ناجحه فى التل الكبير وسقط منهم عدد من الشهداء

تفاصيل خريطة المقاومة بالاسماعيلية

مع بداية شهر نوفمبر ١٩٥١ ظهرت ثلاث مجموعات رئيسية تعمل فى الأسماعيلية إضافة إلى المئات الذين كانوا يعملون بدافع الحماس الوطنى والمجموعات الرئيسية هى ..

– مجموعة العرايشية : وكانت هذه المجموعة تعمل تحت رئاسة (أحمد الباشا) الذى أصبح أسطورة للكفاح الشعبى ومعه مجموعة ممتازة من الشباب منهم محمد مصباح – توفيق الطهطاوى – الشهيد رفعت على بدر – محمد دياب – عبد الحميد عزمى – عبد الله الشامى

– مجموعة المحطة الجديدة : وهى من اكبر المجموعات التى قامت بدور كبير فى حركة الكفاح المسلح وكانت تضم عناصر ممتازة ومتعددة برئاسة المناضل إبراهيم خميس ومعه محمد عصفوره – خالق – فؤاد السنى – حافظ سلام –

– مجموعة ميدان عباس : إمتازت هذه المجموعة بوجود عناصر طلابية ذات وعى سياسى بجانب العناصر الفدائية المدربة. كما أن صلاتها بالمجموعات الأخرى كانت قوية ولم تدخل معها فى إطار التنافس أو التناقض ذلك لأن الحس السياسى الوطنى داخل هذه المجموعة جعلها تسعى إلى إستقطاب اكبر قدر من الشعب إيمانا منها بأن حركة الكفاح الوطنى حركة شعبية فى المقام الأول ولذلك كان لهذه المجموعة قواعد فى الريف وبين النساء وعملت هذه المجموعة تحت قيادة المناضل (غريب تومى) وضمت أحمد عفيفى – ابراهيم درويش – أحمد فهمى – حسن عبد الله – سلامه العجرودى – فاروق حمدان – نسيم رجب – محمود عبد الرحيم الذى أصبح مسئول إتصال الحركة الطلابية التى كانت مذدهرة فى جامعة الإسكندرية خاصة كلية الهندسة التى وضعت كل إمكانياتها وورشها لتصنيع الأسلحة والمعدات التى أستعملت بكفاءة خلال المعارك. كما أمكن دفع مجموعة من طلبة جامعة الإسكندرية إلى الأسماعيلية لتعمل من داخلها وإتخذت مقراً لها فى العرايشية وسط العائلات البريطانية وكانت هناك مجموعة بقيادة المناضل محمد عبد النبى ومعه رفعت أبو النجا – عزت البكل – فاروق معوض – محمد العطار وكان لهم الفضل فى إدخال كميات

الإسماعيلية وقد تم إستخدامها بـ

الإنجليزية فى شارع محمد على وعزبه الحلوس.

وبعيدا عن هذه المجموعات قام مواطنو الضواحى وفايد والتل الكبير بالعديد من الأعمال الفدائية الخارقة فكانت مجموعة نفيشة بقيادة الاخوه رضوان وكذلك مجموعة البركة التى أفزعت الإنجليز ومنها عبده الأتربى - عبده جمعه - على عشاب - محمود أبو الخير - أبو جزر. وهناك أيضا مجموعة أبو صوير ومنها محمد فتحى .

الحركه العمالية

إضطر الأنجليز للإستعانه بأعداد كبيرة جداً من العمال المصريين للقيام بالعمل داخل القناه. ومع بداية الإنتفاضة الشعبية يوم ١٦ أكتوبر ١٩٥١ بدأ الإحساس الوطنى يتعاظم بين جموع هذه العمال ثم بدأ هؤلاء العمال يتركون أعمالهم بالمعسكرات الإنجليزية مضحين بأرزاقهم فى سبيل وطنهم وبدأت هذه الحركة بسيطة وغير مؤثرة ومع بداية نوفمبر أصبحت حركة عامة وترك الألاف أعمالهم وأصبحوا يمثلون قوة مؤثرة على مجريات الأحداث وتدخلت الحكومة الوفدية من خلال وزارة الشؤن الإجتماعية وعملت على مساعدة هؤلاء العمال. وخلال شهر نوفمبر ٥١ رحل جزء كبير من العمال خارج منطقة القناه وتم تعيينهم فى وظائف حكومية مؤقتة. وقد توقفت كافة للاعمال الإنشائية بالمعسكرات الإنجليزية وإضطر الإنجليز إلى إستخدام جزء كبير من قواتهم العسكرية فى

الخدمات المعاونة مما جعل الحياة داخل المعسكرات تصبح جحيما لا يطاق.

وقد تمثل كفاح وتعاون العمال المصريين ضد المحتل الإنجليزى فى عدة خطوات هى

- إمتنع عمال السكة الحديد عن التعاون مع القوات البريطانية بأى صورة من الصور فأصيبت تحركات الجيوش وخطوط التموين البريطانية بالإرتباك والشلل المفاجىء.

- إمتنع عمال الشحن والتفريغ فى ثغور القناه عن تفريغ حمولة البواخر البريطانية وفى الايام القليلة التى أعقبت الغاء المعاهدة ظل أكثر من سبع عشرة باخرة تهيم فى القناه دون أن تستطيع الإستقرار أو إنزال ما عليها من جنود وعتاد بعد أن تخلى عمال الشحن المصريون عن هذه المهمة.

- أضرب العمال المصريون فى المعسكرات البريطانية عن العمل وإنسحبوا جميعا منها. وضحوا بمرتباتهم وأجورهم وأرزاق عائلاتهم إستجابة لنداء عدم التعاون مع المحتلين بعد إلغاء المعاهدة. وقد بلغ عدد العمال المنسحبين ما يقرب من ١٧٠ ألف كانوا يشتغلون فى المعسكرات البريطانية وورشها ومصانعها وإداراتها المختلفة.

وقد لقى هؤلاء العمال الشجعان متاعب بالغة بعد إنسحابهم وإنقطاع أجورهم.

وقد قام الفدائيون وضباط البوليس بدور عظيم فى تنظيم إنسحاب العمال من معسكرات الإنجليز.

وقد بلغ عدد العمال الذين إنسحبوا ما يقرب من ١٧٠ ألف عامل كما توقف الموردون الذين كانوا يمدون القوات الإنجليزيه بمواد التموين عن توريد ما تعا قدوا عليه وإلغاء عقود التوريد بالرغم مما فى ذلك من خسائر مادية. وأصبح جنود الإحتلال يعتمدون فى غذائهم على المعلبات وإنتهت حياة الرفاهية التى كانوا يعيشون فيها منذ احتلالهم لمصر عام ١٨٨٢. وبدأ الأنجليز فى إستقدام عمال الخدمات من قبرص وأحس الجنود الإنجليز أنهم فى سجن كبير تحوطه الكراهية والبغضاء وأنهم لن يخرجوا من هذه الأرض سالمين وأرسل إكسهام رسالة الى وكيل المحافظة يقول فيها (وصل إلى علمنا أن بعض المدنيين الذين يشتغلون بالجيش البريطانى بالإسماعيلية قد حرضوا بواسطة بعض الشباب لترك أعمالهم ومنعوا من الوصول إلى مرّاكز أعمالهم ولما كنتم لم تستطيعوا إتخاذ أى إجراء حاسم فقد قبض على اليوزباشى حسن طلعت رئيس القسم المخصوص لأن له نشاطا فى تحريض العمال وعلى ذلك يكون عمله ضارا بالقناه وسيتم إبعاده بناء على أمر القائد العام)

كما تم إبعاد الملازم أول حافظ عفيفى رئيس نقطة فايد واليوزباشى عبد الخالق بركات رئيس نقطة جنيفة والكونستابل

إبراهيم الدسوقى رئيس نقطة أبو سلطان كما ألقى القبض على رؤساء العمال ومنهم إبراهيم مبارك ودسوقى القرعلى ومع ذلك لم يؤد كل ذلك لوقف تيار الإنسحاب من المعسكرات .

نداء من الضباط الأحرار

بادر تنظيم الضباط الأحرار بإعلان إنحيازه الكامل مع حركة الكفاح المسلح وذلك فى المنشور الذى صدر فى ٢٠ أكتوبر ١٩٥١ بعد أحداث حريق النافى ويحوى هذا المنشور رؤية التنظيم فى الإحداث التى كانت تمر بالبلاد حيث جاء فى هذا المنشور.. إن مصر اليوم تمر بأيام عصيبة ستقرر فيها مصيرها لسنوات قادمة. وهذا يتطلب من أبنائها عيونا ساهرة ويقظة ووعيا لا يتر كان مجالا لعبث الخائنين الذين يريدون أن يقللوا من قيمة وقوة هذا الشعب فى كفاحه المستميت للذود عن وطنه ضد الإستعمار. فالشعب والجيش يقفان اليوم بالمرصاد لكل حركة ترجع بنا إلى الوراء. إن الشعب والجيش سيحطمان أى محاولة لضرب الحركة الوطنية لقد أيدنا الحكومة فى خطواتها الوطنية وطالبناها باتخاذ خطوات إيجابية لتحقيق أهداف الشعب فى القضاء على الإستعمار. ولكن لم تتم أى خطوة فى هذا السبيل ..

وقد وضع تنظيم الضباط الاحرار خطته على اساس تحقيق الاهداف الاتية انطلاقا من أن حرب العصابات هى أسلوب المعركة

الوحيد يخوضها الشعب والجيش فى أطار من السرية المطلقة

١ – عمل معسكرات لتدريب الفدائيين على أعمال مهاجمة العدو

٢ – وضع الضباط الأحرار على رأس كتائب الفدائيين الذين يتم تدريبهم

٣ – مواصلة اصدار المنشورات التى تؤكد وقوف الجيش مع الشعب

٤ – مواصلة الإتصالات الشخصية بين الضباط الاحرار والتنظيمات الثورية الاخرى.

٥ – عمل خطة لمواجهة إحتمالات إحتلال الإنجليز لمنطقة القناة وعزلها عن باقى القطر

وبدأ الضباط الأحرار الإتصال بكل القوى الشعبية والثورية كما قاموا بإمداد بعض المنظمات بالسلاح والذخيرة وقد شارك أعضاء تنظيم الضباط الاحرار إشتراكا فعليا فى عمليات متعددة منها نسف فلتر المياة فى التل الكبير فى ٣ نوفمبر ١٩٥١ وشارك فى العملية كمال رفعت – حسن التهامى – لطفى واكد. كما قامت مجموعة أخرى بالهجوم على معسكر سلاح المهندسين بجبل مريم. كما قامت مجموعة كمال رفعت بعدة عمليات فى القصاصين. وأكدت هذه العمليات للإنجليز أن هناك عناصر مدربه تدريبا عالياً إنضمت إلى كتائب الفدائيين مما جعلهم ينقلون جزء من اللواء السادس من فايد

إلى التل الكبير. وكانت مجموعات الضباط الاحرار تركز عملياتها فى القطاع الغربى للإسماعيلية عند التل الكبير والقصاصين إنطلاقا من قواعدها فى الشرقية وكان لهم مجموعة تقوم بعمليات خاطفة فى الاسماعيلية وتم التعاون بين الضباط الاحرار والفدائيين فى كثير من العمليات ومنها عملية الهجوم على معسكرات الطيران بالاسماعيلية يوم ١٦ نوفمبر ١٩٥١. وقام الإنجليز بالضغط على الجيش المصرى لإبعاد البكباشى أمين حلمى قائد المخابرات العسكرية فى الاسماعيلية.

وفى الوقت الذى إنحاز فيه الضباط إلى حركة الكفاح المسلح إكتفى الوفد بسياسة الكفاح السلمى عن طريق المظاهرات والاحتجاجات تلك السياسة التى رفضها الشعب مع إنتفاضته فى ١٦ أكتوبر ١٩٥١. وبذلك أكد الوفد إنفصاله التام عن الشعب وعن الحركه الوطنية واكدت قياداته على أنها قد شاخت فى أماكنها وأنها قد أصبحت عبئاً على مسيرة النضال الشعبى.

معسكرات الفدائيين

فى سرية تامة قام عدد من الضباط الأحرار بالإشراف على تدريب الفدائيين بعيداً عن كل المعسكرات العلنية التى قامت فى بعض مدن الشرقية وفى القاهرة. وقد قام كمال رفعت وحسن التهامى بالأشراف على تدريب الفدائيين فى معسكر بصحراء الفيوم

وكـان التنظيم يمدهـم بالاسلحـة والذخـيـرة. ويمدهـم صـلاح هـدايت بزجـاجـات المولوتوف. وكـان وجيـه أباظة يقول بإستقـبال الفـدائيين الذين يتم تدريبهم فى الشرقية. وتم إنشـاء مـخزن للسـلاح فى بلده (طو يحـر) لمد الفـدائيين المتدربين فى مـعسكرات الضـبـاط الأحـرار بالسلاح. ومخزن أخر فى أبو حماد تحت إشراف حسين ذو الفقار عمدة البلده. وقد أمكن فى مدة قصيرة تدريب ٦٠ فدائيا فى معسكر الفيوم قاموا بتنفيذ العديد من العمليات الفدائية بقيادة كمال الدين رفعت.

اللغم البحرى .. عملية كبيرة لم تتم .. !

كتب أنور السادات فى مذكراته .. رن جرس التليفون فى ميس الضباط برفح وكان المتكلم جمال عبد الناصر من القاهرة وقال جملة واحدة (التيتل جاى النهاردة فى الطيارة .. إستعد لإستلامه). وكنا قد إتفقنا من قبل على إعداد لغم بحرى كبيرلنضعه فى القناه قبل مرور باخرة إنجليزية كبيرة فننسفها.

وكان هدفنا من هذه العملية تعطيل القناه وتقديم الدليل الكافى على أن الانجليز لا يستطيعون حماية القناه .. مادام المصريون لا يمكنو نهم من ذلك.

ومن العريش إتصل ضابط وقال إستلمت التيتل فكيف أرسله إلى القنطرة ؟ فأمرناه بإرساله إلى رفح .. ووصل التيتل الى رفح فى

حراسة الضابط كيماوى صلاح هدايت والذى كان مكلفا بتركيبة ليصل إلى القنطرة وتم تركيبه إستعداداً لزراعته فى القناة وتم تحديد أنسب مكان لزرعه على بعد ٢ كم من كوبرى الفردان حيث تضيق المنطقة لوقوعها بين تلين وكان مع اللغم ضابط البوليس عبد الفتاح غنيم وصلاح هدايت وحسن التهامى وتم الإتصال بكل من بيده المساعدة فى إنجاح العملية فاتصلنا بالمهندس فهمى طلبه من شركة القناة وبالصاغ عبد الستار عرنسه قائد خفر السواحل وعند التنفيذ أخطأ عبد الفتاح غنيم حيث أبلغ بضرورة اخلاء المنطقة (شرقا) رغم أن المنطقة المطلوب اخلاؤها (جنوبا) وكانت النتيجة اعتراض خفر السواحل لمجموعة العملية وتأجيلها وفى اليوم التالى نجحنا فى الوصول إلى شط القناه ولكن السفينة القادمة كانت للركاب وتحمل العلم الهولندى مما يهدد فى حالة نسفها بأزمة دولية كبيرة والمئات من الأرواح البريئة. وفى اليوم الثالث ظهرت عقبة كيفية زرع اللغم وتطوع حسن التهامى بإحتضان اللغم والغوص به رغم الخطورة الشديدة فى ذلك .. ومع كل هذا فشلت المحاولة .. وصدرت لنا الأوامر بد فن اللغم فى الصحراء وتأجيل العملية. وظل اللغم مدفونا حتى عام ١٩٥٥ عندما اصدر عبد الناصر أوامره لصلاح هدايت بتدمير اللغم فى صحراء القنطرة. فقام عبد الفتاح أبو الفضل ومعه بعض الفنيين بتفجير اللغم.

مليون طلقه

وكان تنظيم الضباط الاحرار قد بدأ منذ عام ١٩٤٨ نشاطا واسعا بالتعاون مع الفدائيين فى سرقة الأسلحة والذخيرة من معسكرات الانجليز وكانت هذه العملية تتم بقيادة مجدى حسنين ووجيه أباظة وفى مقدمة الفدائيين غريب تومى .. وفى إحدى هذه العمليات التى تمت سنه ٤٨ إستطاع مجدى حسنين بمساعده الفدائيين الحصول على كميات هائله من الذخيرة كانت السند الاساس لقواتنا المحاربة فى فلسطين فقد تمكن الضباط الاحرار من الاستيلاء على مليون طلقه ٢٠٣ فى ليلة واحدة وهى ليلة ٤ نوفمبر ٤٨ بعد أن تم دخول المعسكر والوصول إلى المخازن تحت الأرض ثم اخراج هذه الذخيرة وشحنها فى عربات الجيش المصرى. ورغم اكتشاف القوات البريطانية لهذه العملية فى نفس الليلة الا أنها لم تستطع أن تفعل شيئاً لأن الطلقات كانت قد سافرت الى القاهرة عبر بعض الدروب الصحراوية.

القبض على ضباط البوليس

فى اليوم الأول من نوفمبر ألقى الانجليز القبض على جميع رؤساء نقط البوليس فى المنطقة كلها مع عدد كبير من الضباط والصف والجنود. وفى نفس اليوم خطف الانجليز زعماء العمال الذين كانوا يشرفون على حركة انسحاب العمال من المعسكرات

ومنهم محمد عبد العال - محمد كامل - محمد خطاب عليش - توفيق بركات - محمد الليثى - دسوقى القرعلى .. إضافة الى خطف الاهالى من الشوارع والهجوم على المساكن.

وفى المقابل شدد الانجليز إستحكاماتهم وعززوا مواقعهم وإحتلوا مواقع جديدة فى مواجهة قوات الجيش المصرى فى الضفة الغربية للقناة.

فنصبوا مدافع الهاون من وزن ١٧ رطلا. وحفروا الخنادق وأحاطوا أنفسهم بسياج من الأسلاك الشائكة ووصل إلى المنطقة بطريق البحر والجو قوات من جنود المشاه. كما نقلوا قوات كبيرة من جنود المظلات من فايد إلى القصاصين قرب التل الكبير وفى نفسى الوقت قام الانجليز بجصار أبو سلطان وتفتيشها وأعملوا بمساكنها النهب والتخريب

٣ نوفمبر.. يوم عصيب

كان يوم ٣ نوفمبر ٥١ يوما عصيبا فى مدينة الإسماعيلية فمنذ الصباح الباكر والطائرات تحلق على إرتفاعات منخفضة لإرهاب المواطنين ومع تحليق الطائرات فوجئ سكان المدينة بمظاهرة عسكرية حاشدة من الدبابات والمدرعات والمصفحات والبنادق والمدافع الموجهة الى البيوت والناس .. وفى نفس الوقت هاجمت القوات البريطانية سرابيوم ونفيشة.

جنرالات وخونه

ومع بداية شهر نوفمبر ١٩٥١ إتسعت حركة المقاومة الشعبية وصارت أكثر تنظيما وتسليحا وأصبحت ضرباتها اكثر إيلاما .. وفى المقابل تلاشت قبضة الحكومة المركزية فى مدن القناة الثلاث وأصبح الإنجليز بقوتهم العسكرية الغاشمة هم الحكام الفعليون وبدأ إسم الجنرال (أرسكين) قائد منطقة الإسماعيلية يتردد بين الناس اكثر من اسم مصطفى النحاس أو الملك فاروق نفسه وقد عمل الانجليز من خلال طابورهم الخامس من الخونه والأجانب والمتمصرين على النفاذ إلى صفوف الحركة الوطنية لكشف عناصرها وقيادتها وأماكن أسلحتها .. وفى المقابل عمل قادة المقاومة على كشف هؤلاء الخونة وإرهابهم أو قتلهم حتى يتركوا منطقة القناة وقد لجأ بعضهم إلى معسكرات الانجليز بعد أن تم كشفهم. وتم جمع كل البيانات عن هؤلاء الخونة ومن لم تتم تصفيته فى ذلك الوقت تمت تصفيته بعد قيام ثورة يوليو ١٩٥٢.

حرب العصابات

تولت مجموعة الفدائيين التى كان كمال الدين رفعت مسؤلا عنها تجنيد عدد من الطلبة والموظفين. ومع بداية شهر نوفمبر كان عدد من الفدائيين قد تدربوا بشكل جيد على حرب العصابات ومنهم (محسن لطفى – ضياء حسنين فهمى – محمد عبد البر – سمير مكرم –

رؤوف أسعد - عادل لطفى - فايز سلامة - عقيل مظهر - عزيز الناظر - أحمد الرزنامجى) وغيرهم وكان يعاونهم ظابط البوليس اليوزباشى سعد على عياد حيث كانت وظيفته الرسمية تفيد أعمال الفدائيين بدرجة كبيرة. وكانت التوجيهات الصادرة إلى هذه المجموعة من قيادة الضباط الاحرار هى تدريب الفدائيين على أعمال حرب العصابات بعد أن أمدهم الضباط الاحرار بالأسلحة والذخيرة وكان اليوزباشى صلاح هدايت يرسل لهم زجاجات المولوتوف والقنابل اليدوية. وكان كمال الدين رفعت وحسن التهامى يقومان بعمل الاستطلاعات فى منطقة القناه وخاصة مناطق القصاصين والتل الكبير والقرين. مع إستكشاف مواقع المعسكرات الأنجليزية ونقط التفتيش.

وفى الثانى من نوفمبر خرجت أنباء الاعتقالات الواسعة واحتلال الانجليز للإسماعيلية وبور سعيد .. وكان لابد من الرد السريع فتم إختيار ٢٠ فدائيا للقيام بعملية كبيرة فى التل الكبير تحدد موعدها فى منتصف ليل الثالث من نوفمبر. وقبل التحرك من القاهرة قام كمال الدين رفعت بشرح العملية وعرف كل فرد دوره فيها. ووصلت المجموعة إلى التل الكبير قبل الغروب وبدأوا فى عملية إستطلاع سريعة. وتم وضع اللمسات الاخيرة لحظة الهجوم على مرشح مياه معسكرات التل الكبير وتم تقسيم المجموعة إلى ثلاث مجموعات.

- مجموعة ساترة من الفدائيين فى الضفة الشرقية لترعة الإسماعيلية

- مجموعة لمهاجمة محطة ترشيح المياه التى تمد معسكرات التل الكبير بالمياة وكان بها كمال رفعت - حسن التهامى - محسن لطفى - لطفى واكد - فايز سلام - ضياء حسين.

- مجموعة لحماية خط الإنسحاب إلى كوبرى التل لكبير.

وتم الإتفاق على إشارة بدأ المعركة عند تدمير برج الانوار الكاشفة وعلى الفور تسللت مجموعة الهجوم إلى حوالى ٢٠ مترا من محطة ترشيح المياه وإستمرت المعركة اكثر من الساعة والنصف تم خلالها تدمير محطة ترشيح المياه كما استخدم فى المعركة المدافع الرشاشة والقنابل اليدوية وزجاجات المولوتوف وإتسعت المعركة حين خرجت الدبابات البريطانية والعربات المصفحة من معسكر التل الكبير. لنجدة القوات المحاصرة بمحطة ترشيح المياه. وعلى الفور إنسحبت قوات الفدائيين إلى التل الكبير. وفتحوا الكوبرى لمنع عبور القوات البريطانية وتم احتلال مواقع فى الضفة الشرقية لترعة الاسماعيلية ثم دارت معركة عنيفة إستخدمت فيها المدافع الرشاشة والقنابل اليدوية وزجاجات المولوتوف لاكثر من ساعة ونصف وبعدها اضطرت القوات البريطانية إلى الإنسحاب بعد أن فقدت ١٢ جنديا بريطانيا وضابطا وأصيب من الفدائيين طالب طب فى جبهته. وكان

يعمل كطبيب لقوات الفدائيين وكذلك أصيب فدائى أخر فى ذراعة.
وتوقفت المعركة فى الثانية من صباح ٤ نوفمبر ٥١ بعد إنسحاب القوات البريطانية وعاد الفدائيون الى القاهرة فى السادسة صباحاً.
وقد دفعت هذه المعركة القوات البريطانية إلى نقل جزء كبير من اللواء السادس عشر من فايد إلى التل الكبير والقصاصين. وقد كتب ضياء حسنين فهمى أحد الفدائيين الذين شاركوا فى هذه المعركة فى مذكراته قائلا (إن أعز ما أحمله من ذكريات هذه المعركه هو أننى ببندقيه الانجليز قتلت إنجليزيا من قوات الاحتلال التى تدنس أرض بلادنا الحبيبة) وكان ضياء قد أستطاع سرقة بندقيته من معسكر الإنجليز بالهرم عام ١٩٤٤ وإحتفظ بها حتى شارك فى معركة التل الكبير

ردود فعل الإنجليز والفدائيين

بعد معركة فلتر التل الكبير تضاعفت إستفزازات الإنجليز ضد أهالى الإسماعيلية وبورسعيد وأصبح اطلاق النار من قوات الاحتلال على الاهالى أمراً مألوفا. وفى المقابل أصبحت إغتيالات الجنود الإنجليز مسألة يومية يقوم بها الفدائيون فى القناة.

وفى القاهرة تبنى الوفد دعوة الهيئات الوطنية والشعبية لعمل مظاهرة ١٤ نوفمبر بمناسبة عيد الجهاد الوطنى .. ولكن الشعب فى مدن القناه لم يكن متحمساً لهذه المظاهرة .. فقد كان يراها مجرد

إستمرار للكفاح السلمى فى وقت أعلن فيه الشعب الحرب ضد قوات الأحتلال وقد إتفق الفدائيون مع الضباط الاحرار على أن الموقف الصحيح هو (حرب العصابات) ضد قوات الإحتلال. وأصبح الفدائيون يقومون بأعمال إنتحارية كرد فعل للهجوم الاستعمارى على الاهالى من ناحية وكتعبير عن سخطهم على قيادات الاحزاب السياسية من ناحية أخرى.

٨ نوفمبر .. معركة القصاصين

فى يوم ٨ نوفمبر ٥١ شهدت منطقة القناة معركة كبيرة ضد قوات الإحتلال الانجليزى فى القصاصين. حيث تحرك من القاهرة كمال رفعت وحسن التهامى ولطفى واكد ومعهم عشرة فدائيين ووصلوا إلى القصاصين فى الرابعة بعد ظهر ٨ نوفمبر. وكانت الخطة أن تنتهى المعركة عند الغروب حتى تسهل عملية الإنسحاب تحت ساتر الظلام. وتم توزيع المجموعة الى ثلاث فرق حيث تسلل كمال رفعت بمجموعتة إلى قلب المعسكر وكمنت مجموعة لطفى واكد أمام باب المعسكر. وتم زرع المتفجرات داخل المعسكر. وعندما بدأت الإنفجارات خرجت سيارات الانجليز بحثاعن الفدائيين فقابلتهم مجموعة لطفى واكد ومن خرج منهم تصدت له مجموعة حسن التهامى مما أحدث إرتباكا كبيراً فى صفوف الإنجليز وإستمرت المعركة ساعتين خسر فيها الانجليز ٨ جنود وضابط. وتم تدمير

أجزاء من المعسكر. وأنسحبت قوة الفدائيين دون أية خسائر.

وبعد هذه المعركة تضاعف غضب الانجليز ضد الأهالى ولكن الفخاخ التى كان الفدائيون ينصبونها فى شوارع الاسماعيلية وفى الطرق المؤدية إليها أزعجت الانجليز كثيراً. وأيضا أسلاك الصلب التى يربطها الفدائيون بين أعمده النور والتليفون وبين كل شجرتين متقابلتين فقد كانت هذه الفخاخ تضرب عجلات السيارات الانجليزية بالاسـلاك الصلب التى لا يمكن رؤيتـهـا ليـلا والتى تقطع رؤوس الانجليز الراكبين على درجاتهم.

وقد بلغ ضحايا الانجليز فى اليوم الأول لإستخدام هذه الإسلاك اكثر من عشرة قتلى.

١٣ نوفمبر.. من ينصب الفخاخ..

كتب الملازم أول مصطفى فهمى ضابط الصيانة فى الاسماعيلية .. إستدعانى قائد منطقة الإسماعيلية يوم ١٣ نوفمبر ٥١ وقال لى (أنا سمعت إنك بتعمل الفخاخ التى يضعها الفدائيون أمام عربات الانجليز. وأنك بتديهم سلك صلب من اللى بيحطوه بين أعمدة النور) فقلت له (مش بالضبط كده .. لكن أحيانا أقدم مساهمات بسيطة كخدمة وطنية) فقال لى (مين اللى بياخذ منك الحاجه دى .. فيهم أمين حلمى ؟) فقلت له (ناس لا أعرفهم يمرون على بالورشة وأقدم لهم هذه الاشياء). وبعد هذا اللقاء نزلت فى حراسة جنود الجيش

إلى القاهرة لمقابلة (حيدر باشا) وفى محطة القطار إقترب منى أمين حلمى وهمس في أذنى (لا تخف ستجد من يساعدك فى القاهرة) ..
وفى مكتب حيدر باشا وجدت فى غرفة مجاورة ضابط طيار يجلس على مكتب وما أن رآنى حتى سألنى عن (الحكاية) فقلت له عليها كما قلتها فى الاسماعيلية. فأبتسم هذا الطيار وقال (إنت راح تدخل دلوقت عند حيدر باشا فلا تفتح فمك بكلمة وخليه يقول اللى اللى يقوله ثم مر على بعد خروجك من عنده) ووقفت أمام حيدر باشا فسب وشتم ولم يسأل عن الحكاية ثم أمر بنقلى من الاسماعيلية وبقائى فى القاهرة - وعند خروجى طلب منى الضابط الطيار أن أبقى قليلا. وكان فى الحجرة أشخاص آخرون ضباط ومدنيون لا أعرفهم. وبعد إنصرافهم قال لى (طبعا حيدر باشا قال إنك تسيب الإسماعيلية وتفضل في القاهرة) فقلت (نعم هذا ما حدث بالضبط) فأبتسم الضابط الطيار وقال (طب إنزل من هنا وروح على الاسماعيلية فى أول قطار وخليك راجل زى ما انت كده) وحين رأى علامات الدهشة على وجهى إبتسم للمرة الثانية وقال (إسمع الكلام وإعمل زى ما بأقولك .. سافر إلى الاسماعيلية حالاً).

وبالفعل أخذت القطار الى الاسماعيلية فى نفس اليوم وأنا فى حيرة. وفى الاسماعيلية سألت أمين حلمى ضابط المخابرات عن هذا الضابط الطيار فعرفت أن أسمه على صبرى. وعرفت بعد ذلك أن

هناك تنظيما للضباط والاحرار وأننى أتبعه دون أن أدرى فأمين حلمى كان من الضباط الاحرار وهو الذى أتصل بى لتقديم خدمات للفدائيين في شكل أسلاك وبعض أشياء كان يطلبها.

١٦ نوفمبر.. الهجوم على معسكر الطيران بالاسماعيلية

قرر الفدائيون الهجوم على معسكر الطيران بالاسماعيلية وأخذ كل منهم موقعه .. ثلاثة تسللوا إلى المعسكر وكمن إثنان على شط ترعة الاسماعيلية. وبعد زرع القنابل داخل المعسكر لم يمض اكثر من نصف ساعة وتوالت الانفجارات وأصبح صوتها يغطى على صوت صفارات الانذار التى إنطلقت. وراح الكشاف الكهربائى الضخم يبحث عن مواقع الفدائيين فوجه اليه أحد الضباط رصاصة حولته إلى جثة هامدة. وفى الصباح إنطلقت شائعات مجهولة المصدر ونشرتها الصحف على أنها حقائق تقول بأن قططا مشتعلة تحمل متفجرات بساعات توقيت هى التى قامت بتوزيع الحرائق على المعسكرات وبعد العملية راحت الطائرات الإنجليزية تجوب سماء الاسماعيلية وطافت الدبابات والمصفحات والعربات المسلحة كل الشوارع ومن خلال مظاهرة الارهاب هذه شن الانجليز حملات تفتيش على جميع فنادق المدينة ثم على بيوتها وذلك بحثا عن الفدائيين الأغراب الذين قاموا بالعملية بعد أن أتضح أنهم على درجة عالية من التدريب فى حرب العصابات.

تلاحم الشعب والشرطه

تلأشت الحواجز بين قوات بلوكات النظام والشعب خاصة وأن ضباطهم كانوا يقيمون فى فندق بسطا بشارع عرابى بعيداً عن أماكن تجمعهم. وقد تمخض هذا الإلتحام بين الشرطه والشعب عن عمليات فدائية ليلية إشترك فيها الطرفان خاصة بعد توفر كميات إضافية من الذخائر.

وظل الغضب الانجليزى يتصاعد خاصة بعد نجاح الكمائن التى كانت تنصب لدورياتهم فى شوارع الاسماعيلية وحولها وإستعمل فيها رجال المقاومة أسلاك الصلب الرفيعه التى تربط بين شجرتين متقابلتين لاصطياد راكبى الموتوسيكلات الانجليز. كما حصل الفدائيون من كلية الهندسة بجامعة الاسكندرية على مسامير ثلاثية خاصه توضع فى مناطق عبور السيارات لضرب الإطارات وكان إستعمال هذه المسامير فعالا جداً. مما جعل المعارك وإغتيال الانجليز عملا روتينيا يتم يوميا على يد الفدائيين.

معركة وإتفاق

فى صباح يوم ١٧ نوفمبر هجمت دورية إنجليزية على جنديين من بلوكات النظام من حرس مبنى مديرية الصحة التى كانت تعسكر بها بلوكات النظام وأصيب الجنديان أصابات بالغة. فقام زملاؤهما بالرد على النيران فقتلوا كل من كان فى السيارة الجيب فتحرك الانجليز

بقوات أكبر وذادت المقاومة وقام الانجليز الموجودون فى عمارة (آليو) بالاشتراك فى القتال من نوافذ مساكنهم وهب الاهالى إلى جانب بلوكات النظام وزادت حدة القتال. وأحس الانجليز بخطورة موقف قواتهم فى المدينة مع مئات الاسر البريطانية التى تقيم فى حى الافرنج. فطافت سياراتهم بمكبرات الصوت تطالب جنودهم بالإنسحاب إلى الثكنات ووقف اطلاق النار بعد أن سقط من الجانبين عدد كبير من القتلى والجرحى.

وفى اليوم الثاني الاحد ١٨ نوفمبر أراد الانجليز أن ينتقموا من جنود بلوكات النظام والفدائيين مما حدث لهم يوم السبت ١٧ نوفمبر فبدأت منذ الصباح الدوريات تتحرك فى المدينة ومعها المصفحات وحلقت الطائرات الانجليزية على إرتفاعات منخفضة لبث الرعب فى قلوب المواطنين وبدأ جنود بلوكات النظام فى تحصين تكناتهم بأكياس الرمال وذلك بمساعدة الاهالى الذين حملوا معهم كميات إضافية من الذخيرة وتم إختيار المنازل التى تتحكم فى الطرق الهامة المؤدية إلى بلوكات النظام كما تم تحديد المجموعات التى ستعمل فى كل منطقة وتزويدها بالاسلحة وللذخائر والقنابل. وبدأت المعركة وأستبسل جنود بلوكات النظام فى الدفاع عن مواقعهم. كما إستبسل الفدائيون فى الهجوم على القوات الانجليزية من كل الاتجاهات وإستمرت المعركة أربع ساعات .. ونجح الانجليز فى

احتلال مبنى الاسعاف الذى يقع خلف مديرية الصحة إلا أنهم لم ينجحوا فى إقتحام معسكر بلوكات النظام. ومع حلول الظلام بدأ الانجليز فى الإنسحاب من المدينة تاركين قتلاهم فقام الاهالى بالقائهم فى ترعة الاسماعيلية وقد بلغ عدد الشهداء المصريين ثلاثة عشر شهيداً منهم ثمانية من جنود بلوكات النظام وخمسة من المدنيين إضافة الى ١٨ جريحا من الجنود و ١٥ من المدنيين. وبلغت خسائر الانجليز فى هذا اليوم عشرة ضباط بالاضافة إلى أعداد من الجنود.

وفى صباح يوم ١٩ نوفمبر طلب الجنرال أرسكين القائد العام للقوات البريطانية فى منطقة القنال من محافظ القنال (عبد الهادى غزالى) أن يقابله فى الفردان لإجراء محادثات حول خطورة الوضع فى المنطقة وإنتهت المحاثات بين الطرفين إلى الاتفاق المعروف (أرسكين – غزالى) وتنص بنوده على ما يأتى.

١ – سحب قوات البوليس المصرى من حى الافرنجى بمدينة الاسماعيلية حتى يتم نقل العائلات.الانجليزية من المنطقة.

٢ – سحب جنود بلوكات النظام من حراسة المرافق العامة وإعطاء هذه المهمة إلى جنود الصف الأول من البوليس.

٣ – عدم ظهور الضباط والجنود المصريين بأسلحتهم فى حى الافرنج إلى أن يتم ترحيل العائلات الانجليزية.

٤ – تنسحب القوات البريطانية الموجودة فى الشوارع والميادين عن المدينة بعد ترحيل العائلات

وقبل الموعد المحدد تم نقل بلوكات النظام من حى الافرنج حيث توجد ثكناتهم إلى مدرسة البنات الابتدائية بحى العرب. وعلى أثر المعارك التى دارت فى الاسماعيلية يومى ١٧، ١٨ نوفمبر أخذت أفواج العائلات البريطانية تنسحب عن المدينة عائدة إلى بريطانيا وقد بلغ عدد العائلات التى رحلت عن المدينة حوالى ألفى أسره كانت تسكن أحياء الأفرنج والعرايشية الجديدة. وكان هذا بداية لمسلسل الجلاء الذى إنتهى فى ١٩٥٥، ١٩٥٦.

عزل منطقة القناة

فقدت القيادة البريطانية قدرتها على مواجهة شعب الاسماعيلية ورجال بلوكات النظام الذين يساندون حركة الكفاح الوطنى المسلح وكتائب التحرير التى كانت تغير على أطراف الاسماعيلية منطلقة من الشرقية. فقامت القيادة البريطانية بعزل منطقة القناه عزلاً كاملاً ومنعت دخول الصحف المصرية وأوقفت حركة العمل الإدارى والمدنى بما فى ذلك القضاء ودخل شعب القناه فى حرب حقيقية مع القوات البريطانية. وكانت معركة كفر أحمد عبده بالسويس نموذجا للمعارك التى قامت بها القوات البريطانية (تفاصيل هذه المعركة فى كتابنا السويس مدينة الابطال) وقد الهبت هذه المعارك الشعور الوطنى فى

مصر كلها وأذداد الضغط الشعبى على الحكومة المصرية فأصدرت فى ١١ ديسمبر عدة قرارات ضد الانجليز منها سحب السفير المصرى من لندن وطرد كافة الموظفين الانجليز الذين كانوا يعملون فى الحكومة المصرية. كما صدر تشريع بتحريم التعامل مع الانجليز فى القناه كما صدرت تشريع يبيح حمل السلاح لكى يتمكن الشعب من مواجهة قوات الاحتلال. وكان الأثر النفسى لهذه القرارت شديد الايجابية فعمت البلاد المظاهرات والمنشورات الثورية تضامنا مع شعب القناه..

تدمير معسكر القرش

تم الاتفاق بين اكثر من مجموعة من مجموعات الفدائيين على تدمير معسكر القرش والذى يستخدم الانجليز المجموعات الموجودة فيه كنجدة للمنطقة وفى يوم ١٢ ديسمبر ١٩٥١ بدأ الهجوم بالمتفجرات والاسلحة الرشاشة والعادية والعبوات الناسفة التى حطمت خطوط السكك الحديدية لمنع وصول الإمدادت والتموين. ونجح الهجوم في تدمير الكثير من معسكر القرش .. وفى يوم ١٧ ديسمبر حاول الانجليز مهاجمة مبني محافظة الاسماعيلية مستخدمين السيارات المصفحة وأطلقوا عدة قذائف على السور الخارجي للمبنى فتهدم جزء منه. وعلى الفور رد جنود بلوكات النظام وأستشهد منهم جندى وإنسحب الانجليز وكان هذا الهجوم خرقا

لاتفاقية (أرسكين - غزالى) التى كانت تحرم على القوات البريطانية الدخول لمدينة الاسماعيلية ورد الفدائيون على هذه العملية بمحاولة إغتيال الجنرال إكسهام قائد القوات البريطانية بمنطقة الاسماعيلية يوم ٣١ ديسمبر ١٩٥١ وقد تم إلقاء ثلاث قنابل يدوية على سيارته والحرس المرافق له عند عبورهم كوبرى نفيشة ولكنه نجى بأعجوبة بعد مقتل عدد من حراسه وعقب الحادث إنتشرت القوات البريطانية وحاصرت نفيشة والقرى المجاورة بحثا عن الفدائيين وقد فشلوا فى القبض على أى فدائى وفقدت المقاومة الشهيد أحمد رضوان.

من القرين إلى التل

كانت مخازن السلاح الرئيسية للقوات البريطانية تتواجد فى منطقة فايدو القصاصين والتل الكبير وقد تعرضت هذه المناطق للعديد من العمليات التى كانت تنطلق من القرين فى الشرقية. وقد ساهم أهالى هذه القرية مساهمة فعالة حتى أصبحت القرية شوكة فى ظهر القوات البريطانية ولقد حاولت هذه القوات إقتحام القرية أكثر من مرة ولكن كل هذه المحاولات فشلت. واستمرت القرية تتكسر على أعتابها كل المحاولات البريطانية.

(تفاصيل هذه العمليات فى الجزء الخاص بشهادات الفدائيين).

يناير المشتعل

مع بداية شهر يناير ١٩٥٢ إلتقت مصلحة الانجليز مع مصلحة

القصر مع مصالح طبقات معينة فى ضرورة ضرب الحركة الوطنية.
وذاد الصدام وإشتعلت السويس والاسماعيلية ففى يوم ٤ يناير دار قتال ضار بين الانجليز ومجموعة من الفدائيين فى منطقة أبو صوير وأستشهد فيها ٣ من الفدائيين وهم محمد عبد الله على وشعيب مصطفى على وعبده محمد وقتل من الانجليز خمسة أفراد.

وفى يوم ٩ يناير ٥٢ هاجمت مجموعة من الفدائيين من جامعة الاسكندرية طابور إنجليزى بجوار المحسمة وكبدوه خسائر جسمية وأستشهد فى هذه المعركة البطل سليمان الاعسر الطالب بكلية التجارة جامعة الاسكندرية. وعلى أثرها قامت القوات البريطانية. بحصار القرى الواقعة على طريق المعاهدة بين الاسماعيلية والتل الكبير وتفتيشها لإرهاب المواطنين منعا من تعاونهم مع الفدائيين ومصادرة الاسلحة المختبئة فى هذه القرى وكانوا يستخدمون أجهزة البحث عن الالغام للعثور على الاسلحة المدفونه. وقد استطاع الفدائيون تضليل هذه الاجهزة بنثر مسامير وقطع حديدية عديدة فى المناطق المعرضة لمثل هذه الحملات.

وفى ١١ يناير ١٩٥٢ شنت قوة من لواء المظلات البريطانى مؤلفة من ٤٠٠ جندى هجوما على القرى الموجودة فى ضفة الترعة الجنوبية فعبرت الترعة الحلوة عند أبو صوير على زوارق مطاطية وشنت حملة تفتيش على عزب السبع آبار وأبى سلطان وأكرهوا

الاهالى على أخلاء هذه العزب وأعتقلوا عدداً من المواطنين نقلوهم إلى معسكرات أبو صوير لاستجوابهم.

معركة التل الكبير

واصل الفدائيون تصعيد عملياتهم ضد القوات الانجليزية

وفى يومى ١٢، ١٣ يناير دارت معركة كبيرة إشترك فيها فصائل من طلبة الجامعة يضمون تيارات سياسية مختلفة بعضهم من الاخوان المسلمين كما اشترك فى هذه المعركة مجموعة من الضباط الاحرار إضافة إلى العديد المتطوعين من أهالى التل الكبير الذين دعموا المعركة التى بدأت بدخول قطار محمل بالجنود والذخيرة محطة التل الكبير قادماً من الاسماعيلية تمهيدا لدخوله منطقة المعسكرات وعلى الخط الفرعى الذى يصل بين محطة التل الكبير ومنطقة المعسكرات، أعد الفدائيون كمينا لاصطياد هذا القطار بمن فيه. وحاول الانجليز إنقاذ القوات المحصوره بالقطار فدفعوا تعزيزات من القوات المدرعة وأستمر القتال حتى دخول الظلام. وأنسحب الفدائيون إلى التل الكبير كما قاموا بفتح كوبرى التل الكبير لمنع الانجليز من عبوره بقواتهم المدرعة. وفى الصباح بدأ الهجوم على التل الكبير ومحاولة إقتحام الكوبرى إلا أنهم فشلوا. ونظراً للخسائر الجسيمة التى منيت بها القوات البريطانية فقد تراجعوا إلى معسكراتهم. وقد إستشهد فى هذه المعركة سبعة من

الفدائيين منهم أحمد فهمى المنيسى وعمر شاهين وعبد الحميد عبد الله حسن وهم من طلبة جامعة القاهرة كما استشهدت سيدة من التل الكبير هى (سيدة البندارى حسن) كما أسر سبعة من الفدائيين قام الانجليز بتعذيبهم وإطلاق الكلاب المتوحشة عليهم للإعتراف على زملائهم فلما رفضوا تم قتلهم رمياً بالرصاص بعد ذلك ولقد علقت جريدة التيمس الانجليزية على المعركة قائلة إن معظم الضباط الذين إشتركوا فى القتال متفقون على أن المصريين حاربوا ببسالة فائقة وأن الكثير منهم يصيبون الاهداف بإحكام. وكان من الشجاعة النادرة أن يتصدى هؤلاء المصريون لثلاث مجموعات من قوات المشاة الانجليزية التى تعتبر خير القوات التى تؤيدها الدبابات) كما قالت صحيفة النيوزكرونيكل (لقد علق الضباط الانجليز على هذه المعركة بأنها أعنف من أية معركة خاضوها أيام الإحتلال البريطانى فى فلسطين).

عربة البرتقال والقنابل

فى يوم ١٩ يناير ١٩٥٢ تمكن الفدائيون من تنفيذ أكثر العمليات إثارة وهى عملية كوبرى سالا أو عربة البرتقال. وكان الانجليز قد أقاموا نقط حصينة على كل من كوبرى الترانزستور وكوبرى سالا أهم هذه النقاط. وفى الساعة العاشرة من صباح ١٩ يناير تقدم إثنان من الفدائيين متخفين فى ثياب باعة جائلين وهم يدفعون أمامهم

عربة يد محملة بالبرتقال. وفى الجزء لأسفل من العربة شحنة ناسفة ضخمة وتقدم الفدائيان وهم ينادیان على البرتقال حتى وقفا أمام الكوبرى وتدافع الجنود للحصول على البرتقال مجانا. وعند ذلك إفتعل الفدائيان مشاجرة مع الجنود بسبب عدم دفع ثمن البرتقال وأنصرفا فى إتجاه شارع سالا بدعوى إحضار البوليس المصرى. وما أن غادرا المنطقة ووصلا إلى (الريزدانس) حتى أنفجرت العبوة مؤدية إلى قتل وجرح عدد كبير من جنود النقطة الحصينة وبدأ الإنجليز فى إطلاق النار دون وعى فى جميع الاتجاهات. إلا أن مجموعات من الفدائيين قامت بتغطية المنطقة وتأمين إنسحاب الفدائيين الذين نفذا العملية. وقد أصاب الانجليز مدرسة (سان فانسان دى بول) المواجهة للنقطة الحصينة ولقيت راهبة أمريكية تدعى (آن) مصرعها فى الحال. وكان لمصرعها دوى هائل فى الاوساط الامريكية والبريطانية التى حاولت إلقاء المسئولية على الجانب المصرى وقام السفير الامريكى (جيفر سون كافرى) بتقديم إحتجاج إلى وزير الخارجية المصرى الا أن الدكتور محمد صلاح الدين وزير الخارجية رفض الاحتجاج طالبا لانتظار حتى إنتهاء التحقيقات.

وفى نفس اليوم ١٩ يناير ١٩٥٢ أعلن الجنرال أرسكين الغاء الاتفاقية التى عقدها مع (غزال) محافظ القناة وجميع التعهدات بأن

منطقة القناه محرمة على الجنود الإنجليز. وبدأت القوات البريطانية باحتلال المنازل المطلة على شارع محمد على فى منطقة حى العرب وشارع الاهرام وشارع سعد وطردت الاهالى من منازلهم بطريقة همجية وأعتقلت حوالى ٦٠ شابا تم ترحيلهم إلى المعسكر لإستجوابهم. كما إحتلت قوة بريطانية مخفر محمد على ودار المحكمة كما عزلت المدينة عزلا كاملا ومنعت السيارات من الوصول إليها.

وإرتكبت القوات البريطانية أثناء عملية الاقتحام جرائم لا حصر لها فى حق النساء والشيوخ والاطفال إضافة إلى الاعتداء على ممتلكات الافراد وإلقاء الاثاث فى الطرقات من النوافذ وسرقة الاموال والاشياء الثمينة. ولم يتقدم أحد من ممثلى الحكومة المصرية لحماية المواطنين أو حتى تقديم أحتجاج على المعاملة اللاإنسانية التى يتعرض لها المواطنون.

ونسى شعب الاسماعيلية وخاصة منطقة المحطة الجديدة كل ما تعرضوا له وأصبح همهم إنقاذ واحد من أكبر مخازن اسلحة الفدائيين الموجود بمنطقة الاسماعيلية. وفى ليلة ٢٠ يناير قام الاهالى رجالاً ونساءً و أطفالاً بنقل محتويات هذا المخزن إلى المقابر عبر شريط السكه الحديد. إلا أن أحد الخونة أرشد الانجليز عن منطقة التخزين الجديدة فقام الانجليز يوم ٢٢ يناير بمهاجمة المقابر

مستخدمين الكلاب المدربة وقاموا بنبش القبور وإشتبكوا مع بعض. الفدائيين الموجودين لحراسة الاسلحة وقتلوا منهم خمسة بينهم الشهيد رفعت على بدر الذى إستشهد وهو يدافع عن مخزن السلاح وقد أعتبر الانجليز كشفهم عن ذلك المخزن نصراً كبيراً حيث كتبت جريدة التيمس.

(تم إكتشاف الجزء الاكبر من مخزون الاسلحة السرية ووجد فيه خمسة آلاف طلقه من عيار ٤٠ مليمتر مكدسة فى صناديق موضوعة إلى جانب جدار المقبره. ولقد إستخدم الفدائيون هذه الذخيرة لصنع القنابل. ووجد فى مقبرة أخرى الف طلقة من نفس الذخيرة ومدافع رشاشه من نوع شين وأنواع مختلفة من القنابل ويبدو أن هذا المخزن كان أحدى الترسانات الرئيسية لجماعات الفدائيين الذين يعملون بالاسماعيلية ولو أن هناك دلائل تدل على وجود مخزون كبير لم يكتشف بعد)

وراح الانجليز يبحثون من الكيفية التى تمكن بها الفدائيون من سرقة كل هذه الزخيرة من مخازن الذخيرة فى كمب البمب وتم أعتقال مجموعة كبيرة من الشباب لم يطلق سراحهم إلا بعد حريق القاهرة.

جذور المؤامرة

تم الإتصال بالزعماء المصريين خارج حزب الوفد عن طريق

السفارة البريطانية بالقاهرة وهم نجيب الهلالي- إبراهيم عبد الهادي - حسين سرى - على ماهر وأبنوا جميعا الإستعداد للمشاركة فى عزل الوزارة الوفدية كما كان الإنجليز يعتبرون الملك مفتاح الموقف رغم عدم شعبيته وقد أختار الملك على ماهر وأرسل الملك (إدجار جلاد) إلى السفارة البريطانية بتاريخ ١١ ديسمبر ١٩٥١ لتبليغ السفير بإختيار على ماهر رئيسا للوزارة المزمع تكوينها بعد إقالة النحاس وطلب من السفارة الإتصال يعلى ماهر.. وتمت المقابلة يعلى ماهر يوم ١٧ ديسمبر ١٩٥١ ووافق على تولى الوزارة بشرطين

١- فشل مباحثات إيدن وصلاح الدين فى باريس

٢- تتخذ السلطات البريطانية إجراء صارما ضد الفدائيين.

وقام الملك فى ٢٤ ديسمبر ٥١ بتعيين حافظ عفيفى رئيسا للديوان الملكى وعبد الفتاح عمر مستشارا خاصا للملك للشئون الخارجية وهما من العناصر المتعاونه مع الإنجليز وإنفجرت مظاهرات الطلبة فى القاهرة والإسكندرية إستنكاراً لهذه التعيينات.

وأصبحت الساحة معدة الإفتعال حادثة ما فى منطقة القناة ضد الفدائيين أو لفرض مزيد من إجراءات السيطرة وتم التخطيط لإفتعال مذبحة الإسماعيلية الكبرى..

مذبحة ٢٥ يناير

تم التخطيط بشكل جيد لإختيار موقع وموعد ومكان المذبحة وقد ساهم الإهمال الجسيم الذى يصل إلى حد الخيانة فى نجاح تلك المؤامرة الإنجليزية ورغم مرور ما يقرب من النصف قرن على هذه المذبحة البشعة إلا أن المصادر الرئيسية عنها تكمن فى وثائق وزارة الخارجية البريطانية.

وقد إنزعجت القيادة الإنجليزية من تلاحم الشعب مع بلوكات النظام وقامت فى أول يناير ٥٢ بمهاجمة معسكر بلوكات النظام فى التل الكبير وأستسلم قائد هذه القوات وأمر قواته بالقاء أسلحتهم والتسليم للإنجليز وقد حوكم هذا القائد عسكريا بعد ذلك.. ومن هذا المنطلق فالهجوم على معسكر قوات بلوكات النظام فى الإسماعيلية لم يكن مفاجأة وكان أفراد هذه القوات يعيشون فى خيام خلف مبنى المحافظة القديمة ويقودهم حوالى ٢٠ ضابطا يرأسهم اللواء أحمد رائف وكان الضباط يقيمون فى فندق بسطا. ويقيم اللواء أحمد رائف وبعض معاونية فى فند بالاس بميدان المحطة وذلك لانعدام التجهيزات التى تسمح للضباط بالإقامة وسط الجنود ورغم كل الشواهد التى كانت تؤكد نية الغدر عند الإنجليز لم تتخذ قيادة بلوكات النظام أو وزارة الداخلية أى إجراء لمواجهة الخطوة المنتظرة من الإنجليز فلم يتم توزيع القوات داخل المدينة فى مواقع مختلفة ولم

يتم تجهيز المواقع للدفاع بعد تسليمها.

وأختار الإنجليز يوم الجمعة يوم الراحة الإسبوعية لغالبية الضباط وكذلك لأجهزة وزارة الداخلية بالقاهرة وبدأت القوات البريطانية تحاصر مبنى المحافظة بداية من الثالثة صباحاً تدعمها الدبابات السنتوريون الثقيلة والسيارات المدرعة وتم إستدعاء ضابط الإتصال المصرى البكباشى شريف العبد من مبنى شركة قناة السويس بجوار المحافظة حيث سلمه البريجادير إكسهام إنذارا إلى السلطات المصرية تقوم بمقتضاه القوات المحاصرة فى مبنى المحافظة بتسليم أسلحتها والخروج فى طوابير تحت الحراسة الإنجليزية إلى محطة السكة الحديد حيث تم إعداد قطار خاص لترحيلهم إلى القاهرة. وقد أعطى الإنذار مدة ساعة مهلة وإلا سوف تضطر القيادة البريطانية لتنفيذ المطالب الواردة بالإنذار بالقوة.

وحتى الآن هناك عدة أسئلة تبحث عن إجابة ومنها إلى من ابلغ شريف العبد هذا الإنذار؟ وهل علم وزير الداخلية به؟ وهل تمت أى إجراءات لإنقاذ الابطال المحاصرين؟ وغير هذا الكثير من الأسئلة.. ولكن المؤكد أن فراش فندق بسطا أبلغ الضباط المصريين بأن القوات الإنجليزية تحاصر مبنى المحافظة فخرج ثلاثة من الضباط هم اليوزباشى مصطفى رفعت - اليوزباشى عبد المسيح مرقص - الملازم أول فؤاد الدالى وذهبوا بسرعة إلى جنودهم أما قائد القوة

اللواء أحمد رائف فقد ظل فى فندق بالاس وترك قواته تواجه مصيرها مكتفيا بالإتصال التليفونى بوزارة الداخلية لطلب الإغاثة.

وعند وصول الضباط الثلاثة إلى مبنى المحافظة تمت بينهم وبين إكسهام قائد الحملة مقابلة طلب فيها منهم الدخول إلى مبنى المحافظة لأعطاء الاوامر إلى الجنود بالتسليم فوراً لأن مهلة الساعة قد انتهت.

وفي داخل المحافظة كانت الصورة مختلفة بعد أن إستيقظ الجنود على صوت الدبابات والجنود الإنجليز وهم يتخذون مواقعهم حول مبنى المحافظة وأدرك الجنود أن شيئا رهيبا يعد لهم. وبالرغم من ضخامة القوات التى تحاصرهم فقد أجمعوا على القتال ورفضوا فكرة التسليم وبدأوا فى توزيع أنفسهم داخل وخارج المبنى وحول السور الحديدى وأتخذو أوضاعاً قتالية وتم توزيع الذخيرة الإضافية وعندما وصل الضباط الثلاثة إلى داخل المبنى وجدوا أن قرار الجنود هو القتال حتى الموت وأن الإنجليز لن يدخلوا المبنى إلا على جثث الشهداء.

وبدأت المعركة حوالى الساعة السادسة صباحاً وأستيقظت الإسماعيلية على دوى المدافع وأزيز الرصاص وأعتقد البعض أنه إشتباك عادي كما يحدث كل يوم ثم أدرك الناس حجم المعركة وحاول البعض التقدم ولكن الحصار الذى كان مضروبا بشكل مكثف

فى شارع عرابى من المحطة وحتى كوبرى سالا منع أى فرد من التقدم لنجدة الأبطال المحاصرين وإستمرت لإشتباكات مع قوات الإحتلال. ومع طلوع الشمس بدأت الطائرات البريطانية تحلق على إرتفاعات منخفضة للإرهاب وكثفت المدفعية قصف مبنى المحافظة من جميع الجهات.

ويروى فؤاد سراج الدين وزير الداخلية فى ذلك الوقت أنه لم يعرف بالامر إلا فى الساعة التاسعة والنصف صباحا عندما إتصل به الضابط مصطفى رفعت أى أنه عرف بعد ثلاث ساعات ونصف من بداية المذبحة فأين كان كل هذا الوقت وأين كان قائده أحمد رائف؟! وكل ما فعله فؤاد سراج الدين أن قال لمصطفى رفعت (شدوا حيلكم) وإستمرت المذبحة حتى الساعة الحادية عشر عندما طلب مصطفى رفعت هدنه وخرج حيث يقف إكسهام يحيط به ضباطه ومراسلوا الصحف الأجنبية ولم يطلب مصطفى رفعت التسليم ولكنه طلب دخول سيارات الإسعاف لنقل الجرحى ورفض اكسهام الطلب فقال مصطفى لمراسلى الصحف أرجو أن تصفوا بحق ديمقراطية بريطانيا ثم قال لإكسهام ستدخل هذا المكان ولكن ستتسلم جثثا هامدة وإستمر القتال وعند الظهر تم أتصال بين اللواء أحمد رائف وفؤاد سراج الدين حيث قال رائف إن الذخيرة نفدت من الجنود ورد الوزير غاضبا (ده كلام فارغ إزاى خلصت الذخيرة دول

بيطرقعوا)

وفى الساعة الثانية بعد الظهر وبعد قتال إستمر ثمانى ساعات انتهت المذبحة بعد تهدم مبنى المحافظة وإشتعال النيران فيها وإنفجار انابيب المياه التى راحت تغرق المكان وخرج مصطفى رفعت يستسلم بعد نفاذ الذخيرة من الجنود وتهدم مبنى المحافظة عليهم وبعد اقتحام الدبابات البريطانية السور الخارجى وسقط ٥٦ شهيداً يمثلون مصر كلها من الصعيد إلى الدلتا ومن القاهرة إلى الإسكندرية وتم أسر ٧٩٠ جنديا وضابطا ووقع عدد كبير من الجرحي وفقد الجانب البريطانى ٣ جنود وضابطا وتم جرح ١٢ جنديا.

الحق ما شهدت به الأعداء

خرج مصطفى رفعت بمفرده فكف الإنجليز عن إطلاق النار وكان إلى جانب إكسهام فى تلك اللحظة الجنرال (ماتيوس) وما إن إقترب منه مصطفى رفعت حتى حياه الجنرال تحية عسكرية وقال له إنه مستعد لإجابة كل ما يطلبه وإن ما قام به مع هؤلاء الجنود لم يشهد له مثيلا طوال المدة التى قضاها فى الحرب العالمية الثانية سواء فى شمال إيطاليا أو فى فرنسا وكانت مطالب مصطفى رفعت أن يتم الإبقاء على العلم المصرى فوق مبنى المحافظة مع السماح بترك السلاح فى الداخل وخروج الجنود دون رفع الأيدي وأخيراً كلمة

الشرف بأن يعامل الجنود معاملة حسنة وخرجت القوات الباقية فى طابور منتظم حياه الإنجليز فى الخارج تحية عسكرية وتم نقلهم إلى المعتقلات ثم إقتحم الإنجليز ما تبقي من مبني المحافظة وإستولوا على الف بندقية لكنهم لم يجدوا طلقة واحدة..!!

خطط ما بعد المذبحة

بعد مذبحة الإسماعيلية أصبح أمام الإنجليز طريقان إما الزحف بقواتهم لإحتلال القاهرة وإما العمل بمساعدة الملك وعملائه على جر الجيش إلى انقلاب عسكرى للقيام بنفس المهمة ولكن كلا الطريقين كان مسدوداً بعد أن أصبحت منطقة القناة عبئا على الإنجليز بعد أن أفسد الفدائيون كل خطط الغزو الجديد من اليوم الأول الأمر الذى جعل الإنجليز متأكدين من أن زحفهم على القاهرة سيكون حربا شاملة خسائرهم فيها جسيمة كما أن إمتداد الحركة الثورية إلى قلب الجيش جعلت من المستحيل الإستعانة بالجيش لضرب الحركة الثورية. وكان هذا أهم العوامل التى جعلت الإنجليز يصرفون النظر عن إحتلال القاهرة وخاصة بعد أن عرفوا أن معارك القناة كانت بقيادة ضباط الجيش وأن أى تهور منهم سيؤدى إلى إعلان الجيش إنضمامه علانية إلى المقاومة المسلحة خاصة وأن الضباط الاحرار كانوا قد خططوا منذ بداية يناير وبعد أن كسبوا معركة نادى الضباط متحدين الملك فاروق أن يقاوموا بعملية كبيرة وشاملة خطط

لهاَ جمال عبد الناصر وقرر قيادتها بنفسه بعد أن طلب قبل منتصف يناير ٥٢ من كل ضابط يرغب فى التطوع لعملية فدائية كبرى قد تكون فيها حياته أن يرسل بإسمه وتقدم مئات الضباط يطلبون التطوع وتم إختيار مجموعة من أكفأ الضباط يقودهم جمال عبد الناصر وتم تقسيمهم إلى فرق لكل منها قائد يتصل مباشرة بقائد العملية وقد حاول الضباط إثناء عبد الناصر عن قيادة هذه العملية إلا أنه رفض وكانت الخطة تستهدف نسف جميع معسكرات الجيش الإنجليزى فى القناة فى وقت واحد وفى نفس الوقت نسف الطريق إلى القاهرة ويتزامن مع ذلك نسف ألغم البحرى لسد قناة السويس.. ولكن الأحداث تلاحقت بسرعة مذهلة مما أدى إلى تأجيل العملية.. ومما جعل الإنجليز يخططون للقيام بضربة تتسم إلى جانب العنف والدموية بالخسة والجبن أيضاً.

٢٦ يناير.. مؤامرة حريق القاهرة

لم تكن مذبحة الإسماعيلية إلا تهيئة لمسرح القاهرة لأحداث اليوم التالى وفى مساء ٢٥ يناير وصلت الأخبار المؤلمة إلى القاهرة فباتت حبلى بالغضب تترقب طلوع الفجر وفى نفس الليلة عقدت الوزارة الوفدية إجتماعاً غير عادى ووضعت فى جدول أعمالها قطع العلاقات الدبلوماسية مع بريطانيا ورفع الأمر إلى مجلس الأمن وإعتقال ٨٠ من أفراد الجالية البريطانية كرهائن مقابل من إعتقلتهم سلطات

الإحتلال فى القناة.

وفى نفس الليلة أيضا أعلنت نقابات العمال عدم التعاون مع المؤسسات البريطانية (وكانت الحركة العمالية قد حدت يوم ٢٧ يناير ١٩٥٢ للإجتماع التأسيسى لاتحاد نقابات العمال المصريين بدعوة من اللجنة التحضيرية ولكن كان من بعض نتائج الحريق منع العمال من تكوين إتحادهم حينذاك).

ورفض عمال وموظفو المطارات خدمة الطائرات البريطانية وامتنعوا فى تلك الليلة عن تموينها.

ويدأ الصباح الباكر من يوم ٢٦ يناير بتمرد جزئى فى قوات بلوكات النظام فى ثكناتهم بالعباسية وخرج منهم بضع مئات فى مظاهرة وكانت المظاهرة تهتف بسقوط الإستعمار وتطالب بالثأر لشهداء مذبحة الإسماعيلية وتوجهت المظاهرة إلى حرم الجامعة بالجيزة حيث إمتزج الجنود بجموع الطلبة من كافة الإتجاهات الوطنية فى مؤتمر وطنى جامع حضرة عدد كبير من العمال والمثقفين وإشترك فى هذا المؤتمر عدد كبير من الضباط الاحرار فى أكبر التحام للجيش مع الشرطة منذ أيام عرابى. وخرجت هذه الجموع من حرم الجامعة متجهة إلى مجلس الوزراء لتلتقى بمظاهرة أخرى قادمة من الأزهر ترفع نفس المطالب. وطالب المتظاهرون بأن يخرج إليهم رئيس الحكومة فخرج لهم وزير الدولة عبد الفتاح حسن الذى

خطب في المتظاهرين قائلا (هذا يومكم ستثأرون لشهدائكم وسنعرض صدورنا لرصاص العدو معكم بل وفي مقدمتكم) ورغم هذا فقد الوزير السيطرة على المتظاهرين الذين لم يكتفوا بخطاب الوزير وقدموا بيانا بمطالب الشعب وهي المقاطعة الكاملة للإنجليز - إشتراك الجيش في المعركة ضد قوات الإحتلال في القناة - معاهدة صداقة مع الإتحاد السوفيتي.

وإمتدت المظاهرة إلى أماكن متفرقة من العاصمة فقد تصادف إعادة فتح المدارس في نفس اليوم بعد إغلاقها عدة أيام فتظاهر غالبية طلابها وفي كثير من الشوارع والميادين كانت التجمعات تردد نفس الشعارات الثورية وفي الحادية عشرة والنصف صباحاً رأى المتظاهرون منظراً أثار ثائرتهم حيث رأوا رجلا يحتسي الخمر مع راقصة في شرفة كازينو بديعة فصعد إليه بعض الغاضبين وسرعان ما تطور الموقف من تعنيف الرجل المستهتر إلى مشادة ثم إلى هجوم البعض على الكازينو وتحطيم أثاثه وحرقه. وعندما جاء رجال الإطفاء قام البعض بتمزيق خراطيم المياه وجاء البوليس وأطلق الرصاص في الهواء فتفرق الجمع وواصل رجال الإطفاء للقيام بواجبهم. وتم كل هذا قبيل الساعة الواحدة بعد الظهر لينتهي الفصل الأول من أحداث هذا اليوم.

وتبدأ أحداث الفصل الثاني من أحداث هذا اليوم بحريق سينما

ريفولى فى حوالى الساعة الواحدة بعد الظهر وخلال ساعات قليلة وحتى الرابعة عصراً إشتعلت النيران فى حوالى ثلاثمائة من المنشآت والمحال العامه وكلها تقريبا فى قلب العاصمة وأبطال هذه الحرائق لم يكونوا (كأبطال حريق كازينو أوبرا) أفراد من جمهور غاضب تملكته عواطف جامحة ولكنهم كانوا فرقاً منظمة من محترفى الحرق والتخريب إنقضت على قلب العاصمة فى سيارات الجيب حيث كانوا يحملون أحدث أساليب الحرق والتدمير وأشدها فاعلية وكانوا يقومون بمهمتهم بأعصاب باردة ودون أن يبدر عنهم شعار أو تصدر عنهم كلمة أو إشارة فقد كان عملهم مدروساً وخريطتهم مرسومة والاماكن التى يقصدونها محددة سلفا حيث تتقدم مجموعة لإقتحام الأبواب إما بنسفها بقنبلة عند اسفلها أو بعمل فجوة بمواقد (الإستيلين) وتسرع إلى الداخل مجموعة ثانية تقذف فى جوف المبنى المواد الناسفة والحارقة وتندفع خارجة بعد ثوان معدودة وفى لمح البصر يكون المبنى كله شعلة من النيران. وبعد أقل من دقيقة تكون فرق الحرق قد إنتقلت إلى مبنى جديد وفى جميع الاماكن التى إمتدت إليها النيران نفس السيارات الجيب ونفس الأسلوب المحكم المدروس.

مائدة الملك

فى نفس الوقت الذى بدأ فيه حريق سينما ريفولى كان ستمائة

من ضباط القوات المسلحة فى قصر عابدين بدعوة من الملك فاروق ليجلسوا إلى مأدبة ملكية أقيمت بمناسبة ميلاد ولي العهد . وحين بلغت أنباء حريق سينما ريفولى فؤاد سراج الدين وزير الداخلية أدرك أن نذر النهاية بدت أشد ما تكون قسوة وكآبة وأن المؤامرة التى خرجت من عقالها ستتحمل حكومته وهو شخصيا مسؤليتها.

وقد نشر سراج الدين بعد الحريق بأسبوعين (١٠ فبراير) فى صحف حزبه بيانا تضمن كثيراً من التفاصيل التى تثبت أنه سارع إلى الإتصال بالقصر طالبا من الملك تدخل الجيش وكيف أن فاروق ظل يماطل ويسوف مما دعا سراج الدين إلى التوجه إلى القصر بنفسه وكيف أن وزير الداخلية ترك ينتظر أمام الابواب المغلقة حتى الساعة ٢٫٤٥ إلى أن حظى أخيراً من حافظ عفيفى على لسان الملك بتدخل الجيش غير أن أول وحدة من الجيش وعددها لا يزيد عن ١٥٠ رجلا وصلت إلى الأزبكية فى الساعة الخامسة (بعد إنتهاء حريق القاهرة) ثم تبعتها إبتداء من الخامسة والنصف وحدات صغيرة أخرى دون أن يكون لديها أوامر بإطلاق الرصاص. وقد ظلت أعمال السلب والخطف مستمرة حتى الحادية عشرة مساء دون رادع فقد كانت الاوامر التى لدى وحدات الجيش ألا تدخل الشوارع التى بها تجمهرات.

إستقالة النحاس

فى حوالى الرابعة مساء قدم النحاس إستقالته بناء على مشورة سراج الدين ولكن الملك الذى كان راغبا فى أن يحمل النحاس وحكومته تبعة المؤامرة رفض الإستقالة وفى الساعة الحادية عشرة مساء بدلاً من إن ينتهى مجلس الوزراء إلى القرارات التى كانت معده فى الصباح تمخض عن إعلان الحكم العرفى ومنع التجول وصدور قوائم بإعتقالات مئات من الفدائيين والقيادات الشعبية فى منطقة القناة وكافة أنحاء البلاد.. لتنتهى فى ذلك اليوم المائة يوم الخالدة فى تاريخ الإسماعيلية ومصر كلها والتى بدأت يوم ١٦ أكتوبر ١٩٥١.

إقالة النحاس

فى يوم ٢٧ يناير أقيلت حكومة النحاس بعد أن كانت قيادة الوفد قد تحملت خزى تلك النهاية المأساوية وتم تشكيل حكومة جديدة برئاسة على ماهر. وقد أجرى الرئيس الجديد مشاورات تأليف الوزارة فى عربة إسعاف تجوب الشوارع المهجورة والمحترقة (إستخدمت المخابرات البريطانية نفس مخطط الحريق لاحراق طهران وذلك لإسقاط حكومة مصدق)

وفى تعليقة على حريق القاهرة قال جمال عبد الناصر (حرقوا القاهرة وحرقوا معها كفاحنا فى القناة ولكننا منذ ذلك اليوم ٢٦

يناير بدأنا نفقد الصبر وبدأنا نفكر فى العمل الإيجابى وآثرنا أن نصرع الفساد قبل أن يصرعنا وأن نحطم الطغيان قبل أن يحطمنا)

أربع وزارات فى ستة شهور

بعد حريق القاهرة فرضت الأحكام العرفية بهدف ضرب الحركة الوطنية وخاصة حركة الفدائيين فى القناة فقد جاء على ماهر لتنفيذ المخطط الإنجليزى وأخذ الرجل على عاتقه وقف نضال الفدائيين فى القناة وبدأ حملة إعتقالات واسعة وسريعا ما جاءه الرد عقب إعتقال بعض الفدائيين وذلك فى شكل معركتين هما معركة الحجر والقنطرة فلجأ الرجل إلى أسلوب الباب الموارب ودخل فى مفاوضات مع بعض الفدائيين ومن بين الفدائيين الذين قابلهم على ماهر لمساومتهم كان مدحت عاصم والذى ذكر أن على ماهر طلب منه وقف نشاط الفدائيين حتى يستطيع التفاوض مع الإنجليز وكان رد مدحت عاصم أنه لا يملك ذلك وأن على رئيس الوزراء ألا يضع نشاط الفدائيين فى تعارض مع مفاوضته بريطانيا إن كان يرى ذلك مجديا وقد كانت الحركة الوطنية أقوى من كل هذه الأساليب التى لم تجد معها إعلان الوفد بأن سياسة على ماهر هى إستمرار لسياسته وكذلك إعلان على ماهر أيضاً عن إتصالاته لعمل (جبهة وطنيه) من الاحزاب السياسية وكانت ثورة الشعب على الأبواب وكل هذه الأساليب التقليدية مجها الشعب ولم تعد تعنيه ورفض الإنجليز مفاوضة على

ماهر وبطريقة مهينة وفى نفس اليوم الذى كان محدداً فيه مقابلته للسفير البريطانى الغى الموعد وبعد ساعات بلغ الرجل بتقديم إستقالته.

وجاء بعده نجيب الهلال ليعلن بصراحة تامه (التطهير قبل التحرير) ولم يذكر الرجل فى كتاب قبوله تأليف الوزارة كلمة واحدة عن القضية الوطنية ولو من باب التضليل وإستنفذت نغمة التطهير أغراضها سريعا فبدأ الحديث عن المفاوضات بعد حل مجلس النواب وإنشغال الأحزاب السياسية فى الإنتخابات وبعد ثلاثة شهور إستقال نجيب الهلال ليأتى بعده حسين سرى الذى أصدر وزير حربيته قراراً بحل نادى ضباط الجيش ونقل اللواء محمد نجيب إلى منقباد وكان الإعتقاد السائد فى ذلك الوقت أن محمد نجيب هو مرشح الضباط الاحرار وربما المتزعم لتشكيلاتهم السرية كماقدم رئيس الديوان حافظ عفيفى كشفا بأسماء ١٢ ضابطا من الضباط الاحرار وطلب نقلهم من وحداتهم إلى جهات متفرقة بناء على طلب السراى. وحين رأى حسين سرى أن الإنفجار داخل الجيش يكاد يهدد بثورة شاملة تطيح بالنظام كله عرض على الملك فاروق تعيين محمد نجيب وزيرا للحربية وإخراج حسين سرى عامر لكراهيته فى الجيش لكن الملك رفض فأستقال حسين سرى بعد عشرين يوماً فى الحكم وجاء نجيب الهلالى مرة أخرى ليمكث فى الحكم يوماً واحداً فقد كان النظام يلفظ أنفاسه وكانت الثورة تطرق الأبواب.

الثورة تحتضن الفدائيين
وتجبر الانجليز على الجلاء

تسارعت الأحداث لتدفع تنظيم الضباط الاحرار بقيادة جمال عبد الناصر للقيام بالثورة الشاملة على الملك الفاسد والحياة السياسية الأكثر فساداً والإستعمار البغيض وقد نجحت الثورة في الإمساك بزمام الأمور ليلة الثالث والعشرين من يوليو ١٩٥٢ ومنذ اليوم الاول لقيام الثورة كانت القاهرة مشغولة بأحداثها السياسية وفى نفس الوقت كان العمل يجرى على قدم وساق لتكوين جهاز للمخابرات تعتمد عليه الثورة فى حربها التحريرية وكانت نواة هذا الجهاز الثورى الجديد موجودة سواء بين الضباط الذين كانوا فى جهاز المخابرات القديم أو من الفدائيين الذين إرتبط نشاطهم بنشاط الضباط الاحرار ضد الإنجليز؛ وفى الوقت الذى كانت فيه الثورة تعزل فاروق وتطهر الأحزاب السياسية وتتعقب رجال العهد البائد... الخ كان جهاز المخابرات المصرية الجديد يعد عدته فى القنال لشن حرب التحرير الوطنية فقد كانت خطة الثورة ألا تبدأ فى محادثات الجلاء إلا بعد أن يكون لديها تقدير كامل للموقف حيث كانت تعى

جيداً أن الإنجليز لن يخرجوا من مصر بالمفاوضات وإنما لابد من القوة وكان تقدير رجال الثورة أن تبدأ المباحثات مع الإنجليز على فوهة البركان ومن هنا لم تكن الشهور الثمانية بين قيام ثورة يوليو ومباحثات الجلاء فى ٢٧ إبريل ٥٣ وقتا ضائعا بل كانت أيام عمل متواصل من أجل الحصول على أكبر قدر من المعلومات عن المخابرات الإنجليزية وعن وضع قوات الإحتلال وفى نفس الوقت كان إعداد الفدائيين للمعركة تدريباً وسلاحاً مستمراً. وقد أوكلت الثورة مهمة جمع سلاح الفدائيين فى القناة إلى كمال الدين رفعت وقد إستطاع بحكم صلاته ببعضهم خلال معركة القناة أن يحصل على السلاح الذى كان لديهم أما البعض الآخر ممن لا يعرفهم فقد تقدم وحده ليسلم سلاحه ومن هؤلاء كان مدحت عاصم الذى كان يحتفظ فى بيته بكميات هائلة من السلاح بعد حريق القاهرة إنتظاراً للمعركة التى ستقوم لا محاله.. فلما قامت الثورة تطوع بتسليم هذا السلاح.

جهاز المخابرات

بعد فترة قصيرة من قيام الثورة أصبح اسم المخابرات يقترن بالأعمال المجيدة وأصبحت سمعة المخابرات مرتبطة بالأعمال والإجراءات الناجحة السريعة التى قامت بها الثورة وتفجرت لهجة رجل الشارع فى حديثه عن المخابرات المصرية. بعد أن نالت ثقة

الشعب الذى تأكد بأنها وجدت لتحافظ عليه وعلى إستقراره لا للتجسس عليه والتنكيل به. ومطاردة الوطنيين الاحرار منه. فقد كان للمخابرات هدف أسمى من ذلك كله وواجب أشق وأصعب وهو مقاومة قوات الإحتلال الرابضة فى القناة. وإعلان الحرب عليها بكل الوسائل وتنفيذ العهد الذى قطعته الثورة على نفسها بتخليص الوطن من الاستعمار الاجنبى.

المهام الخمس العاجلة..

أصبح أمام قيادة المخابرات وقيادة الفدائيين فى القناة خمس مهام عاجلة لشن الحرب التحريرية وتحقيق أهدافها وهى..

– الحصول على كافة المعلومات عن الجيش البريطانى فى منطقة القناة وفى منطقة الشرق الأوسط كلها.

– منع الإنجليز من الحصول على أى معلومات.

– مراقبة نشاط المخابرات البريطانية وكشف اساليبها وعملاؤها

– القيام بعمليات فدائية مختلفة داخل معسكرات الإنجليز لإزعاج قواتهم.

– شن حرب سيكولوجية على أفراد الجيش البريطانى وذلك بالشائعات والمنشورات والإذاعة من محطة خاصة.

ولتحقيق هذه المهام تم تقسيم منطقة القناة إلى خمسة قطاعات هى..

- منطقة بورسعيد والبلاح ورئاستها بورسعيد يتولى قيادتها عاطف عبده سعد .

- منطقة الإسماعيلية والقرش وأبو صوير ورئاستها الإسماعيلية ويقودها محمود سامي حافظ

- منطقة فايد وفنارة وجنيفة ورئاستها فايد ويقودها محمد غانم.

- منطقة التل الكبير والقصاصين ورئاستها الزقازيق ويقودها لطفي وأكد

- منطقة السويس وميناء الأدبية ورئاستها السويس ويقودها محمود سليمان

وعلاوة على هذه المناطق كان يوجد مكتب مخابرات الإسماعيلية بقيادة عمر لطفي وعبد الفتاح أبو الفضل وكانت المهمة الأساسية لهذا المكتب هي الكشف عن العملاء والخونة في منطقة القناة. وقد قام هذا المكتب بفضل قيادته الواعية بدور كبير في تنسيق أعمال المخابرات مع قيادة العمليات الفدائية حيث كان كمال الدين رفعت يتولى قيادة العمليات الفدائية ومعه سعد عفره ومحمود عبد الناصر

شبكة المعسكرات.

إستطاع جهاز المخابرات في وقت قصير تكوين شبكة داخل معسكرات الإنجليز اشترك فيها العمال والموظفون من المصريين والأجانب فمنهم من كان يكتب تقارير عما يرى أو يسمع داخل

المعسكرات ومنهم من كان يحصل على أوراق ليقدمها إلى القيادة ومنهم من كان يراقب نشاط مخابرات الإنجليز ويبلغ عنها أولاً بأول. ومنهم من كان يحصل على الاوراق الهامة التى تصدرها السلطات الإنجليزية لتطبع صورها وتعاد إلى مكانها سليمة كما كانت. ومنهم من كان يخدع الإنجليز بأنه عميل لهم فيضللهم بالأخبار الكاذبة التى تعدها القيادة المصرية وقد إستطاعت المخابرات المصرية أن تحصل بإستمرار على صورة من تقارير المخابرات الإنجليزية ورغم إتخاذ الإنجليز كافة الاحتياطات

خطابات نينو العاشق

اتصلت المخابرات برئيس الكتبة فى منطقة السويس وكان إيطاليا وإسمه (نينو) لكى يتعامل معها فأشترط الرجل أن تبقى السلطات المصرية الفتاة التى يحبها وهى ايطالية أيضاً فى مصر وأن توقف إجراءات ترحيلها إلى بلدها. وأتصل كمال الدين رفعت بقائد المخابرات زكريا محيى الدين وأطلعه على الامر فوافق على بقاء الفتاة فى مصر وعلى الفور بدأ نينو العاشق العمل مع المصريين وكان بحكم عمله يفتح الخطابات التى ترد إلى الضباط البريطانيين فى منطقة السويس وكان من هذه الخطابات تقرير المخابرات البريطانى الاسبوعى الذى تصدره قيادة القوات البريطانية فى مصر وكان الرجل يذهب بالخطاب الذى يوجد به هذا التقرير إلى ضابط

المخابرات الذى يتعامل معه فيتم فتحه بطريقة خاصة ثم تصوير ما به ثم يعيد نينو الخطاب مرة أخرى. وإستمر الرجل يتعاون مع المخابرات أكثر من عامين وكانت محبوبته (إيزيس) التى تزوجها تساعده فى ذلك.. وكان نينو يتميز بقدرات فائقة حيث يمكنه حفظ التقارير التى لا يستطيع أن يخرج بها من المعسكر ثم يذهب إلى بيته ليكتبها ويرسلها مع زوجته إلى المخابرات المصرية. كما كان نينو بحكم عمله يحضر معظم الاجتماعات الهامة التى يعقدها قادة الجيش الإنجليزى وكان يكتب تقريراً مفصلاً عن كل إجتماع يحضره ويرسلها إلى المخابرات المصرية وقد ساعدت هذه التقارير السرية كثيراً فى وضع خطط العمل للفدائيين. وبعد حوادث النسف فى التل الكبير والسويس أشار أحد هذه التقارير إلى أن الاعمال القادمة ستكون فى جنيفة مما جعل الفدائيين يغيرون خطتهم وضربوا التل الكبير مرة أخرى. ومن هذه التقارير كانت المخابرات تعرف أسماء الفدائيين المصرية المكشوفين لدى الإنجليز فيتم حمايتهم وأيضاً معرفة اسماء العملاء الذين يتعاملون مع المحتل. وإلى جانب ذلك كانت هذه التقارير تحوى معلومات عن تحركات القوات البريطانية وهى معلومات شديدة الأهمية على المستوى السياسى ومستوى العمل الفدائى.

وقد كتبت المخابرات البريطانية تحذر القيادة الانجليز من ان

تقـاريرهـم تصل بإنتظام إلى المخـابرات المصـرية. ورغم هذه التـحذيرات فـقـد وصل هذا التـقرير نـفسـه الى المصـريين. ومن هذه التقارير عرف قادة الثورة الكثير عن خطط الإستعمار البريطانى فى الشـرق الأوسط. ورغم كل الإحـتـيـاطات فـقـد حـصلت المخـابرات المصرية على كل ورقه أصدرتها المخابرات البريطانية منذ ثورة يوليو وحتى جلاء أخر جندى عن مصر . وفى اطار الحرب النفسية قامت المخابرات المصـرية بطبع بعض هذه التـقارير وعمدت إلى توصيلها إلى البـريطانين فى شبكل قـراطيس لب وسـودانى ووصل الامـر إلى تقـديم أحـد عـمـلاء المخـابرات المصـرية كيس سـودانى إلى القـائد الإنجليزى فى قرطاس من تقارير مـخابراته ومـا إن رأى ألرجل ذلك حتى ثار ولعن كل المخابرات البريطانية .

عبد الناصر وكتائب التحرير.

فى خطابه الذى القـاه عـقب توقـيع إتفـاقـيـة الجـلاء قـال الرئيس جمـال عـبد الناصر عن الفدائيين (كـانت كـتـائب الفدائيين الابطال ترابط فى كل طريق يسلكه المحتل وعلى رأس كل جسر يعبره تقذف الرعب فى قلوب الإنجليز وتهددهـم بالموت والدمار وتبث فى صفوفهم اسباب الإضطراب والفوضى. فدائيون أحرار باعوا أنفسـهم للوطن وخرجوا يتـعرضون للموت افـواجا بلا ضـجة ولا ضـوضـاء لا تذكر الصحف اسماءهم ولا صفاتهم ولا تقص شيئا من أخبارهم لأنهم لم

يخرجوا طلاب مجد وشهرة بل طلاب فداء وتضحية . لقد أنكروا نواتهم ورخصوا دماءهم وحددوا بدقة أهدافهم.

القوات البريطانية فى القناة

كانت القوات البريطانية قبل إلغاء معاهدة ٣٦ تتكون من الفرقة الاولى مشاة والفرقة الثانية مشاه والألاى الخامس المدرع. علاوة على وحدات المدفعية والهندسية والوحدات الإدارية بكل أنواعها. وبعد الغاء المعاهدة فى أكتوبر ٥١ جاء الإنجليز باللواء السادس عشر مظلات من بريطانيا والألاى المدرع (روبالز) لتعزيز القوات المحتلة فى المنطقة وإستمر وجود هذه القوات حتى قامت ثورة يوليو ٥٢ . وأعلنت منذ اليوم الأول عداءها للإستعمار وآلت على نفسها امام الشعب طرد الأستعمار من أرض الوطن . وعندئذ تدفقت القوات البريطانية من بريطانيا وكوريا والمانيا ومالطا فوصيل المنطقة اللواء الثالث مشاه – الأسطول – الفدائيون – كما وصل آلاى مدرع من ليبيا وتم إستكمال وحدات المدفعية وزيادة قوات سلاح الطيران.

جنود مورشيان

لم يكتف الإنجليز بكل هذا فأستقدموا عددا كبيراً من جنود المستعمرات مثل جنود المورشيان وجنود شرق ووسط إفريقيا وذلك لتدعيم قواتهم والمحافظة على أرواحهم وفى نفس الوقت إبعاد جنود المستعمرات عن بلادهم لعزلهم عن حركات بلادهم الوطنية. وقد

وصل عدد هؤلاء الجنود فى مصر ١٥ ألف جندى وكانت تسودهم روح التزمر لسوء معامله الانجليز لهم مما جعل عددا منهم يلجأون إلى السلطات المصرية هرباً من المعاملة السيئة. وقد إستطاعت المخابرات المصرية تكوين تنظيم سرى داخل هؤلاء الجنود أدى دوراً كبيراً إما بتوزيع المنشورات أو بإحضار المعلومات وأخيراً إضرابهم العام قبل توقيع معاهدة الجلاء بأيام .

خطة احتلال مصر

فكر الإنجليز فى الانطلاق من القناة لاحتلال مصر مرة أخرى وذلك للقضاء على حركة الفدائيين وضرب الثورة الوليدة . وكان لواء جنود المظلات الإنجليز مكلفاً ببعض الواجبات الخاصة مثل الهبوط فى منطقة نادى الجزيرة الرياضى فى وسط القاهرة لمعاونة القوات المتقدمة على طريق السويس - القاهرة. وكان واجب لواء مشاة الأسطول القيام بأعمال الحراسة فى المنطقة الجنوبية. كما كان مكلفا ببعض الواجبات الخاصة. ويقوم الطيران مع البحرية بمعاونة القوات البرية فى عملياتها واحراز التفوق الجوى.

حكام عسكريون لمدن القناه

إتخذ الإنجليز بعض الترتيبات لإدارة المنطقة بتعيين حكام عسكريين على مدن القناه الثلاث كما اتخذت الإجراءات لتولى رجال البوليس الحربى البريطانى أعمال البوليس المصرى فى المنطقة وقد

صدرت فعلا بعض التعليمات بهذا الخصوص بشأن الدخول والخروج من المنطقة والمسموح لهم بالتجول ليلاً مثل الأطباء ورجال الإسعاف ورجال النيابة والقضاء والبوليس المدنى على ألا يزيد عددهم عن أربعة أفراد.

وقد أتخذت القوات البريطانية بعض اجراءات الوقاية لتأمين نفسها بمنطقة القناه - مثل ..

- وضع خطة أمنية لمنع تسرب الأسلحة والذخيرة من المعسكرات
- اضاءة المعسكرات ليلا وتشديد الحراسة عليها
- عمل دوريات وكمائن حول المعسكرات
- إستخدام كل وسائل الإنذار فى حالة هجوم الفدائيين
- اصدار العديد من الاوامر لضمان أمن الأفراد

صبى الترزى .. أنقذ الثورة ..

إستطاع قادة الثورة أن يعرفوا فى صباح ٢٤ يوليو ٥٢ أخبار تحركات الجيش البريطاني في القناة لضرب الثورة الوليدة وإحتلال البلاد والطريف أن مصدر الأخبار كان صبى ترزى لا تتعدى سنه ١٧ عاما وإسمه حسن خلاف وقد روى عبد الفتاح غنيم ضابط جوازات القنطرة في ذلك الوقت القصة فقال .. لاحظت بعد إذاعة البيان الأول للثورة أن عربات الجيش الإنجليزى لم تحضر لنقل العمال إلى المعسكرات كالمعتاد وفكرت فى أن ذلك ربما يرجع إلى

الإحتياطات العادية . ولكن فى حوالى الخامسة من مساء ٢٣ يوليو جاءنى شاب لا تتعدى سنه ١٧ عاما ويعمل صبى ترزى فى معسكرات الأنجليز وكثيرا ماكنا نكلفه بإحضار بعض الأخبار من المعسكرات وقال لى إنه لاحظ أن عربات الجيش الإنجليزى لم تحضر لأخذ العمال فذهب إلى المعسكرات كي يعرف السبب. وقد تحمل الشاب حسن خلاف الكثير من المشاق حتى تمكن من دخول المعسكر ولاحظ أن الجنود الإنجليز يتجمعون بشكل غير عادى وعرف بحكم عمله كترزى أن الانجليز قد فتحوا مخازن الملابس وأخذوا كل الملابس حتى التى لم يتم العمل بها. وأضاف حسن خلاف أنه توقع أن تكون هذه التجمعات ضد مصر خاصة بعد أن علم بخبر الثورة صباح نفس اليوم والتى لابد وأن تكون ضد الإنجليز فراح يتقص الأمر بحذر شديد فعرف أن فرقة الكورماندوز الإنجليزية تستعد للتحرك إلى القاهرة فى نفس الليلة وعلى الفور غادر المعسكر وجاء ليخبرنى .. ويكمل عبد الفتاح غنيم اتصلت على الفور بالصاغ عاطف سعد وسألته عن الوضع فى بور سعيد فأخبرنى بوجود ثلاث ناقلات جنود فى الميناء وأنه غير مطمئن لذلك ثم إتصلت باليوزباشى توفيق عبد الفتاح الذى حضر فى نفس اليوم ليصبح مسؤلا عن المنطقة من قبل الثورة وأخبرته بالأمر وقررنا أن نتأكد من صحة الخبر حتى لا نبلغ القاهرة أخباراً غير مؤكدة. فذهبنا الى المقهى

على طريق المعاهده وطلبنا من صاحبها أن يغلقها علينا والا يسمح بدخول أحد أو الجلوس فيها. ومن ثقب الحجرة التى بها التليفون وحوالى الساعة السابعة مساء من نفس اليوم رأينا تحركات قوات الإنجليز .. عربات لا حصر لها مشحونة بالجنود مع دبابات ومدرعات كثيرة. وأخذ توفيق عبد الفتاح ينقل إلى رفح وصفا بأنواع الأسلحة التى يحملها الجنود وعرفنا من رفح أنها تنقل الأخبار أولا بأول الى القاهرة. وفى صباح ٢٤ يوليو كانت قوات الثورة تتقدم الى طريق السويس فى صمت ثم تنتشر على مواقع واسعه تتقاطع معه وتواجه الخط الذى تقف فيه القوات البريطانية وفوقها مجموعة من طائرات الإستطلاع وكانت الأوامر لدى قوات الثورة هى وقف القوات البريطانية بأية طريقة اذا حاولت التقدم الى القاهرة حتى ولو أدى الأمر إلى عملية انتحارية . وفى نفس الوقت تم تكليف على صبرى با بلاغ سفيرى بريطانيا و أمريكا بأن الثورة المصرية عمل داخلى ليس لأى دولة أخرى أن تقف ضده والا تعرضت لعملية إنتحارية يخوضها الشعب المصرى كله

تطهر منطقة القناة من الجواسيس

كان من الضرورى لكى تنجح حرب التحرير ضد الإنجليز فى القناة أن يتم تطهير المنطقة من جواسيس الإنجليز . فقام الضباط عمر لطفى – محمود حلمى – كمال رفعت بإجراء عمليات القبض

على العملاء.

فمثلا الخائن صبرى كنج كان يقوم بالتحقيق مع الفدائيين فى معارك القناة عام ٥١ ويقوم بتعذيبهم وكان يذيع البيانات العربية بالميكرفون على لسان الإنجليز. وهو الذى طالب جنود بلوكات النظام بالاستسلام يوم المذبحة ٢٥ يناير ٥٢ وفى أول ديسمبر تم وضع خطة للقبض على صبرى كنج بإستدراجه عن طريق شخص كان يثق فيه ويأتمنه وإسمه صبرى السروجى . وتم الإتفاق مع السروجى على أن يأتى بصبرى كنج مقابل العفو عنه وأن يقطع صلته بالإنجليز وأرسل السروجى سيارة تاكسى يملكها إلى صبرى كنج لتحضره فجاء ومعه إثنان من رجال المخابرات البريطانية. وبعد معسكر الزخيرة بالتمساح وعلى مسافة لا تزيد عن ١٠٠ متر تم إيقاف السيارة وقام كمال رفعت وعمر لطفى ومحمود حلمى بنقل الثلاثة إلى مبنى المخابرات الحربية. وهناك تم التحفظ على رجلى المخابرات الأنجليزية ولم يفرج عنهما إلا بعد وصول إشارة من التل الكبير بخروج الخائن صبرى كنج من المنطقة إلى القاهرة.

وفى الاسماعيلية تم أيضا القبض على عطية عزيز جندى – حسن السيد أحمد الشهير بحسن قدرى – ابراهيم إسماعيل – حسن محيى الدين – سعد يوسف سليمان. وقد أظهر التحقيق براءة الأول والرابع فحكم لهما بالبراءة وحكم على الباقين بالأشغال

الشاقة المؤيدة وكانوا جميعا يعملون مقاولين فى الجيش الإنجليزى بالتل الكبير .

وفى أحد أيام يناير ٥٢ وضع كمال رفعت وحسين عرفه خطة لخطف كل من حسن قدرى وأستاس كرياكو وهما عن عملاء الإنجليز ويقيمان بالمعسكرات البريطانية ولا يخرجان إلى المدينة إلا بحراسة مشددة من الإنجليز. وكان المطلوب خطفهما رغم هذه الحراسة. وقد ذهب الجاسوسان إلى فندق (بسطا) ومعهما إثنان من المخابرات البريطانية. ووقف كمال رفعت وحسين عرفه خارج الفندق حتى خرجوا وركبوا سيارتهم فركبا سيارتهما وسارا خلفهم وعندما شعروا بأنهم مطاردون زادوا من سرعتهم لتبدأ مطاردة مثيرة فى شوارع الإسماعيلية وأخيراً خرجوا إلى طريق القناه فى إتجاه السويس وإستطاع كمال رفعت وحسين عرفه إيقاف سيارة الجواسيس وتحت تهديد السلاح تم القبض على الجاسوسين حسن قدرى وكرياكو وتم الإستيلاء على أسلحة ضابطى المخابرات الإنجليزية ثم تركهما يرحلا وعلى الفور تم ترحيل الجاسوسين إلى القاهرة .

أخطر قضية جاسوسية

فى أواخر عام ٥٢ علم اليوزباشى عبد الفتاح أبو الفضل من أحد الفدائيين أن شخصا يتردد على قيادة القوات البريطانية

بالقناة. فدبر له أبو الفضل كمينا مع بعض الفدائيين للقبض عليه عند دخوله المعسكر الذى به القيادة وتم القبض عليه . وعند تفتيشه تاكدت المعلومات عنه فقد كان يقوم بتسريب بعض المعلومات العسكرية عن الجيش المصرى إلى الانجليز. وثبت إن إسمه (الفريد عوض ميخائيل) وكان يحصل على تقريرات ومستندات سرية من إدارة الأبحاث والتطورات الحربية وكان يأخذها من الجاسوس محمد عزت محمد راغب الذى كان موظفا بالإدارة المذكورة. وكان يشترك معهما جاسوس ثالث هو بولس مكسيموس سويجة وقد حكم عليهم جميعا بالإعدام وبالقضاء على هذه الشبكة الجاسوسية تم القضاء على المصدر الذى كان الإنجليز يعتمدون عليه فى الحصول على معلومات عن الجيش المصرى.

حرب الشائعات

فى أواخر عام ٥٣ وبعد توقف مباحثات الجلاء لعدة أشهر وصلت فيها الروح المعنوية للإنجليز إلى درجة سيئة روج الفدائيوان شائعة بين الإنجليز تؤكد بأن المفاوضات على وشك الإنتهاء وأن الإتفاقية ستوقع خلال أيام وما إن سرت هذه الشائعة والتى تأكدت عندهم بتوقف هجوم الفدائيين أياما . وتناقل الجنود الإنجليز فى مختلف المعسكرات تلك الشائعة فحدث تراخ فى الحراسات والدوريات حتى وصل الأمر ببعض الحراس إلى ترك بوابات المعسكرات إعتماداً على

أن المصريين لن يقوموا بأى شىء ما دام الإتفاق قد أصبح وشيكا وبعد ثلاثة أيام من سريان الشائعة ذاد تراخى الإنجليز. وفى اليوم الرابع شن الفدائيون هجوما واسعا شمل جميع المعسكرات تقريبا وفى توقيت واحد وكانت حصيلة هذه الهجمات المفاجئة مئات الأسلحة والعربات حيث كانت الأوامر الصادرة إلي الفدائيين عدم قتل الجنود إلا فى حالة الدفاع عن النفس فقط وذلك إمعانا فى إذلالهم وام يقتل سوى عدد قليل من الذين تنبهوا إلى هجوم الفدائيين.

وفى ابريل ٥٤ حدث نفس الشىء تقريبا فبعد حوادث النسف فى معسكرات الانجليز داخل معسكرات التل الكبير تم إطلاق شائعه تؤكد أن حوادث النسف القادمة ستكون فى منطقة قايد وفناره فقام الانجليز بإتخاد الإحتياطات الشديدة وركزوا الحراسات والدوريات فى فايد وفنارة وفجأة قام الفدائيون بعدة هجمات فى منطقة السويس فوجئ الانجليز بها ولكنهم كانوا يقعون فى نفس الفخ كثيراً

إذاعة الحرب النفسية

قبل ثورة يوليو بسنوات طويلة أنشأ الإنجليز إذاعة لهم فى منطقة فايد وكانت تبث كل سموم الإستعمار. وقد رأت الثورة أن ترد عليهم بنفس الطريقة فأنشأت محطة إذاعة سرية تذيع على الجنود البريطانيين فى أوقات فراغهم باللغة الانجليزية وتبين لهم وجهة نظر

مصر فى مشكلة القناة وتقارن بينها وبين وجهة النظر الإنجليزية الإستعمارية التى تهدف الى القضاء على حرية الشعوب مهما كلفها ذلك من خسائر فى المعدات والأرواح. وكانت هذه الإذاعة تذيع أسماء الدوريات والترقيات والجزاءات - الخ التى تتم يوميا فى معسكرات الإنجليز. وأصبح الجنود الأنجليز شغوفين بهذه الإذاعة وأصدر القادة الإنجليز الأوامر المشددة لمنع الضباط والجنود من الإستماع الى هذه الإذاعة ورغم ذلك كان الضباط والجنود يستمعون اليها بوسائلهم الخاصة .

منع الصحف عن الانجليز

منعت القيادة المصرية الصحف عن قوات الاحتلال كإحدى وسائل المقاومة وتحطيم المعنويات وقد تولدت هذه الفكرة عندما لاحظ متعهد الصحف الوحيد داخل المعسكرات أنه عندما تأخرت الصحف ذات يوم لمدة ساعتين فقط إنهالت عليه الأسئلة من الضباط والجنود عن سبب هذا التأخير وظنوا أنه عمل مدبر من الحكومة المصرية. وقد إتصل هذا المتعهد بعبد الفتاح أبو الفضل وأخبره بما حدث فقرر أبو الفضل منع الصحف من الوصول إلى المعسكرات وكان عواد حسن يحصل كل يوم على أثمان الجرائد من الانجليز ثم يخبرهم أن البوليس المصرى صادرها عند نقط التفتيش وإستمر هذا الوضع أياما طويلة. وعندما أستؤنفت مفاوضات الجلاء فى يوليو ٥٤

ضاعت الجلسة الأولى فى توسلات الانجليز إلى الجانب المصرى كى يسمح بالصحف فى المعسكرات . وأصدر عبد الناصر أوامره برفع الحظر على دخول الصحف وقابل الانجليز هذا القرار بالإمتنان الشديد.

عبد الناصر يفند مزاعم الإنجليز

أصدرت بريطانيا أوامرها فى ٢٠ مايو ٥٣ إلى رعاياها كى يرحلوا عن مصر فى محاولة لتأليب الرأى العام العالمى ضد مصر بدعوى الأعتداء على رعاياها. وقد باءت هذه المحاولة بالفشل بفضل إستمرار نضال الفدائيين وبفضل مبادرة عبد الناصر التى أعلنها فى ٢٢ مايو ٥٣ وقال فيها إن قضية الوطن قد وصلت إلى مرحلة رأى معها الإنجليز أن يشنوا علينا معركة من معارك الحرب الباردة التى لا هوادة فيها والضغط على الأعصاب ولكن الإنجليز سيخسرون هذه المعركة لأن قضيتنا حق وموقفنا فيها موقف المتمسك بحقه المؤمن به والمستعد للدفاع عنه. إن الذين لا نزيدهم فى بلادنا هم جنود الإحتلال الإنجليزى وحدهم دون غيرهم. أما الأجانب جميعا حتى الرعايا البريطانيين المدنيين من أفراد الجالية البريطانية فهم فى حماية مصر) ثم أضاف عبد الناصر (إن مصر لن يستريح لها خاطر .. ولن تخرجها مؤامرة عن القصد الذى عقدت عزمها على الوصول إليه. ولن تلهيها المسرحيات المختلفة مهما كانت محبوكة

الاطراف عن الحقيقة الكبرى فى كفاحها وهى أن على أرضها جيشا غريبا يجب أن يرحل وإعتداء على حريتها ينبغى أن ينتهى)

وفى ١٤ يونيه ٥٣ أعلن عبد الناصر (إننا نوزع السلاح فى جميع أنحاء البلاد. اننا نعمل على تدريب جميع أبناء مصر ولن يستطيع المستعمر أن يبقى فى بلادنا إلا بعد القضاء علينا. لن يستطيع الإنجليز أن يقضوا على ٢٢ مليونا (تعداد مصر فى ذلك الوقت)] وفى ذلك الوقت تدفقت كل طبقات الشعب على معسكرات الحرس الوطنى فى كل مدينة وحى ومركز وقرية وسرت روح الجندية فى نفوس الأفراد والجماعات والهيئات.

وكان موقف الثورة الواضح يتمثل فى ضرورة أن تحمى حركة الشعب المنظمة ظهور الفدائيين فى القناة لتمد المعركة بالفدائيين المدربين. وفى نفس الوقت وضع قوى الشعب فى موضع الإستعداد لإحباط مؤامرة فصل القناه عن بقية مصر أو أحتلال البلاد كلها. ولإحباط هذه المؤامرات تم إعداد الشعب كله لمعركة حرب العصابات ضد الانجليز واكدت هذه الخطة على عدم إستئناف مفاوضات الجلاء إلا بعد التعبئة الضرورية للشعب وتدريبه على حرب العصابات.

وقد سار التدريب فى كتائب الحرس الوطنى على مرحلتين الأولى مرحلة التدريب الفردى لإكتساب كل مهارات الجندى المحترف والثانيةمرحلة التدريب المشترك فى صورة معارك بالزخيرة الحية.

وأصبح جنود الحرس الوطنى على أتم الإستعداد للتضحية بحياتهم فى سبيل الوطن بالمشاركة فى حرب التحرير بمنطقة القناة وقد إستلزم ذلك تشوين السلاح اللازم داخل مطقة القناة فى سراديب ومنازل وتحت الارض. وفى أمكنة سرية يعرفها الفدائيون وذلك حتى إذا قام المحتل بفصل منطقة القناة ومنع الدخول إليها وجد الفدائيون السلاح الذى يقضون به على المستعمر. كما أقيم فى داخل المنطقة شبكة من الأجهزة اللاسلكية فى أماكن سرية لتسهيل الإتصال فى حالة العمليات. وقامت المخابرات العامة بتزويد قوات الحرس الوطنى بالمعلومات والخرائط اللازمة لهم فى منطقة القناه. وقد بلغ عدد المواطنين الذين تدربوا على حمل السلاح وأعمال حرب العصابات أكثر من ثلاثين الف فى نوفمبر ٥٢.

أزمة مفتعلة

فى ١٢ يوليو ٥٢ رفضت مصر إنذارا بريطانيا بسبب إختفاء جندى بريطانى من جنود الإحتلال إسمه (لاكر يجدن) ولم ترفض مصر الإنذار فقط بل ضاعف الفدائيون فى نفس الوقت من هجماتهم رداً عى إنذار بريطانيا وفى نفس الوقت قاطع أصحاب المحلات فى منطقة القناة الإنجليز مقاطعة تامة وصدرت أوامر الحكومة المصرية بتحريم بور سعيد والإسماعيلية على القوات البريطانية. وقد توالت تقارير المخابرات البريطانية التى تؤكد هجمات الفدائيين والخسائر

التى أحدثتها هذه الهجمات.

الحصار الغذائى

كانت معاهدة ٣٦ تنص على أن القوات البريطانية فى القناة عشرة آلاف جندى فقط. ولكن العدد الحقيقى لهذه القوات كان ثمانين ألفا. وقد رأت الثورة الإستفادة من تمسك الإنجليز بمعاهدة ٣٦ ليس بهدف الحرص على تنفيذها بعد أن رفضها الشعب ولكن بهدف تجويع القوات البريطانية لتصبح فى وضع معنوى يخدم نضال الفدائيين ضد الإنجليز. فقررت قيادة الثورة عدم السماح بإمدادات تموينية للإنجليز بكميات تزيد عن الكميات اللازمة لعشرة آلاف جندى وهو العدد المنصوص عليه فى معاهده ٣٦ وتم عمل نقاط تفتيش لمراقبة حركة الخضروات وغيرها من السلع لمنع ما يزيد عن الكميات المقررة ولمراقبة تحركات الإنجليز.

وكان تنفيذ هذا القرار يعنى ببساطة تجويع القوات البريطانية المحتلة حيث أصبح على كل جندى أن يعيش على ١/٨ المقرر له من إحتياجات غذائية ضرورية مما يعمل على تدهور معنويات الجنود ويعطى الفرصة للمخابرات المصرية ليس فقط لشراء ذمم كبار الضباط وإنما لشراء أسلحة الجنود بأبخس الأثمان فضلا عن الكشف عن العملاء الذين يتعاملون مع القوات البريطانية وعلاوة على ذلك كله مراقبة جميع مداخل المنطقة بحيث كانت تحركات الجيش

البريطانى تحت سمع وبصر المخابرات المصرية. وقد سهل هذا القرار أعمال الفدائيين فى القناه لكى يعملوا القتل والدمار والتخريب فى معسكرات الإنجليز.

تشترى سلاح .. ؟

وقد روى مصطفى فهمى المراقب العسكرى للإسماعيلية فى ذلك الوقت أن ثمن البيضة وصل داخل المعسكرات إلى عشرة قروش وأن أسلحة كثيرة كانت تباع للفدائيين مقابل بعض المأكولات أو زجاجة بيره. وأنه قد أستطاع عن طريق عمله أن يرشد المخابرات عن بعض عملاء الإنجليز وجواسيسهم. ويذكر أيضا أن الانجليز كانوا يرسلون اليه بعض التجار يعرضون عليه مبالغ طائلة وصلت إلى خمسين الفا من الجنيهات كى يسمح بمرور بعض مواد التموين وكان نصيب بعضهم الضرب المبرح والبعض الأخر الإعتقال والمحاكمة. وقد فكر الإنجليز فى حيلة يحصلون بها على المواد التموينية فكانوا يقولون للعتالين والعمال الصغار الذين يعملون فى معسكراتهم أن يحضر كل واحد أربع بيضات وأوقية شاى ليسهل تخبئتها وبالفعل إستطاع الإنجليز أن يحصلوا على كميات ضئيلة من المواد التموينية لمدة أيام. وبعدها عرفت نقط التفتيش المصرية هذه الحيلة فمنعت العمال ولم تكتف بمنعهم ولكن قام الفدائيون بتوعيتهم فأستجاب عدد كبير من العمال وإمتنع الجميع عن توصيل أى مواد تموينية للإنجليز رغم

الاسعار الخيالية التى كانوا يفرضونها. وقد تحولت أزمة الغذاء فى معسكرات الانجليز إلى أزمة سياسية داخل إنجلترا نفسها حيث طلب نواب حزب العمال الإنجليزى فى مجلس العموم فتح باب المناقشة حول سوء أحوال المعيشة بالنسبة للجنود البريطانيين فى منطقة القناة. وخرجت الصحف الإنجليزية فى ١٤ فبراير ٥٤ بتفاصيل هذه المناقشات والتعليقات عليها.

تأديب الإنجليز على تهورهم

فى مساء يوم ٢٠ يناير ٥٤ أطلق الأنجليز الرصاص على سيارة للجيش المصرى (فى أول حادث من نوعه) وكانت السيارة تحمل ١٧ جنديا من سلاح الطيران فأصيب أربعة منهم ثم مات أحدهم. وفى صباح اليوم الثانى تلقى الإنجليز الرد عنيفا على حادثهم الاستفزازى حيث عمل الفدائيون كمينا فى نفيشه وأطلقوا النار على جنديين بريطانيين كانا يحرسان ساحة مناورات السكة الحديد فقتلا فى الحال وأعترفت السفارة البريطانية بالحادث وفى يوم ٢٣ يناير ٥٤ وصلت السفير البريطاني بالقاهرة تعليمات من لندن للتفاهم مع الحكومة المصرية فردت مصر بأنها ليست مسؤله عن حماية جنود الأحتلال فى القناه.

وفى ٥ فبراير ٥٤ إتهمت بريطانيا مصر بخطف الكثير من جنود الاحتلال فى منطقة القناه وأعادت مصر ردها بأنها ليست ملزمة

بحماية قوات الإحتلال.

وفى ٨ فبراير ٥٤ أفسدت مصر مناورة بريطانية فى مجلس الأمن لإتخاذ قرار يلزم مصر بالسماح لإسرائيل بالمرور فى قناة السويس. وفى ١٣ فبراير عقد فى فايد إجتماع موسع للقاده البريطانيين لمناقشة تقليل النفقات الباهظة لقاعدة قناة السويس. وفى نفس الاجتماع تقرر ترحيل جميع الجنود الأفريقيين الذين يعملون فى منطقة قناة السويس بعد أن ثبت بشكل قاطع أن ثورتهم لن تنتهى إلا بإعادتهم إلى أوطانهم.

الرأى العام البريطانى يرفض الوجود فى القناه

سأل النائب العمالى ميتلاند وزير الدولة البريطانى سلوين لويد عن الحوادث التى وقعت فى قناة السويس ضد القوات البريطانية وممتلكاتها فاجاب الوزير قائلا (إن مجموع الحوادث من هذا النوع فيما بين أول يناير ٥٢ وحتى ١١ فبراير ٥٤ بلغ ٣١٦ حادثة كما أن ١٤ رعية بريطانية قتلوا خلال هذه الفترة. فضلاً عن ٣١ فى حالة خطيره. وأضاف الوزير البريطانى بأن السلطات المصرية كانت تقوم بالتحقيق فى هذه الحوادث لكن النتائج كانت مخيبة للأمال.

وقال ميتلاند تعقيبا على كلام الوزير البريطانى (إن ذلك يمثل موقفا يؤسف له ويزداد سوءً على سوء وأضاف متسائلاً إلى متى تظل بريطانيا تخطو فى طريق الخضوع والمذلة.)

وفى ١١ مارس ٥٤ القى جون ستراتش وزير الحربية السابق فى وزارة العمال كلمة فى مجلس العموم عند مناقشة ميزانية الجيش ٥٤ /٥٥ فقال (إن منطقة السويس أصبحت أكثر من معسكر إعتقال للقوات البريطانية)

وقالت مسز كاسل الثائبة العمالية (ليعلم كل ذى صلة بالموقف أن البؤس الذى يلاقيه الجندى فى منطقة القناة لا تحتمه ضرورة عسكرية وإنما غرضه جبن الحكومة وسخفها فى معالجة شؤننا الخارجية.)

الرد على مقتل فريد ندا

قام الانجليز بقتل الضابط فريد ندا وفى صباح ١٣ مارس ٥٤ وأثناء تشييع جنازة الشهيد قام الإنجليز بحركات إستفزازية حيث خرجت سياراتهم على الطريق مصوبة مدافعها إلى المشيعين فى الجنازه. كما قاموا بالعديد من التفجيرات داخل معسكراتهم أثناء تشييع الجنازه وقاموا بإصابة عاملين مصريين الأول برصاصة فى ذراعة والثانى بخنجر فى جنبه الأيمن. وفى نفس اليوم أعلن الانجليز حالة الطوارئ فى منطقة القناه تحسبا لإنتقام الفدائيين بعد مقتل فريد ندا. وكان الفدائيون قد إعتادوا أن يقتلوا خمسة من الانجليز مقابل قتلهم لكل مصرى. وفى ظهر نفس اليوم ١٣ مارس مر فى بحيرة التمساح لنش به ١٦ جنديا إنجليزيا فى طريقة الى ماكينة

المياه لحراستها فإذا برصاصات الفدائيين تنطلق من كل جانب لتقتل ضابطا وخمسة جنود. وقد جرح أحد الفدائيين فى رجله. وبعدها إنسحب الفدائيون إلى عزبة أبو جاموس وتنبه الإنجليز إلى ذلك فحاصروا حدود القرية بقوات كبيرة لتفتيشها والقبض على الفدائيين فقام كمال رفعت وعبد الفتاح ابو الفضل بالاتصال برجال الإسعاف ليدخلوا إلى القرية بعربة إسعاف وبها حكيمة بدعوى وجود حالة ولادة متعسرة ومطلوب نقلها إلى المستشفى فوراً. ودخلت العربة إلى عزبه أبو جاموس وبعد مدة تمكن رجال الإسعاف من الاتصال بالفدائيين وحملوهم معهم فى العربة دون أن يتتبه الإنجليز إلى ذلك. وأمكن إنقاذ الفدائى الجريح عبده على جمعه حيث عولج فى إحدى مستشفيات الجيش.

تصعيد عمليات الفدائيين

فى صباح يوم ١٨ مارس أطلق الفدائيون الرصاص على جنود إنجليز كانوا يسيرون على كوبرى الأسرى بالقرب من مقر القيادة البريطانية فى فايد وقتلوا هؤلاء الجنود. وظهر نفس اليوم أطلق فدائى النار على جنديين إنجليزين فى أبو سلطان فقتلهما فى الحال. وأخذ جثتيهما وأخفاهما. فجن جنون الإنجليز لأنهم حتى لا يستطيعون حماية جثث موتاهم فتحركت كتيبة المشاه التى كان الإنجليز قد أحضروها للإشتراك فى مؤامرة فصل القناة وأنتشر

الجنود فى القرية وأغلقوا جميع منافذها بحثا عن الجثتين. ثم أتوا بفرق الشياطين الحمر والكلاب البوليسية ولم يتركوا مكانا فى ابو سلطان إلا ونقبوا فيه ولكن دون جدوى ووسط هذا الحصار الرهيب تمكن الفدائيون من نشل الجثتين من الترعة ثم قاموا بدفنهما.

وقد أدى هذا التصعيد الخطير فى عمليات الفدائيين إلى أحباط مؤامرة الانجليز لفصل منطقة القناة عن بقية مصر.

وفى يوم ٢٣ مارس ٥٤ قال إيدن لقد وقع عدد من الحوادث فى الاسبوع الماضى وراح ضحيتها اربعة من الضابط والجند البريطانيين وجرح فيها أخرون وإختفى إثنان. ثم قال إيدن إن المفاوضات قطعت من قبل بسبب وقوع الحوادث فى منطقة القناه ولقد حذرت مصر أمام مؤتمر برلين من أننا لن نستطيع مواصلة المفاوضات فى الوقت الذى تحدث فيه مثل هذه الحوادث.

وفى نفس اليوم ٢٣ مارس ٥٤ أبلغت الحكومة البريطانية الحكومة المصرية (إن المفاوضات قد قطعت حتى تتخذ السلطات المصرية الاجراءات الكفيلة بحماية أرواح البريطانيين وممتلكاتهم) وردت مصر على الفور ٠بان الاتصالات لم تكن ذات صفة رسمية ولم يحدث مطلقا أن قبل الجانب المصرى فى أى وقت من الأوقات الدخول فى مفاوضات لها مثل هذه الصيغة).

وخابت تقديرات إيدن

حين أعلن إيدن في مارس ٥٤ عن رغبة الحكومة البريطانية في إستئناف المباحثات مع مصر كان يحسب أن الظروف التى أحاطت بالثورة (أزمة مارس) يمكن أن يستغلها لفرض شروطة الإستعمارية. وجاء رد عبد الناصر حاسما حيث اكد على أن الشعب المصرى مستعد لمواجهة الإنجليز في القناة. والحكومة لا تعارض في اجراء مفاوضات عن مصر تستند إلى حقيقة إستمرار حرب التحرير في القناة. فكفاح الفدائيين في القناة لم يتوقف لحظة واحدة وقد توالت تقارير المخابرات البريطانية في تلك الفترة تؤكد إزدياد العمليات الفدائية وتذكر بعض الخسائر الإنجليزية في هذه العمليات وتؤكد بأن مرتكبى هذه الهجمات القاتلة هم محمود الكنج - أبو جزر - سعد زيدان وقد أعطيت لهم الأسلحة عن طريق عمر لطفي ضابط المخابرات المصرية وأكدت التقارير البريطانية مسئولية عبد الحميد الشافعي أحد زعماء حركة التحرير في الإسماعيلية وأحمد حسن عاشور الموظف بإدارة الري.

وتوالت تقارير المخابرات البريطانية خلال شهر إبريل ٥٤ تؤكد على إزدياد العمليات الفدائية وتؤكد على أن محاولات التخريب بالمتفجرات تمثل الأن خطرا حقيقيا وتهديداً مباشرا ويجب تنبيه كل الرتب إلى اليقظة والاحتياط ضد هذا الخطر.

كيف تدخل المتفجرات إلى معسكرات الإنجليز؟

كانت المتفجرات تدخل معسكرات الإنجليز بواسطة مئات العمال المصريين الذين يعملون بالمعسكرات وذلك بوضع المتفجرات داخل (أرغفة الخبز) التي يأخذونها معهم وكان كل عامل معه متفجرات يعرف المكان الذي سيضعه فيها وكان الفدائيون يحددون الأماكن المطلوب نسفها بدقة بالغة وذلك من خلال الصور الفوتوغرافية حيث كانت المخابرات المصرية تملك صورا لجميع المعسكرات من الداخل وجميع الأماكن الحساسة بها. مثل ماكينات الإنارة - محطات ترشيح المياه - مخازن الذخيرة والسلاح - وكان المهندسون والفنيون يساعدون في ذلك بإرشاد العمال إلى الأماكن التي توضع فيها المتفجرات.

كما كانت هناك طرق أخرى لادخال المتفجرات إلى معسكرات الأنجليز مثل إلقاءها في عربات الجيش الإنجليزي وهي داخلة إلى المعسكرات أو عن طريق الشركة التي أسستها المخابرات المصرية خصيصا للتعامل مع القوات البريطانية في المواد التموينية. كما كان الفدائيون يتسللون ليلا إلى داخل المعسكرات ومعهم المتفجرات التي يضعونها في أماكن بعينها وكان الفدائيون يحرصون على أن تظهر الطريقة الأخيرة وكأنها الطريقة الوحيدة وذلك للتمويه على الوسائل الأخرى التي لم يكتشفها الإنجليز ولا مرة واحدة.

الإنجليز يفقدون السيطرة على معسكراتهم

إمعانا فى الحرب النفسية التى شنتها المخابرات المصرية على قوات الإنجليز فى القناة قام كمال رفعت بالأتصال بالتنظيم السرى داخل جنود الموريشيان فى معسكرات الإنجليز وتم الإتفاق مع قادة التنظيم على القيام بإضراب عام يشمل كل جنود المورشيان على أن يبدأ الإضراب بتوزيع أكبر قدر من المنشورات ثم يبدأ الإضراب الذى يتطور ليصبح أكبر عملية تخريب داخل معسكرات الإنجليز وذلك حتى يقتنع الإنجليز بأن سلطتهم المركزية قد إنهارت فى القناة تحت ضربات الفدائيين.

وفى يوم ٢٦ مايو ٥٤ شهدت منطقة القناة لأول مرة فى تاريخ الإحتلال الإنجليزى لمصر أول اضراب بين قواتها وأكبر عملية تخريب لممتلكاتهم. وفى يوم ٢٧ مايو أصدرت السفارة الإنجليزية بالقاهرة بيانا جاء فيه (أضرب أمس جنود الموريشيان عن العمل وسافر الكولونيل لويت والكولونيل تاكر إلى فايد لمقابلة القائد العام للقوات البريطانية فى منطقة القناة) وفى يوم ٢٨ مايو غادر كل جنود الموريشيان منطقة القناة بناء على أوامر القيادة البريطانية للشرق الأوسط بعد أن إتصلت بها قيادة القوات البريطانية فى القناة.

ومن لندن أرسل سلوين لويد يستجدى القاهرة إستئناف محادثات الجلاء ويقول إن بريطانيا ترى أنه من المفيد إستئناف

المحادثات وتأمل فى تعاون مصر وجهودها فى ضبط المسئولين عن الحوادث الخطيرة التى حدثت فى الأيام الأخيرة)

مصر ترد بالإنجازات

قامت مصر بالرد على مناورات إنجلترا بالعديد من الإنجازات على المستويين الداخلى والخارجى ففى يوم ٦ يونيه ٥٤ أعلن عبد الناصر عن نجاح أول تجربة لاطلاق قذائف صاروخية وفى يوم ١٨ يونيه ٥٤ أعلن عبد الناصر عن ترتيبات بين مصر ويوغسلافيا وأندونيسيا لعقد المؤتمر الأفريقى الأسيوى.

وفى يوم ٢٣ يونيه توقفت الحياة فى جميع معسكرات الإنجليز لا ضراب العمال المصريين والأجانب عن العمل تماما. كما توقفت الإمدادات التموينية للمعسكرات بعد امتناع التجار عن توريد احتياجات الإنجليز.

وفى يوم ٢٤ يونيو أعلن عبد الناصر (إنى أطمئن اطمئنانا راسخا إلى أن الإستعمار لن يبقى فى بلادنا وسيخرج أن طوعا وأن كرها) وفى يوم ٢٥ يونيه انتقلت القيادة البريطانية فى القناة إلى قبرص وفى يوم ٢٧ يونية بدأت القيادة البريطانية بالقناة هدم مخازن ومستودعات ومنشات الأدبية وهو الميناء والرئيس لحصول القوات البريطانية على الإمدادات والتموين منذ الحرب العالمية الثانية.

إستئناف المفاوضات

اضطرت إنجلترا إلى استئناف مفاوضات الجلاء فى يوم ١١ يوليو ٥٤ وإستمرت قيادة الثورة فى تعزيز قدرات مصر الذاتية بإنشاء العديد من مصانع إنتاج الزخيرة والأسلحة وقال عبد الناصر تعليقا على ذلك لقد عرف الإستعمار أهمية الجيوش فكان أول ما فعله هو أن قوض المصانع الحربية وهدمها وأحال واحداً منها وهو الحوض المرصود إلى مستشفى للعاهرات إسرافاً منه فى التنكيل بالمجد المصرى ومبالغة فى وضع شعارات العار محل العزة والشرف ولذلك أنشأنا العديد من المصانع الحربية)

إتفاقية الجلاء

تم فى يوم ٢٧ يوليو ٥٤ توقيع إتفاقية الجلاء بالاحرف الاولى وبعد توقيع المعاهدة بخمسة أيام وقع حادث غريب حيث تم نسف كوبرى أبو سلطان وأشار تقرير المخابرات البريطانية إلى أن الحادث من تدبير الاخوان المسلمين.

وفى خطابه التاريخى بمناسبة توقيع إتفاقية الجلاء قال عبد الناصر (إن هذا التاريخ لابد وأن يكتب يوما ما وأن يقرأه المواطنون جميعاً وسيعرفون يومئذ أى لون من الكفاح والتضحية أكره بريطانيا على توقيع هذا الإتفاق).

مواجهة الصهاينة بأسلحة الإنجليز

توقفت الاعمال الفدائية ضد الإنجليز بعد توقيع معاهدة الجلاء ولمدة ثلاثة أشهر ثم علمت المخابرات المصرية بتحركات تقوم بها اسرائيل على حدود مصر وكان الجيش المصرى فى أشد الحاجة إلى أنواع معينة من الاسلحة ورفض الإنجليز أن يمدونا بها. فصدرت الأوامر إلى الفدائيين بالحصول على هذه الزخيرة شريطة ألا يحدث أى إشتباك مع الإنجليز وكانت الزخيرة المطلوبة طلقات ٧٥مم الخاصة بمدافع المدرعات وقد أعد سعدوفا معاون محطة أبو سلطان للسكة الحديد بالإتفاق مع الفدائيين خطة الإستيلاء على هذه الزخيرة وأمكن فى ظرف شهر واحد الإستيلاء على ٢٠٠٠ صندوق تحتوى على خمسة ألاف طن دون أن يشعر الإنجليز وقد تكتمت القيادة البريطانية هذه الأخبار ولكن الصحف الإنجليزية علمت بالعملية ونشرتها فى صفحاتها الأولى. فأضطرت القيادة البريطانية إلى تشكيل محكمة عسكرية لمحاكمة عدد من الضباط الإنجليز بتهمة الإهمال

وقد سبق لسعدوفا ومعه مسيحة دميان الموظف بالسكة الحديد ومعهم سبعة آخرون من العمال أن أستولوا على كميات كبيرة من أسلحة وذخائر الإنجليز منذ عام ١٩٤٨ حيث كان يشرف عليهم مجدى حسنين ثم كمال رفعت بعد الثورة وكانت طريقة الإستيلاء

على هذه الأسلحة تتلخص فى معرفة نوع الشحنات الواردة أو الصادرة إلى معسكرات الإنجليز وكذا أرقام عربات السكة الحديد المختومة بأختام الجيش الإنجليزى. وحين تصل هذه العربات إلى المحطة يتم إستبدال العربات المشحونة بأخرى فارغة عليها نفس نمر الجيش الإنجليزى وأختامه ثم تسير العربات المشحونة بالذخيرة فى طريقها إلى القاهرة وقد حاول الإنجليز أن يعرفوا الطريقة التى يتم بها الإستيلاء على الذخيرة دون جدوى حتى أن تشرشل ذكر ذلك فى مذكراته على هيئة سؤال لم يجد له إجابة.

أقلام ومتفجرات

طلب زكريا محيى الدين رئيس الخابرات من الفدائيين قبل توقيع معاهدة الجلاء ضرورة الحصول على أقلام زمنية متفجرة كانت مطلوبة بالحاح لاعمال الفدائيين العرب داخل اسرائيل وقد تمكنت مجموعة الفدائيين من الحصول على كل الكمية الموجودة من هذه الأقلام فى مخازن الإنجليز فى أبو سلطان.

وفى عملية أخرى طلبت الحكومة المصرية ذخيرة خاصة برجال البوليس ورفض الإنجليز بيعها فتم الإستيلاء على مليون ومائة وخمسين الف طلقة فى ليلة واحدة وحين اكتشف الحادث بعد يومين قدم الجنرال (هال) احتجاجا إلى المحافظ. وقد قام البوليس بدور كبير لستر العملية وذلك من خلال الضابط حلمى الأعسر وبعض

بنود إتفاقية الجلاء.

حدثت خلافات كثيرة وكبيرة بين وفدى المفاوضات المصرى والإنجليزى حول بنود إتفاقية الجلاء وبعد جهد شاق تم الإتفاق على غالبية بنود الإتفاقية ولم يتبق إلا مدة الإنسحاب حيث طلب الإنجليز أن تكون عشرين شهراً وعلق الدكتور محمود فوزى على ذلك فى أخر جلسات المفاوضات (إن مدة الجلاء التى طلبتم تحديدها بعشرين شهراً لا تحقق ما طلبناه ومع ذلك فنحن على إستعداد لملاقاتكم فيها)

وبرقت عينا السفير البريطانى وقام بعنف من مقعدة وقال (إذن إتفقنا .. رباه.. معناه إن المشكلة قد حلت) وتم بالفعل التوقيع على الشكل النهائى للإتفاقية فى ٢٧ يوليو ٥٤ وكانت أهم نصوص إتفاقية الجلاء مايلى ..

أولاً: جلاء القوات البريطانية جلاء تاما خلال فترة عشرين شهراً من تاريخ التوقيع على هذه الإتفاقية.

ثانياً: إنتهاء معاهدة التحالف الموقع عليها فى لندن فى ٢٦ أغسطس ١٩٣٦ والإتفاق الخاص بالإعفاءات والمميزات التى كانت تتمتع بها القوات البريطانية فى مصر وجميع ما تفرع عنها من إتفاقات أخرى.

ثالثا: تبقى أجزاء من القاعدة التى كانت للإنجليز فى قناة السويس فى حالة صالحة للإستعمال وفى حالة وقوع هجوم مسلح من دولة من الخارج على أى بلد يكون طرفا فى معاهدة الدفاع المشترك بين دول الجامعة العربية أو على تركيا تقدم مصر لبريطانيا من التسهيلات ما قد يكون لازما لتهيئة القاعدة وإدارتها ويجرى التشاور فوراً بين مصر وإنجلترا.

رابعاً: تعرب الحكومتان عن تصميمهما على احترام الإتفاقية التى تكفل حرية الملاحة فى قناة السويس والموقع عليها فى الأستانه فى ٢٩ أكتوبر ١٨٨٨.

خامساً: لا يمس هذا الإتفاق ولا يجوز تفسيره على أنه يمس بأية حال حقوق الطرفين والتزاماتهما بمقتضى ميثاق الامم المتحدة.

سادساً: مدة هذا الإتفاق سبع سنوات من تاريخ توقيعه وعلى بريطانيا أن تتصرف فيما قد يتبقى لها وقتئذ من ممتلكات فى القاعدة مالم تتفق الحكومتان على مد هذا الإتفاق.

وقد تم الجلاء فى المواعيد المتفق عليها وأحيانا قبل موعدها ورحل الإنجليز عن آخر معقل كانوا يحتلونه فى بورسعيد وهو مبنى البحرية وتم تسليمه للجيش المصرى فى صباح ١٣ يونيه عام ١٩٥٦ وبذلك تحررت البلاد من أخر قوة للاحتلال الإنجليزى البغيض.

وفى ١٨ يونية عام ٥٦ رفع عبد الناصر العلم المصرى على مبنى

البحرية فى بورسعيد وأصبح هذا اليوم (عيد الجلاء)

قرار الزعيم.. والغاء معاهدة الجلاء

تتابعت الأحداث الكبيرة على المستويين الداخلى والخارجى خاصة بعد أن إستطاع عبد الناصر أن يجعل من مصر قوة اقليمية لها اهميتها القصوى وقد تصادم هذا بالطبع مع اطماع الإستعمار ورغبته فى الهيمنة على مصر خاصة لأنها رأس الحربة فى عمليات التحرر الوطنى التى إستطاعت مصر أن تحقن بها كل القوى الوطنية فى العالم كله.. ومن هنا كان لابد من التحرش بمصر داخليا وخارجيا (مشرع السد العالى - إستقلال الجزائر - عدم الانحياز .. الخ) مما أدى فى النهاية إلى إعلان الزعيم جمال عبد الناصر تأميم قناة السويس وأخذت انجلترا ومعها فرنسا واسرائيل من هذا القرار (شماعة) لتبرير العدوان الثلاثى على مصر (تفاصيل كل أحداث هذه المرحلة موجودة فى كتابنا بورسعيد بوابة التاريخ).

وكان اشتراك بريطانيا فى العدوان الثلاثى على مصر عام ٥٦ نقضا لا تفاقية ٥٤ وخرقا لكل نصوصها وأحكامها وعلى الفور أعلن عبد الناصر إلغاء معاهدة ٥٤ مع إنجلترا. ولم يكن إلغاء المعاهدة مجرد إجراء قانونى فحسب أو قرار جمهورى نشر فى الجريدة الرسمية وتناقلته ألصحف ووكالات الأنباء ولكنه كان خطوة لها مدلولها السياسى العميق وخطوة وثيقة الصلة فى إتجاه تأكيد السيادة ودعم الإستقلال الوطنى.

الإسماعيلية فى مواجهة الصهيونية

يوميات المقاومة والصمود خلال حرب الإستنزاف

خرجت مصر من تجربة العدوان الثلاثى قوة إقليمية عملاقة. وخرج عبد الناصر من هذه التجربة زعيما قوميا ونموذجا لكل قوى التحرر فى العالم. وقد استثمرت مصر هذه النجاحات فى مجال العلاقات الخارجية من خلال تأثيرها الفاعل فى مجريات الأحداث العالمية. كما إستثمرت هذه النجاحات فى مجال العمل الداخلى من خلال خطط التنمية والتحديث الطموحة التى وضعها عبد الناصر ليحدث التواءم بين قوة مصر السياسية وقوتها الإقتصادية. ومثل هذا الوضع لم يكن ليرضى قوى الإستعمار القديم أو الجديد فكان لابد من وضع الكثير من العراقيل أمام هذا التقدم المصرى لتحجيمه ولمنع تعميمه وإحتذائه من الدول الأخرى وعندما لم تستطع هذه العراقيل رغم خطورتها وكثرتها أن توقف المد المصرى على كافة الأصعدة كان لابد من وجود (مؤامرة) محبوكة الاطراف لضرب التجربة المصرية فى جذورها وفى ثمارها أيضا وقد استغل المتأمرين العديد من الأخطاء والخطايا التى كانت موجودة داخل نسيج التجربة

المصرية ليضربوا ضربتهم القاسمة فى حرب يونيه ١٩٦٧ مستخدمين الدولة الصهيونية كرأس حربة لتحقيق مآربهم.. وحدثت النكسة ولم يحدث الإنهيار الذى خطط له المتآمرون.. وكل ما حدث أن هذه الهزيمة قد إستفزت كل رصيد النضال والمقاومة فى خلايا المصريين ذلك الرصيد الذى تكون عبر سبعة آلاف عام من النضال المستمر. وقد تحول هذا الرصيد ومنذ ليلة لخامس من يونيو ٦٧ إلى ملحمة من الصمود والمقاومة وقد شهدت الإسماعيلية جانباً كبيراً من هذه الملحمة. وقد كانت ملحمة الإسماعيلية مأساوية فى بعض أوقاتها ولكنها كانت طوال الوقت بطولية ونبيلة. ورغم أن التجربة النضالية لمدينة الإسماعيلية طوال السنوات الست من ٦٧ – ٧٣ تستحق أكثر من كتاب إلا أننا سنحاول من خلال الصفحات التالية أن نقدم يوميات مختصرة لتلك التجربة العظيمة فى الصمود والمقاومة...

٥ يونيه .. ميلاد إرادة المقاومة

فى نهاية يوم الخامس من يونيه ٦٧ تأكد أهالى الإسماعيلية من حدوث النكسة وأصبحت المدينة خلال هذه الساعات تواجه أكثر من مشكلة ملحة وعاجلة.. مما جعل المبادرات الفردية ذات أثر كبير وفعال. فقبل أن يتدارك أحد أمر إستقبال الجنود العائدين من سيناء كانت جماعات من الأهالى قد أقامت ما يشبه محطات الإستقبال.

على شاطئ القناة مزودة بالماء وما يتسر من الطعام والكلمة الحلوة العطوفة ومنهم من عبر القناة وتوغل داخل سيناء وعاد بعشرات من الشاردين. ومنهم من تنبه ونبه إلى إحتمال تسلل العدو وسط هذا الزحام والإرتباك. وكل من قدر على شئ فعله بمسئولية كاملة أمام الوطن.

ووسط كل هذا ولدت إرادة المقاومة لتسكن كل من فى المدينة أوفى ضواحيها وأيضاً فى الوافدين من على خط النار خاصة وأن رجال المدينة قد شاركوا فى المقاومة عبر معارك ١٩٥١، ١٩٥٦ أى أنهم يعرفون طريقهم. اضافة إلى أن سلاحهم موجود. ومعهم أيضاً سكان الضواحى والقرى والعزب والنجوع فلاحون وعمال موظفون وضباط سابقون ومعهم أيضا (الشبيحة) وهم من أبناء المنطقة الذين إكتسبوا خبراتهم الفدائية خلال هجماتهم على معسكرات الإنجليز أيام الإحتلال.

وقد إتبع أبناء الإسماعيلية أسلوب الضغط بما يقترب من التظاهر لإستعجال بدء التدريب وتوزيع السلاح فى الحال وقد تم توزيع السلاح فى قرى المحافظة قبل عاصمتها وعندما إشتد الضغط داخل المدينة تم سحب بعض السلاح من الضواحى وإعادة توزيعه فى المدينة وبدأ على الفور تدريب الجماهير على أسوأ الإحتمالات وهو محاولة العدو عبور القناة إلى الضفة الغربية وقد إتصب تيار

العمل بأكثر من أسلوب نحو هدف واحد هو تشكيل مقاومة شعبية فى أقصر وقت ممكن وبالمتاح من الإمكانيات وقد توافد على الإسماعيلية وبقية مدن القناة العديد من أبناء المحافظات الأخرى للمشاركة فى المقاومة الشعبية ومن بين الوافدين كانت تبرز فى كل لحظة كفاءة ما لعمل ما فينطلق صاحبها إليه فى الحال بشعور الفائز بما تمناه.

وقد بدأت عملية تشكيل كتائب المقاومة الشعبية فى الإسماعيلية من خلال أكثر من جهد وأكثر من جماعة فهناك ثلاثة من الضابط السابقين حصلوا على تصريح بإقامة معسكر لتدريب الفدائين للعبور إلى الضفة الشرقية كما أعد الإتحاد الإشتراكى قوائم لتوزيع السلاح على أهالى القرى وشملت هذه القوائم أسس الإختيار لحمل السلاح وكانت الخطة إختيار نسبة مئوية من حاملى السلاح فى كل قرية ممن سبق لهم تأدية الخدمة العسكرية لاعدادهم كمدربين يقومون بتدريب بقية زملائهم كل فى قريته كمرحلة أولى. مع إيجاد الحد الأدنى من الإعداد السياسى لهذه المهمة وتم إختيار مقر القيادة فى الدفرسوار وتحدد يوم الجمعة ١٣ يونيه لعقد إجتماع فى السابعة مساءً يلتقى فيه قادة القرى مع قادة المقاومة فى القطاع الذى يشمل هذه القرى.

الفهرس

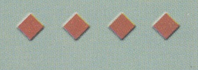
الموضوع	الصفحة

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الايداع بدار الكتب ١٠٧٩٠ / ٢٠٠٠

I.S.B.N 977 - 01 - 6808 - 4





هذا هو العام السابع من عمر «مكتبة الأسرة» .. ومنذ سنوات طوال لم يلتف الناس حول مشروع ثقافى كبير كما التفوا حول هذا المشروع الثقافى الضخم حتى أصبح مشروعهم الخاص، وطالبوا باستمراره طوال العام. واستجبنا لهذا المطلب الجماهيرى العزيز إيمانًا منا بأهمية الكتاب؛ وبالكلمة الجادة العميقة التى يحتويها؛ فى إعادة صياغة وتشكيل وجدان الأمة واستعادة دورها الحضارى العظيم عبر السنين.

لقد استطاعت «مكتبة الأسرة» .. أن تعيد الروح إلى الكتاب مصدرًا هامًا وخالدًا للثقافة فى زمن الإبهارات التكنولوچية المعاصرة.. وها نحن نحتفل ببدء العام السابع من عُمر هذه المكتبة التى أصدرت (١٧٠٠) عنوانًا فى أكثر من «٣٠ مليون نسخة» تحتضنها الأسرة المصرية فى عيونها وعقولها زادًا وتراثًا لايبلى من أجل حياة أفضل لهذه الأمة.. ومازلت أحلم بكتاب لكل مواطن ومكتبة فى كل بيت.

سوزان مبارك





١٥٠ قرش